غزوات الرسول ﷺ

دروس وعبر وفوائد

تأليف

الدكتور علي محمد الصلابي

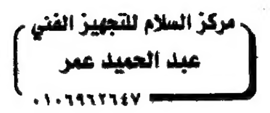
أعده للنشر

قاسم عبدالله إبراهيم



الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٣٢٠٥
الترقيم الدولي: I.S.B.N
٩٧٧ – ٤٤١ – ٠٤١ - ٦



مؤسسة اقـــرأ
للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ – ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣
www.iqraakotob.com
Email:iqraakotob@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، أما بعد:

فإن دراسة الهدي النبوي أمر له أهميته لكل مسلم، فهو يحقق عدة أهداف من أهمها: الاقتداء برسول الله ﷺ من خلال معرفة شخصيته وأعماله وأقواله وتقريراته، وتكسب المسلم محبة الرسول ﷺ وتنميها وتباركها، ويتعرف على حياة الصحابة الكرام الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم والسير على نهجهم واتباع سبيلهم، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول ﷺ، بدقائقها وتفاصيلها، منذ ولادته وحتى موته، مرورًا بطفولته وشبابه ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًا ومربيًا وداعية وزاهدًا وقاضيًا، وعلى هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها[(١)].

الأمة الإسلامية تتعلم من مغازي رسول الله ﷺ الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الأخلاق، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهذا قال علي بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن»

---

(١) انظر: السيرة النبوية دراسة وتحليل، د. محمد أبو فارس، ص٥٠.

وكتاب «غزوات النبي ﷺ دروس وعبر وفوائد» وهو جزء من كتابي «السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث» رأيت نشره منفصلاً لتعم الفائدة ولأهميته، وقد تحدثت فيه عن سنة التدافع وأهداف الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد تناولت فيه غزوات النبي ﷺ مبتدئا بغزوة بدر، وفي الفصل الأول وقد تحدثت عن مرحلة ما قبل المعركة ثم عن النبي ﷺ في ساحة المعركة ونشوب القتال وهزيمة المشركين، ثم تحدثت عن مشاهد وأحداث المعركة وتحدثت عن الخلاف في الأنفال والأسرى، ونتائج غزوة بدر ومحاولة اغتيال النبي ﷺ، وكذلك تحدثت عن بعض الدروس والعبر والفوائد.

وفي الفصل الثاني: تحدثت عن غزوة بني قينقاع

وفي الفصل الثالث: تحدثت عن غزوة أحد وأسبابها ونشوب القتال ومشاهد من المعركة، وأحداث ما بعد المعركة وغزوة حمراء الأسد، ومشاركة نساء المسلمين، ثم ذكرت بعض الدروس والعبر والفوائد مثل تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني، وكيفية معالجة الأخطاء وقوانين النصر والهزيمة.

وفي الفصل الرابع: تحدثت عن غزوة بني النضير فذكرت تاريخها وأسبابها وحصار وإجلاء بني النضير وبعض الدروس والعبر منها.

الفصل الخامس: وفيه تحدثت عن غزوة ذات الرقاع وتاريخها وأسبابها ولماذا سميت بهذا الاسم، واستخرجت ما فيها من دروس وعبر.

وفي الفصل السادس: تحدثت عن غزوتي بدر الموعد ودومة الجندل.

وفي الفصل السابع: تحدثت عن غزوة بني المصطلق.

وفي الفصل الثامن: تحدثت عن غزوة الأحزاب وذكرت تاريخها وأسبابها وأحداثها واشتداد المحنة بالمسلمين فيها، ثم مجيء نصر الله، والوصف القرآني لهذه الغزوة، وذكرت ما فيها من دروس وعبر وفوائد.

وقد تحدثت في الفصل التاسع عن غزوة خيبر وتناولت تاريخها وأسبابها ومسيرة الجيش الإسلامي إلى خيبر ووصفت تساقط حصونها وتقسيم الغنائم وزواج الرسول ﷺ من صفية بنت حيي ومحاولة اليهود الآثمة اغتيال النبي ﷺ وبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة.

وفي الفصل العاشر تحدثت عن سرية مؤتة وأسبابها وتاريخها وأحداثها وخرجت منها ببعض الدروس والعبر والفوائد.

وفي الفصل الحادي عشر تحدثت عن فتح مكة فذكرت أسبابها والاستعداد للخروج والشروع فيها وخطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها.

وقد تناولت في الفصل الثاني عشر غزوة حنين والطائف فبينت أسبابها وأحداثها وفقه الرسول ﷺ في التعامل مع النفوس، وما في هذه الغزوة من دروس وعبر وفوائد ونتائج.

وفي الفصل الأخير تحدثت عن غزوة تبوك وأسبابها وتاريخها وأسمائها وأحداثها، ثم العودة منها إلى المدينة وحديث القرآن عن المخلفين ومسجد الضرار، واستخرجت ما فيها من دروس وعبر.

إن السيرة النبوية غنية في كل جانب من الجوانب التي تحتاجها مسيرة الدعوة الإسلامية، فالنبي ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرة لمن يريد أن يقتدي به في الدعوة والتربية والثقافة والتعليم والجهاد، وكافة شؤون الحياة، كما أن التعمق في سيرة الرسول ﷺ يساعد القارئ على التعرف على الرصيد الخلقي الكبير الذي تميز به رسول الله ﷺ عن كل البشر، ويتعرف على صفاته الحميدة التي عاش بها في دنيا الناس فيرى من خلال سيرته مصداق قول حسان بن ثابت ﵁ عندما قال:

وأجمل منك لم تر قط عيني ... وأفضل منك لم تلد النساء

خُلقت مبرءا من كل عيبٍ ... كأنك قد خلقت كما تشاء

هذا ولا أدعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل، فشأن رسول الله ﷺ كبير، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفس أرق، وفقه أدقّ وذكاء أكبر وإيمان أعمق، كما أنني لا أدعي لعملي هذا العصمة أو الكمال، فهذا شأن الرسل والأنبياء، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

فالعلم بحر لا شاطئ له وما أصدق الشاعر إذ يقول:

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

يقول الثعالبي: لا يكتب أحد كتابا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة، فكيف في سنين معدودة؟

وقال العماد الأصبهاني: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا

لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر..

وأخيرًا أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب قال الشاعر:

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج ... مؤملا جبر ما لاقيت من عوج

فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب السماء في الناس من فرج

وإن ظللت بقفر الأرض منقطعا ... فما على أعرج في ذاك من حرج

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

علي محمد الصلابي

تمهيد
سنة التدافع وحركة السرايا

أولاً سنة التدافع:

إن من السنن التي تعامل معها النبي ﷺ سنة التدافع، وتظهر جليا في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي ﷺ ضد المشركين، وهذه السنة متعلقة تعلقا وطيدا بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنود المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيّل الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم)[١].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين وبعد إذنه لهم -سبحانه- بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر، وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال»[٢].

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الرازي (٣/ ٥١٤).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٦/ ١٠٨).

يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

إن هذا التدرج في حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان يأخذ في التكوين من حيث العُدد والعَدد والتدريب، وما إلى ذلك فكان لا بد من مضي فترة من الوقت يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم، يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يصلب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأس القوة الإسلامية، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية فيما لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد، وحينئذ يأتي وجوب القتال، في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية، والجيش الإسلامي على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن، أي بالإباحة لا بالوجوب أما في حالة ما لو تعرض فيه المسلمون وهم في دولتهم في المدينة لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها وأتباعها(١).

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله ﷺ في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات، والمعارك، وعد السعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قام النبي ﷺ بتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] في تكوين المجاهد المسلم يعتمد على نهجين متوازنين، التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

١- التوجيه المعنوي:

فكان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين، يمنحهم أملا يقينيا بالنصر أو الجنة، ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظل هذا (الأمل) يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال ويدفعه

---

(١) انظر: القتال والجهاد، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٦٣، ٤٦٤).

إلى بذل كل طاقته النفسية والجسدية والفنية من أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف[1] فمن أقواله ﷺ في حث أصحابه على الجهاد: «والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل»[2].

وقوله ﷺ: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيدُ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»[3].

٢- الأسلوب العملي:

فقد سعى النبي ﷺ إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء، رجالاً ونساءً وصبياناً وشباباً وشيوخاً، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال طعناً بالرمح وضرباً بالسيف، ورمياً بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان ﷺ يمزج خَطَّي التربية العسكرية المتوازنين: التوجيه والتدريب والأمل بالنصر أو الجنة وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله ﷺ: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أوقد عصى»[4] فهي دعوة إلى عموم الأمة وحتى من دخلوا في سن الشيخوخة للتدريب علي إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة. إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها ويوجهها نحو المعالي وعلو الهمة.

وكان ﷺ يهتم بالإعداد على حسب كل ظرف وحال، ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[5].

ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

١- حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩،٤٠].

---

(١) انظر: دراسة في السيرة، ص١٦١.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة (٣/ ٢٦٨) رقم ٢٧٩٧.

(٣) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلي الدنيا (٣/ ٢٧٤) رقم ٢٨١٧.

(٤) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه (٣/ ١٥٢٣) رقم ١٩١٩.

(٥) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه رقم ١٩١٧.

٢- حماية الشعائر والعبادات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۞ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[الحج: ٣٨-٤١].

٣- دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥٢].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا[1].

٤- الابتلاء والتربية والإصلاح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم وليبلو أخباركم[2] كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

٥- إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٥٤).

تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤،١٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال: ١٧،١٨].

٦- كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: أي لا بد أن يعقد شيئا من المحنة يظهر فيها وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ورسوله ﷺ[1].

٧- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض:

إن إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

٨- دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجهاد في الإسلام دفع عدوان الكافرين وهذا الجهاد أنواع منها:

أ- أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار:

لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها[2] قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤،٧٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١)

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ١٦٢).

ب- أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].

فقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين، يتعين الجهاد للدفاع عن الديار؛ لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذاباً، ونفذ فيها أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

قال بعض علماء الحنفية: «وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو»[١].

جـ- أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه- ولو كانوا كفارًا:

لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم، والعدل في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولا فلاح لهم إلا بذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

د- الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله:

إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى عز وجل أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يُسمعوا الدعوة إلى الله للناس، ويضعون العراقيل والعوائق، والحواجز بين الدعوة ودعاتها وبين الناس، ولذلك أوجب الله عز وجل على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى[٢].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) انظر: حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصلابي، ص٤٨٨.

الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۞ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١-٤].

ثالثاً: أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

بمجرد الاستقرار الذي حصل للمسلمين بقيادة الرسول ﷺ في المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد، كان لا بد أن يتنبه المسلمون وقيادتهم إلى الوضع حولهم وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة، وكان لا بد أن تنطلق الدعوة الإسلامية إلى غايتها التي أرسل الله محمداً ﷺ بها، وتحمل هو وأصحابه في سبيلها المشاق الكثيرة.

إن موقف قريش في مكة من أولى الأمور التي يجب أن تعالجها قيادة المدينة؛ لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان في المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلا بد من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبي ﷺ إلى المدينة واتخذت مواقف عدائية لضرب الإسلام والقضاء على المسلمين[1] واستمر هذا العداء بعد هجرة النبي ﷺ، فمن أهم المواقف الدالة على ذلك، ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ حدَّث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان (أمية) إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على (أمية) فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق (سعد) معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصُّبَاه[2] وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له (سعد) ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة...[3] وفي رواية عند البيهقي: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إلى الشام»[4] تدل هذه الواقعة على أن (أبا جهل) يعتبر

---

(١) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير، ص٧٩.

(٢) جمع صابئ: أي الخارج عن دينه، وكان المشركون يسمون من أسلم صابئاً.

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٥٠.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي، (٣/ ٢٥).

(سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنسبة إلى قريش، ولولا أنه دخل مكة في أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه، وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة لم يكن قبل الدولة الإسلامية فيها، فلم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمان لكي يسمح له بالدخول إلى مكة، بل إن قريشا كانت تكره أن تفكر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا في هذا الصدد يخاطبون أهل المدينة ما نصه: «والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[1] كما تدل هذه القصة على أن قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشام كانت في أمان إلى حدوث هذه الواقعة، لا تتعرض لها الدولة الإسلامية بمكروه، أي: كانت الدولة الإسلامية إلى هذا الوقت لم تعامل أهل مكة معاملة أهل الحرب، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصادي، ولم تصادر لهم أية قافلة، أو تقصدها بسوء؟ ومعنى هذا أن الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت، وأعلنت الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يسمح لهم بدخول مكة إلا بصفة مستأمنين[2].

* ودليل آخر على مبادرة رؤساء مكة في إعلان الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: «عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبي) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة ،قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه ولتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ عبد الله بن أبي، ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم» فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[3].

وهنا تظهر عظمة النبوة وعظمة القائد المربي ﷺ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان ﷺ يدرك أغوار النفس البشرية التي يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثراً في نفوس مشركي يثرب، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصف الإسلامي وزعزعة بنيانه الداخلي، بعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢).

(٢) انظر: الجهاد والقتال، (١/ ٤٧٦).

(٣) سنن أبي داود (٣/ ٢١٣) رقم الحديث ٣٠٠٤.

بالقتال صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والرد على قريش في إعلانها الحرب على المدينة، فاتجه نشاطه نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات[1] فكانت تلك السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى ومن أهمها:

١- غزوة الأبواء:

أولى الغزوات التي غزاها النبي ﷺ غزوة الأبواء[2] وتعرف بغزوة ودان[3] أيضاً، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، ولم يقع قتال في هذه الغزوة بل تمت موادعة بني ضمرة (من كنانة)، وكانت هذه الغزوة في صفر سنة اثنتين من الهجرة، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل[4].

٢- سرية عبيدة بن الحارث:

وهي أول راية عقدها رسول الله ﷺ[5]، وكان عدد السرية ستين من المهاجرين وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتي راكب وراجل، وكان قائد المشركين أبو سفيان بن حرب، وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء بوادي رابغ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص أول سهم رمي في الإسلام وكانت بعد رجوعه من الأبواء[6].

٣- سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النبي ﷺ في مقامه ذلك- أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء- حمزة بن عبد المطلب إلى سِيف البحر[7] من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجر بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعا للفريقين جميعاً، فانصرف القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال[8].

٤- غزوة بواط[9]:

وكانت غزوة رسول الله ﷺ (بواط) في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش كان فيها أمية بن خلف

---

(١) انظر الجهاد والقتال (١/ ٤٧٧).

(٢) قيل: سميت بذلك لما فيها من الوباء. (٣) ودان: قرية جامعة قريبة من الأبواء.

(٤) انظر: جيش النبي ﷺ لمحمود شيت خطاب، ص٥٤. (٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٧).

(٦) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد بكر آل عباد (١/ ٤٠).

(٧) سيف البحر: ساحله من ناحية العيص. (٨) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٩٥).

(٩) بواط: هو جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى بقرب ينبع.

في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير، فلم يلق النبي ﷺ كيداً فرجع إلى المدينة.

٥- غزوة العُشَيرة[١]:

وفيها غزا ﷺ قريشاً، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العُشَيرة، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضَمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً، وذلك أن العير التي خرجت لها الغزوة قد مضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إلى الشام[٢]، فساحلت على البحر وبلغ قريشاً خبرها فخرجوا يمنعوها فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى[٣].

٦- سرية سعد بن أبي وقاص:

وبعد غزوة العشيرة بعث النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في سرية قوامها ثمانية رَهْط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخَرَّار[٤] من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيداً[٥].

٧- غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كرز بن جابر الفهري، قد أغار على سرح المدينة ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له (سفوان) من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[٦].

٨- سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة[٧]:

وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رَهْط من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يوم من رجب للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحضرمي، وأسروا اثنين من رجالها وهم: عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وعادوا بهم إلى المدينة، وقد توقف النبي ﷺ في هذه الغنائم حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلما نزل القرآن الكريم قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وفي سرية عبد الله هذه

---

(١) العشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر، (مراصد الاطلاع ٢/٩٤٣).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٠).

(٣) نفس المصدر (٢/ ١١).

(٤) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة (مراصد الاطلاع ١/ ٤٥٥).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٠).

(٦) المصدر السابق (٢/ ٦٠١).

(٧) نخلة اليمانية: واد عسكرت به هوازن يوم حنين.

غنم المسلمون أول غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون[١].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

١- متى شُرع الجهاد؟

ذهب الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة إلى أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وعلل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم وتنظيم أحوالهم السياسية: كعقد التآخي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة، كي يأمنوا شرورهم[٢]، وذهب الأستاذ صالح الشامي أن الإذن بالجهاد كان في أواخر السنة الأولى للهجرة[٣].

٢- الفرق بين السرية والغزوة:

يطلق كتاب السير في الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي ﷺ ليلقى عدوه (غزوة)، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء كان عددها كبيراً أو صغيراً، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي ﷺ لاعتراض عدو كلمة: (سرية) أو (بعث)، وقد يحدث فيها قتال، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالباً ما يكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلاً؛ لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وإرباكه، وقد قاد رسول الله ﷺ سبعاً وعشرين غزوة، وأرسل ما يقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثاً، وقد خطط لها في فترة وجيزة في عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن[٤].

٣- تعداد سكان المدينة وعلاقته بالسرايا:

أمر النبي ﷺ بإجراء تعداد سكاني في السنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرة، وكان الإحصاء للمسلمين فقط أو حسب نص أمر رسول الله ﷺ حينما قال: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفاً وخمسمائة رجل[٥] فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجب واستغراب: «نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟!» لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا ومعهم السلاح خوفا على أنفسهم، وكان

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٤٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة(١/ ٧٥، ٧٦). (٣) انظر: معين السيرة، ص١٧٥.

(٤) في ظلال السيرة، غزوة بدر، لأبي فارس، ص١٢. (٥) انظر: الوثائق السياسية، حميد الله، ص٦٥.

رسول الله ﷺ يمنع خروجهم ليلاً فرادى حماية لهم من الغدر[1]، وبعد هذا التعداد مباشرة بدأت السرايا والغزوات، وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة[2].

٤- حراسة الصحابة للنبي ﷺ الشخصية:

كان الصحابة رضي الله عنهم يحرسون النبي ﷺ حراسة شخصية، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أرق النبي ﷺ ذات ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»، إذ سمعنا صوت السلاح، قال: «من هذا؟» قال: سعدٌ، يا رسول الله جئت أحرسك، فقام النبي ﷺ فنام حتى سمعنا غطيطه»[3]، وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى[4]، وفي حديث عائشة، مشروعية الاحتراس من العدو، والأخذ بالحزم، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته، وإنما عانى النبي ﷺ ذلك مع قوة توكله للاستنان به في ذلك[5].

٥- نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضَمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأنَّ لهم النصر على من رامهم، إلا أن يُحاربوا في دين الله ما بل بحرٌ صوفه[6] وأن النبي إذا دعاهم لنصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برَّ منهم واتقى»[7].

انتهز النبي ﷺ في غزوة الأبواء فرصة ذهبية، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش؛ ولذلك عمل رسول الله ﷺ على ضمان حيدتهم، في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته ﷺ حتى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[8].

---

(١) انظر: الروض الأنف (٥/ ٤٣).

(٢) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص١٦٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التمني (٣/ ٢١٩).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٠).

(٥) انظر: ولاية الشرطة في الإسلام، د. عمر محمد الحميداني، ص٦٣.

(٦) كناية على التأبيد والاستمرار.

(٧) الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص٢٢٠ رقم ١٥٩.

(٨) انظر: نشأة الدولة الإسلامية، د. عون الشريف، ص٤٣.

كان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي كانت سوقهم ومصدر رزقهم، قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وفق المصطلح الحديث[1].

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكري أو الاقتصادي أو التجاري، مع أي من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسي له أصل في الشريعة، وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل أو المرتقب[2]، وأن التحالف مبني على قاعدة رفع الضرر، والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي، أما إذا كانوا أتباعًا ومنفذين كما في الأحلاف الحديثة، فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعي، وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدي النبي ﷺ في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التي تقول: (لا ضرر ولا ضرار)[3].

يقول الشيخ مصطفى الزرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ما نصه:

«وهذه القاعدة من أركان الشريعة، وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهي عنه ما كان ضرراً عاماً أو خاصاً، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره، وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشرين لدفع أعظمها؛ لأن في ذلك تخفيفاً للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتا»[4].

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينها وبين دولة أخرى إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أي ضرر على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدولة الإسلامية، في هذه الحال نصرة الدولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح، والرجال، ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية ضد الأعداء من الكفار[5].

وقد شرط النبي ﷺ على بني ضَمرة ألا يحاربوا في دين الله، حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم أو حاول الاعتداء، وفي هذا إبعاد للعقبات التي يمكن أن تقف في

---

(١) انظر: الفقه السياسي، خالد سليمان الفهداوي، ص١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

(٣) هذه القاعدة أصلها حديث نبوي رواه ابن ماجة (٢/ ٣٩) رقم ١٨٩٦، وهو صحيح.

(٤) انظر: المدخل الفقهي، الشيخ الزرقا، ص٩٧٢.

(٥) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩).

طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا في طريقه[1].

وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسياً وعسكرياً للمسلمين لا يستهان به[2].

٦- (وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله)[3]:

كانت سرية عبيدة بن الحارث ﷺ أول سرية في تاريخ السرايا يلتقي فيه المسلمون مع المشركين في مواجهة عسكرية، وقد اتخذ القتال بين الطرفين طابع المناوشة بالسهام وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ (أول العرب رمى بسهم في سبيل الله)[4] في تلك المعركة التي لم تستمر طويلاً، إذ قرر الفريقان الانسحاب من أرضها، وقد كان انسحاب المسلمين قوياً ومنظماً، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقاص ﷺ فقد كان له الدور الأكبر في تثبيت وإحباط استعدادات العدو لشن أي هجوم مضاد؛ وذلك بوابل من السهام المزعجة التي قذفها نحوه، والتي كونت ساتراً دفاعياً مهد لانسحاب سليم منظم بالنسبة للمسلمين، وقد فر عتبة بن غزوان والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذ إلى المسلمين، وكانا قد أسلما قبل ذلك، وفي هذه السرية حقق سعد بن أبي وقاص ﷺ سبقاً عسكرياً إسلامياً، يسجل في سجله الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى، كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله ﷺ التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذاً لاتفاقية العقبة الثانية[5].

٧- نص وثيقة الموادعة مع جهينة والتعليق عليها:

«إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل، ولأهل باديتهم من بر منهم واتقى ما لحاضرتهم»[6].

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخل مجدي بن عمرو الجهني في التوسط بين سرية حمزة بن عبد المطلب والقافلة القرشية التي كان يقودها أبو جهل بن هشام ويحرسها ثلاثمائة راكب من فرسان قريش[7] فقد التقوا ناحية العيص في منطقة نفوذ جهينة واصطفوا

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٣٠.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، ص٢٩٦، د. عبد الغفار عزيز.

(٣) انظر: صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٧٧).

(٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية، د. بريكك العمري، ص٩١.

(٥) المصدر السابق، ص٩٢.

(٦) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص٦٢.

(٧) انظر: المواهب اللدنية (١/ ٧٥).

للقتال[1] وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين تدخل مجدي بن عمرو زعيم من زعماء جهينة، في وساطة سلام بينهم، واستطاع أن ينجح في مساعيه السلمية بين الطرفين، فقد كان مجدي وقومه حلفاء للفريقين جميعاً فلم يعصوه فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما فلم يكن بينهم قتال[2].

ويظهر من هذه المعاهدة أن عقد المعاهدات بين الدول الإسلامية والقبائل المجاورة كان سابقاً على الأعمال العسكرية التي قامت بها، بدليل أن حركة السرايا الأولى الموجهة ضد قريش كان قد سبقها معاهدة سلام بين دولة الإسلام وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر، وقد توسطت لمنع القتال بين المسلمين وكفار مكة.

ومن فقه هذه المعاهدة، جواز عقد معاهدة سلام بين دولة الإسلام ودولة أخرى هي بدورها مرتبطة بمعاهدة سلام مع أعداء الدولة الإسلامية بشرط أن لا تجاوز تلك المعاهدة إلى الاتفاق على أن تنصر الدولة المعاهدة للمسلمين تلك الدولة العدو إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتال، ويجوز للدولة الإسلامية أن تترك قتال أعداءها بعد أن تستعد لذلك استجابة لوساطة دولة أخرى، إذا لم يترتب على ذلك ضرر للمسلمين[3].

كانت نتائج سرية حمزة ﷺ على المعسكر الوثني سيئة للغاية، حيث هزت كيان قريش وبث الرعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم والذي أصبح يهدد طريق تجارتهم وقوتهم الاقتصادية[4]، فقد قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة: يا معشر قريش إن محمدا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمروا طريقه، وأن تقاربوه فإنه كالأسد الضاري، إنه حنق[5] عليكم نفيتموه نفي القردان[6] على المناسم[7]، والله إنه له لسحرة، ما رأيته قط ولا أحدا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم عرفتم عداوة ابني قيلة[8] فهو عدو استعان بعدو[9].

٨- سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس وعبر:

إن سرية عبد الله بن جحش حققت نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/٦)، السرايا والبعوث، ص٨٥.

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٨٦.

(٣) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٨٦.

(٥) الحنق: محركة: الغيظ أو شدته.

(٦) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الأبل.

(٧) المناسم: بكسر السين: طرف خف البعير والنعامة، والفيل والحافر، وقيل: هي للناقة كالظفر للإنسان.

(٨) كناية عن الأوس والخزرج، فقيلة أمهم وكانوا ينسبون إليها.

(٩) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨، ٢١٩).

أ- جاء في خبر هذه السرية أن النبي ﷺ كتب لأمير السرية كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وهذا مثل لتطبيق مبدأ مهم من مبادئ الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربية، ومنها خط السير، حتى يكون الجيش في أمان من كيد الأعداء، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنين ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلما سار أفراد السرية وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم أصبح النبي ﷺ آمنا من انكشاف الهدف المقصود[1].

وإن الباحث ليرى أثر التربية النبوية في هذه السرية المباركة حيث سمعوا وأطاعوا جميعا وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتى أصبحوا من ورائهم، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[2].

ب- حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتل في الشهر الحرام من قبل أفراد السرية:

فشنوا حرباً إعلامية وهجومية مركزة تتخللها دعايات مغرضة ضد المسلمين، استغلت فيها التعاليم الإبراهيمية التي ما زالت بعض آثارها باقية في المجتمع الجاهلي حتى ذلك الوقت من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك، فقد انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد ﷺ وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات[3]، قالت قريش: «قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال»[4].

ونجحت قريش في خطتها تلك بادئ الأمر حيث (كان لدعايتها صدى كبير، وأثر ملموس حتى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية محاربتهم في الشهر الحرام واشتد الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة)[5]، وقالوا إن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش، بل بينهم وبين العرب جميعاً جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر الحرام، وأخذوا يرددون: «عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب»[6] وهذا الكلام من اليهود يعبر عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[7].

(١، ٢) انظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٤/ ٧١).

(٣) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، الشريف أحمد، ص٤٤٥.

(٤) انظر: سنن البيهقي (٩/ ٥٩) نقلا عن السرايا والبعوث النبوية، ص١٠٠.

(٥) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٤٤٥.

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٣، ٦٠٤).

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي، (٤/ ٧٢).

وعندما ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسُقط في أيديهم جاء الرد الرباني المفحم قطعاً لألسنة المشركين الذين يتترسون بالحرمات، ويتخذونها ستاراً لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم وأجاب على استنكارهم القتال في الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الرجل في دينه أكبر من القتل في الشهر الحرام، لقد فعلت قريش كل هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر، ولكنها تناستها أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حرمة الشهر، واتخذها وسيلة لإثارة حرب شعواء على الإسلام ودولته، لتأليب القبائل الوثنية عليها، وتنفير الناس من الدخول في هذا الدين الذي يستحل الحرمات، ويستبيح المقدسات حتى إن رسول الله ﷺ قد لحقه الغم، ولام قائد السرية وأصحابه على ما فعلوا[1]، فنزلت الآيات البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة، موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات وصد عن سبيله[2].

جـ- حرص القائد على سلامة الجنود:

عندما تخلف سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بسبب بحثهما عن بعير لهما قد أضلاه، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك وعتبة بن غزوان» فلم يفدهما حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان[3] وأقام عند رسول الله ﷺ ورجع عثمان بن عبد الله ابن المغيرة كافراً[4].

ونفهم من المنهاج النبوي ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده؛ لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله وإقامة دولة الإسلام.

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندي حين يحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد في أن يبذل غاية البذل ويعطي أقصى العطاء[5].

د- ظهور التربية الأمنية في الميدان:

كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش مما أذهلها، وزاد دهشتها وذهولها، تلك السرية التامة، والدقة المتناهية التي تمت بها العملية، حتى إن جواسيس قريش لم تستطع رصدها ولا معرفة الوجهة

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٣٣.

(٢، ٣، ٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص١٠٠.

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى، محمد أبو فارس، ص٢٣.

التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين «والكتمان أهم عامل من عوامل مبدأ (المباغتة) وهي أهم مبدأ من مبادئ الحرب»(١).

وقد أثبتت هذه السرية بما لا يدع مجالاً للشك بأن سرايا النبي ﷺ قوية تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات وتتحلى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار؛ مما يدل على روحها المعنوية العالية.

وتظهر آثار التربية النبوية في الضبط العسكري الرفيع الذي تميز به قائد السرية وطاعته للأوامر النبوية العليا دون تردد أو تخاذل، فما إن قرأ الكتاب حتى امتثل فورا للأمر بحذافيره معطياً من نفسه القدوة الحسنة، وباثاً في نفوس جنوده الحماس وهو يقول لهم: «فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ»(٢).

٩- من أهداف السرايا:

عندما ندرس حركة السرايا والغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بدقة وعمق وتحليل، نستطيع أن نتلمس كثيراً من الأهداف وندرك بعض ما توحي به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا في حركة السرايا التي سُيرت قبل بدر نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار يقول ابن سعد رحمه الله: «والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعا من المهاجرين» ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدا من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً(٣) وقد كان هذا أمراً مدروسًا له أهدافه ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً، وإحياؤها على المستوى الخارجي، وإنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكرياً، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، رصد تحركات قريش، وإرهاب العدو الداخلي في المدينة وما حولها واختبار قوة العدو(٤) وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتي من أهمها:

أ- بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج:

فقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية

---

(١) انظر: الرسول القائد، خطاب، ص٩٤.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، (١/٦٠٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٦).

(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص١٤: ٢٤.

إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة مناوئة، سواء في الداخل أو الخارج، حتى لا يحدث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية، التي لا يتوقف جيشها ليل نهار؛ مما أرهب الأفاعي اليهودية، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها والذي نلاحظه في حركة السرايا الزيادة المستمرة في أعداد قوة تلك الغزوات والسرايا، ومجيئها متتابعة ليس بينها فاصل زمني على الإطلاق، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود حتى تكون التي بعدها قد خرجت لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية، وقطع طرق تجارتها، وخصوصاً إلى بلاد الشام؛ مما كلفها زيادة عدد حراس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، عدا عن الرعب والخوف الذي يشعر به رجال القوافل القرشية وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء[1].

ب- كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب:

فقد وادع رسول الله ﷺ قبيلة جهينة وحالفها، وكذلك بعض القبائل الضاربة في تلك المنطقة، من أجل تحييدها في الصراع الدائر بين مكة والمدينة، والعمل على كسبها في هذا الصراع وذلك: (لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش، وتتعاون معها، إذ بينهما محالفات تاريخية سماها القرآن الكريم بالإيلاف[2] سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن)[3].

وبعد أن اتفقت بعض القبائل مع رسول الله ﷺ وعقدت معه معاهدات، أصبحت تشكل خطراً على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة في المنطقة[4].

وقام النبي ﷺ بتحجيم دور الأعراب كي لا يكون لهم وجود في طرق التجارة، فقد كان الأعراب يشكلون قوة تهديد للقوافل التجارية، وكان المار في مناطق نفوذهم لا يمر إلا بإتاوة تُدفع إليهم، وحينما قامت الدولة الإسلامية لم يجدوا شيئاً منها فجربوا مهاجمتها وتولى هذا كرز الفهري، ولكنه وجد رسول الله ﷺ يطارده إلى سفوان (بالقرب من بدر، وهي مسافة تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلومتراً) وقد سمى أهل السير هذه المطاردة غزوة بدر الصغرى، وتعد هذه الغزوة درساً لكل الأعراب فلم يحصل أن أعرابياً سولت له نفسه مهاجمة المدينة بعد هذه المطاردة، ومن ثم لم تدفع الأمة الإسلامية إتاوات لقطاع الطرق بل أجبرتهم على الانسحاب والدخول في اتفاقات مع المسلمين فأمنوا شرهم[5].

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٣٢.

(٢) سورة قريش الآيات من (١- ٤).

(٣) انظر: المجتمع المدني، د. أكرم ضياء العمري، ص٢٧.

(٤) انظر: دراسات في السيرة، مؤنس، ص١٩.

(٥) انظر: دراسات في عهد النبوة، د. عبد الرحمن الشجاع، ص١٣١.

ج- علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح الإسلامية:

استمرت حركة السرايا والبعوث، وكانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكان هذا النشاط المتدفق على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة وبقيادة النبي القائد ﷺ كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل، وإن الباحث ليلحظ في حركة السرايا والبعوث والغزوات الكبرى في زمن النبي ﷺ حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان ﷺ يعدهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتئ عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

إنه بنظرة فاحصة في قواده وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيراً في تاريخ الفتح الإسلامي فيما بعد، مثل قائد فتوحات الشام، أمين الأمة، أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسية، وفاتح المدائن وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الروم في اليرموك، وعمرو بن العاص فاتح مصر وليبيا وغيرهم -رضي الله عنهم- لقد التحق خالد وعمرو فيما بعد بحركة السرايا وقادوا بعضهما بعد إسلامهم، لقد كانت السرايا والغزوات التي أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ في حياته تدريباً حياً نابضاً، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد.



الفصل الأول

غزوة بـــدر الكبرى

المبحث الأول

مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحركُ قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة[١] لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا[٢]، فأرسل الرسول ﷺ بَسْبَس بن عمرو[٣] لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»[٤]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا[٥].

كلف رسول الله ﷺ عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعينه أميرًا عليها[٦].

أرسل النبي ﷺ اثنين من أصحابه[٧] إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها[٨]، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة»[٩].

---

(١) قدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٨٦).

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص(١٠٧).

(٣) ورد الاسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحفًا إلى بسيسة وصححه ابن حجر.

(٤) ابن هشام السيرة (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد آل عابد (١/ ٤٣).

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢).

(٧) هما عدي بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٤).

(٨) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح.

(٩) فتح الباري (٧/ ٢٩٠-٢٩٢).

يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشرة رجلا[1]، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين،[2] وكانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب، والتي بلغ تعدادها ألفًا[3] معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربون بالدفوف، ويغنين بهجاء النبي ﷺ وأصحابه[4]، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركوبها[5].

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدر:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النبي ﷺ وأصحابه، فيها من العبر والمواعظ الشيء الكثير:

١- إرجاع البراء بن عازب وابن عمر لصغرهما: وبعد خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى (بيوت السقيا) خارج المدينة، فعسكر فيها النبي ﷺ، واستعرض ﷺ من خرج معه فرد من ليس له قدرة على المضي من جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فرد على هذا الأساس البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد[6].

٢- ارجع فلن أستعين بمشرك: وفي أثناء سير النبي ﷺ وصحبه، التحق أحد المشركين راغبًا بالقتال مع قومه، فرده الرسول ﷺ وقال: «ارجع فلن أستعين بمشرك» وكرر الرجل المحاولة فرفض الرسول حتى أسلم الرجل والتحق بالمسلمين [7].

٣- مشاركة النبي ﷺ أصحابه في الصعاب: فعن ابن مسعود ﷺ قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله، قال: فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[8].

---

(١) مسلم، شرح النووي (١٢/ ٨٤).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط.

(٣) مسلم، بشرح النووي (١٢/ ٨٤). (٤) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠).

(٥) المسند (١/ ٤١١)، مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)، جوامع السير، ص١٠٨.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٢٤).

(٧، ٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).

ثانيًا: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر:

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي ﷺ بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحول مسارها إلى طريق الساحل، في نفس الوقت أرسل عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها[1]، فقد كان أبو سفيان يقظًا حذرًا، يتلقط أخبار المسلمين ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه، وسأل من كان هناك: (هل رأيتم من أحد؟) قالوا: لا. إلا رجلين قال: (أروني مناخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته فإذا هو فيه النوى، فقال: هذا والله علائف يثرب)[2]. فقد استطاع أن يعرف تحركات عدوه، حتى خبر السرية الاستطلاعية عن طريق غذاء دوابها، بفحصه البعر الذي خلفته الإبل، إذ عرف أن الرجلين من المدينة أي من المسلمين، وبالتالي فقافلته في خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش وغيَّر طريق القافلة، واتجه نحو ساحل البحر[3].

كان وقع خبر القافلة شديدًا على قريش، التي اشتاط زعماؤها غضبًا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية[4].

لقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفاري بصورة مثيرة جدًا يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حول رحله وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر، ودخل مكة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش: اللطيمة، اللطيمة،[5] أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث[6].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زهرة[7]، وتخلف في الأصل بنو عدي. فعاد بنو زهرة إلى مكة، أما

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧)
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).
(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص٣٣، ٣٤.
(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٥) اللطيمة: القافلة المحملة بشتى أنواع البضاعة غير الطعام.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢١)
(٧) نصحهم الأخنس بن شريق بذلك، انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١)

غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت بدرًا[1].

ثالثًا: مشاورة النبي ﷺ لأصحابه:

لما بلغ النبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي ﷺ استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر،[2] وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم، موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عمومًا في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۞ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥- ٨]. وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو،[3] وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُدلَ به[4]: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت الرسول ﷺ أشرق وجهه وسرَّه[5]، وفي رواية:[6] قال المقداد: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن امضِ ونحن معك، فكأنه سرًّى عن رسول الله ﷺ.

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وكان إنما يقصد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي ﷺ من ذلك فنهض قائلاً: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل». قال: (لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٩٥٢).

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٨).

(٤) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خُير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك لكان حصوله أحب إليه.

(٥) البخاري، كتاب المغازي (٧/ ٢٨٧).

(٦) البخاري، كتاب التفسير (٨/ ٢٧٣).

استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله»[1]. سُرَّ النبي ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك فقال ﷺ: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» [2].

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله ﷺ وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء[3].

رابعًا: المسير إلى لقاء العدو وجمع المعلومات عنه:

نظم النبي ﷺ جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة[4]. وقام ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخا من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه ﷺ من أخبارهم: قال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله ﷺ «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جيش المسلمين، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»، ثم انصرف النبي ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟[5].

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه

---

(١) مسلم (٣/ ١٤٠٤) رقم (١٧٧٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٢) بإسناد صحيح، المسند (٥/ ٢٥٩) رقم (٣٦٩٨).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص٣٧.

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢)

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريش» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير، قال: «ما عدتهم؟» قالا: لا ندري، قال الرسول ﷺ: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف»، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكرا عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا جهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلا: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[1].

كان من هدي النبي ﷺ حرصه على معرفة جيش العدو والوقوف على أهدافه ومقاصده؛ ولأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمجابهته وصد عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدر في جمع المعلومات تارة بنفسه وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

وقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك ﷺ قال: (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها...).[2] وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

١- سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها.

٢- تورية الرسول ﷺ في إجابته عن سؤال الشيخ ممن أنتما؟ بقوله ﷺ: «نحن من ماء» وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

٣- وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ أيضًا، وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سببًا في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: «من ماء»[3].

٤- أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر[4].

---

(١) ابن هشام (٢/ ٢٢٩).

(٢) البخاري (٢/ ٢٩٤٧)

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

(٤) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد محمد باوزير، ص١٠٠.

٥- كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: (... إن لنا طلبةً فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا...)[1].

وقد استدل الإمام النووي بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو[2].

ونلحظ أن التربية الأمنية في المنهاج النبوي مستمرة منذ الفترة السرية، والجهرية بمكة، ولم تنقطع مع بناء الدولة، وأصبحت تنمو مع تطورها، وخصوصًا في غزوات الرسول ﷺ.

خامسًا: مشورة الحباب بن المنذر في بدر:

بعد أن جمع ﷺ معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعًا ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، وليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر، وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم -أي جيش المشركين- فننزله ونغور -نخرب- ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار[3]، وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

إن هذه الحرية التي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحًا باهرًا، وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه[4].

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة (٣/ ١٥١٠) رقم (١٩٠١).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥).

(٣) انظر: مرويات غزوة بدر، ص١٦٥، قصة الحباب تقوى وترتفع إلى درجة الحسن.

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١١٠).

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول ﷺ. يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم، عليه الصلاة والسلام.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها أو قائد من قوادها(١).

سادسًا: الوصف القرآني لخروج المشركين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

ينهى المولى عز وجل المؤمنين عن التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس. فقد وصف سبحانه الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء: الأول:البطر، والثاني: الرياء والثالث:الصد عن سبيل الله .

ونلحظ أن الله تعالى عبر عن بطرهم بصيغة الاسم الدال على التمكين والثبوت، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث(٢).

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبي أن المقصود بالآية: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خُفاف الكناني، وكان صديقا لأبي جهل، بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع ما خف من قومي، فقال أبو جهل: إنا كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٢١).

(٢) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٦٥، ٦٦).

القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا؛ فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[1].

سابعًا: موقف المشركين لما قدموا إلى بدر:

بين سبحانه وتعالى موقف المشركين لما قدموا إلى بدر، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم -في بدر-: اللهم أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه – أي أهلكه: الغداة. فكان المستفتح[2].

ولما وصل جيش مكة إلى بدر دب فيهم الخلاف وتزعزعت صفوفهم الداخلية، فعن ابن عباس ﷺ قال: «لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر، فقال: «إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا» وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسي وارجعوا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره،[3] حين رأى محمدًا وأصحابه، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور لو قد التقينا. فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قومًا يضربونكم ضربًا، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي وكأن وجههم السيوف..)[4].

وهذا حكيم بن حزام يحدثنا عن يوم بدر، وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه، قال: خرجنا حتى نزلنا العدوة التي ذكرها الله عز وجل، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت: يا أبا الوليد هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟

قال: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي[5]، وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس، فقال أنت وذاك وأنا أتحمل ديته، واذهب إلى ابن الحنظلية[6] يعني -أبا جهل- فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي[7] واقف على رأسه وهو يقول: قد

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥). (٢) المسند (٥/ ٤٣١).

(٣) سحرك: رئتك، يقال ذلك للجبان.

(٤) مجمع الزوائد (٦/ ٧٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٥) تقدم ذكره في سرية عبد الله بن جحش.

(٦) ابن الحنظلية هو أبو جهل، وهي أسماء بنت مخربة من بني تميم.

(٧) المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدم

فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولا غيرك؟ قلت: لا ولم أكن لأكون رسولاً لغيره.

قال حكيم: فخرجت مبادرًا إلى عتبة، لئلا يفوتني من الخبر شيء[1]. فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريش لا يرى داعيًا لقتال محمد، وقد دعا قريش بترك محمد فإن كان صادقًا فيما يدعو إليه فعزه عز قريش وملكه ملكها، وستكون أسعد الناس به، وإن كان كاذبًا فسيذوب في العرب وتنهيه.

ولكن كبرياء الجاهلية دائمًا في كل زمان ومكان لا يمكن أن تترك الحق يتحرك؛ لأنها تعلم أن انتصاره معناه زوالها من الوجود وبقاؤه مكانها[2].

وهذا عمير بن وهب الجمحي ترسله قريش ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلوني أنظر أللقوم كمين أو مدد، قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فُروا رأيكم[3].

وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداء خوفًا من الموت، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله يقول: إنهم لقاتلوك[4]. قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر[5].

ومن دهاء أبي جهل -لعنه الله- أن سلط عقبة بن معيط على أمية بن خلف فأتاه عقبة بمجمرة حتى وضعها بين يديه فقال: إنما أنت من النساء. فقال: قبحك الله[6].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) انظر: مرويات غزوة بدر، ص١٥٥.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٩).

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٨) الطبعة السلفية، مصر.

(٥) انظر: مرويات غزوة بدر، ص١٣٦.

(٦) المصدر نفسه، ص١٣٧.

لقد كانت القوة المعنوية لجيش مكة متزعزعة في النفوس، وإن كان مظهره القوة والعزم والثبات إلا أن في مخبره الخوف والجبن والتردد[1].

وكانت لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثر على معنويات أهل مكة، فقد رأت في المنام أن رجلاً استنفر قريشًا وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة فتفتت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة فسكنت مكة وتأولت الرؤيا[2]. كما أن جهيم بن الصلت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجحفة، فقد رأى رجلاً أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالاً من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح[3] من دمه، فلما بلغت أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضا نبي من بني المطلب، سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا[4]. كانت تلك الرؤى قد ساهمت بتوفيق الله في إضعاف النفسية القرشية المشركة.

* * *

(١) المصدر السابق، ص١٣٨.
(٢) انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة للعمري، ص٤١.
(٣) نضح: لطخ.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).

المبحث الثاني

النبي ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النبي ﷺ والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقرًا لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك) فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تل مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر ﷺ، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ[1].

ويستفاد من بناء العريش أمور، منها:

١- لا بد أن يكون مكان القيادة مشرفًا على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.

٢- ينبغي أن يكون مقر القيادة آمنًا بتوافر الحراسة الكافية له.

٣- ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأي خطر.

٤- ينبغي أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التي قد تحدث في المعركة[2].

ثانيًا: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المنن التي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ قال القرطبي: (وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم).

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص٦٦.

وعن علي ﷺ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.

وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أولهما: أن قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: «الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر»[1].

وبين سبحانه وتعالى أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه وكرمًا، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: (وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه، إذ كان جنبًا، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جَرَمَ عدَّ الله تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه...)[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ -يعني حين سار إلى بدر- والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة- أي كثير مجتمعة- فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليكم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشي الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم[3]. فقد بين سبحانه أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة فتطهروا به حسيًا ومعنويًا إذ ربط الله به على قلوبهم وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالا متحركة لا زالت حتى اليوم ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال وسهل السير عليها، وانطفأ غبارها، وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده[4].

ثالثًا: خطة الرسول ﷺ في المعركة:

ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوبًا جديدًا في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفًا من قبل حتى قاتل ﷺ بنظام الصفوف[5]، وهذا الأسلوب أشار إليه

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٧).
(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي (١٥/ ١٣٣).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٩٥).
(٤) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٩١).
(٥) انظر: القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد ص٤٠١.

القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤].

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعًا لقلة المقاتلين أو كثرتهم. وتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدر:

١-إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.

٢-جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوة احتياطية عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس، أو ضرب كمين غير متوقع، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبقًا عسكريًا تميزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان[١].

ويظهر للباحث في السيرة النبوية أن النبي ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التي لم يعهدها العرب من قبل، على نحو ما قام به النبي ﷺ في يوم بَدْرٍ، وأُحُدٍ وغيرهما.

ومن جهة النظرة العسكرية، فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصية النبي ﷺ وبراعته العسكرية؛ لأن التعليمات العسكرية التي كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تمامًا الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[٢].

وتفصيل ذلك فقد اتبع ﷺ أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته التكتيكية التي نفذها جنوده بكل دقة سببًا في زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته، وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه[٣]، بنسبة ٣ إلى ١، فقد كان ﷺ يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف، وقد طبق الرسول ﷺ في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح. أما أخذه بالأسلوب الإقناعي في غزوة بدر فقد تجلى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضع متعددة؛ لأنه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو ﷺ أيضا لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأي الذي يبدو صوابًا، ومارس ﷺ في غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية، فقد تجلى في أمور، منها:

---

(١) انظر: الرسول القائد، خطاب، ص١١١، ١١٦، ١١٧.

(٢) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد محفوظ، ص١٢١.

(٣) انظر: مقومات النصر، د. أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤)

١- الأمر الأول: أمره ﷺ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم؛ لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل»[١].

٢- الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتداخل الصفوف[٢] «ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»[٣].

٣- الأمر الثالث: أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي[٤] «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم»[٥].

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادئ الحديثة في الدفاع تجد أن رسول الله ﷺ كان سباقًا إليها من غير عكوف على الدرس ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي ﷺ يرمي من وراء تعليماته التي استعرضناها آنفا إلى تحقيق ما يعرف حديثًا بكبت النيران إلى اللحظة التي يصبح فيها العدو في المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده ﷺ في قوله: «واستبقوا نبلكم»[٦].

أ- فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهمل ﷺ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، فقد كان يستفيد من كل الظروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقريزي: وأصبح ﷺ ببدر قبل أن تنزل قريش، فطلعت الشمس وهو يصفهم فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس.[٧]

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره ﷺ؛ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبب له عَشا[٨] البصر فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه[٩]. وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى في المعارك، وهي من الأسباب التي طلب الله منا الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي[١٠].

---

(١) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى، ص٢٣٩.

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص٦٣، ٦٤، لأبي فارس.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٣٩.

(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص٦٣، ٦٤.

(٥،٦) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدرا، رقم ٣٩٨٤، ٣٩٨٥.

(٧) انظر: القيادة العسكرية، ص٤٥٣.

(٨) سوء البصر بالليل والنهار يكون في النار والدواب والإبل والطير.

(٩) انظر: تحفة الأحوذي بشرح مجامع الترمذي (٧/ ١٧٥)

(١٠) انظر: القيادة العسكرية، ص٤٥٤.

ب- سواد بن غَزِيّة في الصفوف:

كان ﷺ في بدر يعدل الصفوف ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية، وقد خرج من الصف فطعنه ﷺ في بطنه، وقال له: «استوِ يا سواد» فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد» فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بخير[1].

ويستفاد من قصة سواد ﷺ أمور، منها:

١- حرص الإسلام على النظام.

٢- العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القود من نفسه.

٣- حب الجندي لقائده.

٤- تذكر الموت والشهادة.

٥- جسد رسول الله ﷺ مبارك، ومسه فيه بركة، ولهذا حرص عليها سواد.

٦- بطن الرجل ليس بعورة بدليل أن النبي ﷺ كشف عنه ولو كان عورة لما كشف عنه[2].

ج- تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال:

كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية راسخة ثابتة ثبات الشُمِّ الرواسي، فيملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب في أجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولي يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يحدثهم عن عوامل النصر وأسبابه ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[3].

وكان ﷺ يحث أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٣٦.

(٢) انظر: غزوة بدر، لأبي فارس، ص٥٢.

(٣) انظر: المدرسة النبوية لأبي فارس، ص١٤٠.

وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقال عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخٍ بخٍ (كلمة تعجب). فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ؟». قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها».

فأخرج تمرات من قرنه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منه، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل[1].

وفي رواية قال: قال أنس: فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة للنفاد

غير التقى والبر والرشاد

فقاتل رحمه الله حتى استشهد[2]. ومن صور التعبئة المعنوية أنه ﷺ كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمين كان يحدد مكان قتلى كل واحد منهم،[3] كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال فيقول: «أبشر أبا بكر». ووقف رسول الله ﷺ يقول للصحابة رضوان الله عليهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»[4].

وقد أثرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم والذين جاءوا من بعدهم بإحسان[5].

وكان ﷺ يطلب من المسلمين أن لا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس ﷺ قال: (... فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون دونه»[6] فدنا

---

(١) انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري (٢/ ٧٠) رقم (١١٥٧).
(٢) انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٨٨)، زاد المعاد (٣/ ١٨٢).
(٣) انظر: جامع الأصول (٨/ ٢٠٢)
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٩).
(٥) المدرسة العسكرية لأبي فارس، ص١٤٣.
(٦) انظر: مسلم (٣/ ١٥١٠) رقم (١٩٠١).

المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»[1].

د- دعاؤه ﷺ واستغاثته:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

لما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر ﷺ، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه، واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا**»، وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك[2]، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي رواية ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «**اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد**» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[3].

وروى ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**»[4]. وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره. ويبقى مشهد نبيه، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسئولية وتلقى عليه أعباء القيادة[5].

هـ- وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى:

بعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش فأخذ قبضة من التراب، وحصَبَ بها وجوه المشركين وقال: «**شاهت الوجوه**» ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبقَ أحد

---

(١) انظر: المنذري، مختصر صحيح مسلم، (٢/ ٧٠) رقم (١١٥٧).
(٢) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر (٣/ ٣٨٤).
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب قصة بدر (٥/ ٦) رقم (٣٩٥٣).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٧).
(٥) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٦).

منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله[1]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد به الحذف والإيصال فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال[2]. ونلحظ أن الرسول ﷺ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله، فكان النصر والتأييد من الله تعالى، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبنات أساسية في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين، وكان الطقس مناسبًا للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه، وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذًا بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة، ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب[3].

* * *

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٣).

(٣) انظر: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٤٧٤).

المبحث الثالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، ولكن الرسول ﷺ أرجعهم؛ لأنه أحب أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك قال ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي» وبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكر حمزة وعليٌّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله ﷺ، ولكن ما لبث أن استُشهد متأثرا من جراحته وقد قال عنه ﷺ: «أشهد أنك شهيد»[1] وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۞ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۞ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ١٩-٢٤].

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة استشاطوا غضبًا وهجموا على المسلمين هجومًا عامًا، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي ﷺ، وكان شعار المسلمين: أَحَد أَحَد، ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد محرضًا لهم على القتال وقائلا لهم: «شدوا» وواعدًا من يقتل صابرًا محتسبًا بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي ﷺ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين[2]. فقد كان ﷺ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان، رأى المشركين عددهم قليل، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيرًا قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

المعنى أن النبي ﷺ رآهم -أي رأى المشركين- في منامه قليلا، فقص ذلك على أصحابه فكان ذلك سببًا لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيرًا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم،

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٦).

(٢) انظر: الرحيق المختوم، ص١١٦: ١١٨.

ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي؛ لأن نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ[1]، فقص رؤياه على أصحابه فكان في ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم. وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين تصديقًا لرؤيا النبي ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقينا ويجدُّوا في قتالهم ويثبتوا، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفًا. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أكلة جزور.. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلا ثبتهم ونشطهم وجرَّأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلا تفجؤهم الكثرة فيبهتون ويهابون، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم[2].

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين؛ أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عددًا من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم[3].

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩١).

فعن ابن عباس ﷺ قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم.[1] فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا فنظر إليه فإذا هو خُطِم أنفه[2]، وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة»[3]. ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال: إن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»[4]. ومن حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: (فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح[5] من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق[6] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال «اسكت فقد أيدك الله بملك كريم»[7]. ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري)[8].

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وأن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سببًا لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سببا لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معانون من الله تعالى، وأيضا بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآيات وصرحت به الأحاديث النبوية[9].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحدًا من الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك فقال: لقد مضت سنة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وفقا لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل، ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد

(١) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك. (٢) خطم: الخطم: الأثر على الأنف

(٣) مسلم -الجهاد، باب الإمداد بالملائكة رقم (١٧٦٣).

(٤) البخاري -المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، رقم (٣٩٩٥).

(٥) الأجلح: الذي انحسر شعره على جانبي رأسه. (٦) الأبلق: ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٧. (٨) نفس المصدر، ص٢٤٧.

(٩) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).

والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع يجريان وفقًا لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع فالجهة الأقوى بكل معاني القول اللازمة للغلبة هي التي تغلب، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفة على ما قدمه أولئك المؤمنون في قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل، وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسبابًا للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه... إلخ. ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب[1]، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه، فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة، لبعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عددًا القوي إعدادًا وجيش المؤمنين القليل عددًا الضعيف إعدادًا.

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضهم عيانًا، إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة لا يعلمون عددها ولا يقدرون مدى قوتها، وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك فكان عاملاً قويًا في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم[2].

ثانيًا: انتصار المسلمين على المشركين وحديث رسول الله ﷺ لأهل القليب:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلا، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢)

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٤٥).

عشر رجلا، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين[1]. ومكث ﷺ في بدر ثلاثة أيام، فعن أنس ﷺ قال: (إنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال...)[2] ولعل الحكمة في ذلك:

١- تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هربًا إلى الجبال.

٢- دفن من استُشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر[3].

٣- جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري، أحد بني مازن[4].

٤- إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة، مما كان له أثر فعال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر، والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

٥- مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعًا بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه اتقاء شره في المستقبل، كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ[5] من قُلُب[6] بدر

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣)

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٠.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩١)

(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٤٥٣)

(٥) ركي: حافة البئر.

(٦) قلب: أبيار ومفرده بئر.

خبيث مُخْبث، ثم وقف على شفة الركي[1]، وقد ورد أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس»[2].

ثم أمر بهم، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب»[3]. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا، وتصغيرًا، ونقمة، وحسرة، وندمًا[4].

إن مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بينت أمرًا عظيمًا، وهو أنهم بدأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحيح الأحاديث، حتى إنه ﷺ مر بقبرين وقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير»[5]، وذكر أن سبب تعذيبهما النم بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول[6]. ولا بد من التسليم بهذه الحقائق الغيبية، بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

* * *

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٤٥٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٢٣٤) في المغازي، باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش.

(٤) الأساس في السنة - السيرة النبوية (١/ ٤٧٩).

(٥) رواه البخاري رقم ٢١٨.

(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فضل الله، ص٦٤.

المبحث الرابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطغاة:

أ- مصرع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما[1]، فغمزني[2] أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها.

قال: فلم أنشب[3] أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: **«أيكما قتله؟»** فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: **«هل مسحتما سيفيكما؟»** قالا: لا. فنظر في السيفين فقال: **«كلاكما قتله»**، وقضى بسَلَبِه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح[4] .وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ يوم بدر: **«من ينظر ما صنع أبو جهل؟»** فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (ابنا عفراء حتى برد[5] فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه[6]، وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعا، فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله؟ قال: وبما أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: **«آلله الذي لا إله إلا هو؟»** قلت: الله الذي لا إله إلا هو. قال: فانطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أضلع: أقوى وأعظم وأشد. (٢) غمزني: قرصني.

(٣) أنشب: ألبث.

(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدرًا، رقم (٣٩٨٨).

(٥) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.

(٦) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٦٣).

«انطلق» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعون هذه الأمة»[1].

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ما سمعاه من أنه كان يسب رسول الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله ﷺ بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة قد وقع صريعًا بين أيدي من كان يؤذيهم. ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبرًا جبارًا حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته[2]. فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتز رأسه: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم[3].

فالله تعالى لم يعجّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعًا في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفت به على الهلاك الأبدي، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول -السابقين إلى مظلّة الإيمان وطهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه، التي أنزلها رحمة للعالمين- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيرًا له، ويقرّعه تقريعًا يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعانًا في البطش به فيقتله به، ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث...[4].

ب- مصرع أمية بن خلف:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي[5] بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو).

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٢.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥٨- ١٦٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٧).

(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٤٣١، ٤٣٢).

(٥) الصاغية: صاغية الرجل ما يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه[1] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجللوه[2] بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه[3].

وفي رواية أخرى لعبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: كان أمية بن خلف لي صديقًا بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول نعم. قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم. قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجبته فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم، ها الله؟ قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن[4].

ونلحظ من الروايات السابقة:

١- ما جرى من بلال ﷺ حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة، فلما رآه في يد عبد الرحمن بن عوف ﷺ أسيرًا صرخ بأعلى صوته: لا نجوت إن نجا.

إنه موقف من مواقف التشفي في أعداء الله، والتشفي من كبار الكفرة الفجار وفي الحياة الدنيا نعمة يفرج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

---

(١) أحرزه: أحميه. (٢) تجللوه: طعنوه وأصابوه.

(٣) البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل المسلم حربيًا رقم (٢٣٠١).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٤٣) سنده صحيح وقد صرح ابن إسحاق بالقولين.

٢- إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درسًا بليغًا للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، فمآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر[1]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٣- وفي قول عبد الرحمن بن عوف: «يرحم الله بلالا ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري»[2] مع ما جرى من بلال من معارضة وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوي بين الصحابة الكرام[3].

٤- موقف لأم صفوان بنت أمية: قيل لأم صفوان بنت أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر من قُتل على الشرك، قد أهان الله عليًا بضربه الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربه عليًا، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك[4]، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها[5].

وقولها على ابنها علي: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا فقتل على غير ذلك» تعني أنه كان ممن عرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين، فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم[6]، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

ج- مصرع عبيدة بن سعيد بن العاص على يد الزبير:

قال الزبير بن العوام ﷺ: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج[7] لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤)

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٣).

(٤، ٥) نفس المصدر (٤/ ١٥٤).

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١).

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٤).

بالعنزة فطعنته في عينه فمات، قال هشام، فأُخبرت أن الزبير قال: (لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها).

قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاها، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل[١].

(هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام ﷺ في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جدًا لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف)[٢].

د- مصرع الأسود المخزومي:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن[٣] قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب[٤] رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض[٥].

وقد سأل أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف عن الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[٦]: وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه ﷺ قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً وتشريدًا[٧].

وكان هذا أول من قتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه ولقن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درسًا في الصميم[٨].

ثانيًا: من مشاهد العظمة:

أ- استشهاد حارثة بن سراقة: عن أنس ﷺ قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام

---

(١) انظر: صحيح البخاري، المغازي رقم (٣٩٩٨).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٦٣).
(٣) أطن: أطار.
(٤) تشخب: تسيل بصوت.
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٧).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥١).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ١٥٢).
(٨) المصدر السابق (٤/ ١٢١).

فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك أَوَهَبِلْتِ أَوَجَنَّة واحدة هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنةِ الفردوسِ»[1] وفي رواية: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[2].

ب- استشهاد عوف بن الحارث: قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن مالك وهو ابن عفراء[3] قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «غمسة يده في العدو حاسرًا»[4] فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[5].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة، وحرصهم على رضوان الله تعالى؛ ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم[6].

ج- استشهاد سعد بن خيثمة ثم أبيه رضي الله عنهما: قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه: يا بني آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبت لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقُتِلَ بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد[7].

وهذا الخبر يعطي صورة مشرقة عن بيوتات الصحابة في تنافسهم وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معًا لاحتياج أسرتهما وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في نيل الشهادة حتى اضطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد -رضي الله عنهما-، وكان الابن في غاية الأدب مع والده، ولكنه كان مشتاقًا إلى الجنة فأجاب بهذا الجواب البليغ: (يا أبت لو كان غير الجنة فعلت)[8].

---

(١) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٨٢).
(٢) الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٤٧٥).
(٣) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.
(٤) حاسرًا: غير لابس الدرع.
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٥.
(٦) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١).
(٧) الإصابة (٢/ ٢٣، ٢٤) رقم (٣١١٨).
(٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٨٧).

د- دعاء النبي ﷺ لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة: عن عائشة رضي الله عنها -في حديثها عن طرح قتلى قريش في القليب بعد معركة بدر- قالت: (فلما أمر بهم فسحبوا عرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يسحب إلى القليب، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا حذيفة لكأنه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسوله، ولكن إن كان حليمًا سديدًا ذا رأي، فكنت أرجو أن لا يموت حتى يهديه الله عز وجل إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال: «فدعا له رسول الله بخير»[1].

هـ - عمير بن أبي وقاص: لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وعرض عليه جيش بدر رد عمير بن أبي وقاص فبكى عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني ويردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة[2]، وقد استُشهد بالفعل.

* * *

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٥١، ٢٥٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣١٧، نقلاً عن صفة الصفوة، (١/ ٢٩٤)، والمستدرك (٣/ ١٨٨) والإصابة (٣/ ٣٥).

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولا: الخلاف في الأنفال:

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهَزَم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، فأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. فقسمها رسول الله ﷺ على فواقَ بين المسلمين[١].

وفي رواية: قال عبادة بن الصامت عن الأنفال حين سُئل عن الأنفال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله فينا عن بَوَاء، يقول: على السواء[٢].

لقد خلد الله سبحانه وتعالى ذكرى غزوة بدر في سورة الأنفال، وجاءت مفصلة عن أحداثها وأسبابها ونتائجها، وتعرضت الآيات الكريمة لعلاج النفس البشرية وتربيتها على معاني الإيمان العميق والتكوين الدقيق، فبدأت السورة بتبيان حكم أثر من آثار القتال وهو الغنائم، فبينت أن هذه الغنائم لله وللرسول، فالله هو مالك كل شيء، ورسوله هو خليفته، ثم أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر: بالتقوى، وإصلاح ذات البين، والطاعة لله والرسول ﷺ، وهي أوامر مهمة جدًّا في موضوع الجهاد، فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهادًا، والجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثم فلا بد من إصلاح ذات البين، والانضباط هو الأساس في الجهاد، إذ لا جهاد بلا انضباط، ثم بين الله عز وجل أن الطاعة لله ولرسوله ﷺ علامة الإيمان.

ثم حدد الله عز وجل صفات المؤمنين الحقيقيين، وهذا الوصف والتحديد مهمان في

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٣).

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٢).

موضوع الجهاد الإسلامي؛ لأن الإيمان الحقيقي هو الذي يقوم به الجهاد الإسلامي، لقد حدد الله عز وجل صفات المؤمنين: بأنهم إذا ذكر الله فزعت قلوبهم وخافت وفرقت. وإذا قرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم ونما.

والصفة الثالثة: هي التوكل على الله، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الخلق وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

والصفة الرابعة: إقامة الصلاة والمحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، ومن ذلك إسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ.

والصفة الخامسة: الإنفاق مما رزقهم الله، وذلك يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحق، والخلق كلهم عباد الله، فأحبهم إليه أنفعهم لخلقه، ثم بين الله -عز وجل- أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، وأن لهم عند الله منازل ومقامات ودرجات في الجنات، وأن الله يغفر لهم السيئات، ويشكر الحسنات، وبهذا تنتهي مقدمة السورة بعد أن رفعت الهمم لكل لوازم الجهاد، ونفت كل عوامل الخذلان، من اختلاف على غنائم، أو خلاف بسبب شيء، داعية إلى الطاعة، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[1]، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١-٤].

يقول الأستاذ محمد الأمين المصري: لم تذكر الآيات شيئًا من أعمال المؤمنين في بدر، ولكن ذكرت عتابًا أليمًا موجعًا يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم، وهناك نقاط أرسلت الآيات النقاط عليها وبينت نواحي الضعف فيها بيانًا جليًا قويًا، بتصوير ما في النفوس وصفًا دقيقًا رائعًا تشاهد العين فيه الحركات والخلجات، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان التي يهفو قلبه للوصول إليها. ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم، ويشعر الذوق السليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب، ولكنه تصوير ما في النفوس تصويرًا يوقن معه

---

(١) انظر: الأساس في التفسير (٤/ ٢١١٣، ٢١١٤).

العادي من الناس، أنه ما كان لمؤمن صحيح الإيمان أن يتصف بها؛ ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أي إسفاف: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]. ما ذكرت الآيات عتابًا، ولكنها ذكرت واقعًا وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب.

لقد استجاب الصحابة الكرام لهذا التوجيه الرباني ونزلت الآيات تبين لرسول الله ﷺ كيف يتصرف في الأنفال.

بعد أن أصحبت الغنائم لله ورسوله بيَّن المولى عز وجل كيف توزع هذه الغنائم، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهذا بعد ما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثلت الآيات، فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله، وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخمس لله ورسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضا، وموزع على الجهات المذكورة كما ثبت بالسنة.

إن التوجيه التربوي، في إرجاء إنزال جواب السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجو النفسي الروحي المناسب، لتحتل مكانها اللائق في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتي أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول، وهكذا صرف المولى -جل شأنه- عبادة المسلمين عن التعلق بالغير، أولا، وبالغنائم ثانيا، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق وأخلصوا في الجهاد، أكرمهم بالنصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر مما كانوا يودون[(١)]، فعن عبد الله بن عمرو قال: (خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه فلما انتهى إليها قال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم» ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا)[(٢)].

ومن عدل النبي ﷺ في تقسيم الغنائم إعطاؤه من هذه الغنيمة من تخلف بأمر رسول الله

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٦١، ٦٢.

(٢) سنن أبي داود (٥/ ٥٢٥) حسنه الألباني، صحيح أبي داود (٢٧٤٧).

لمهام أوكلها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم فكانوا كمن حضرها[1]. فكان ﷺ يراعي ظروف الجنود التي تمنعهم من المشاركة في القتال، لأن الله تعالى لم يكلف عباده شيئًا فوق طاقتهم، قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلف المسلمين فوق طاقتهم سواء كان ذلك في السلم أو الحرب، وفي غزوة بدر أعفى النبي ﷺ بعض الصحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفان ﵁ من الخروج يوم بدر؛ لأن زوجته رقية كانت مريضة وبحاجة إلى من يرعى شؤونها، روى البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيب عثمان ﵁ في غزوة بدر فقال ﵁: (... وأما تغيبه عن بدر، فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه...»[2].

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمه حيث كانت مريضة وهي بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة ﵁ أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بردة بن نيار: أقم على أمك، يا ابن أختي. فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكرا ذلك للنبي ﷺ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه وخرج بأبي بردة، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت فصلى عليها[3]. إن هذه الأخلاق الرفيعة ومراعاة شعور الجنود وأحوالهم العائلية تولد قوة ترابط بين القيادة والجنود، وتدخل تحت مفهوم فقه التمكين، وقد مارسه الرسول ﷺ في أعلى صوره.

ومن الصحابة الذين كانت لهم مهمات خاصة أو أصيبوا أثناء الطريق فردهم الرسول ﷺ:

١- أبو لبابة: استخلفه على المدينة.

٢- عاصم بن عدي: أرسله ﷺ في مهمة لأهل العالية في المدينة.

٣- الحارث بن حاطب: أرسله ﷺ في مهمة إلى بني عمرو بن عوف.

٤- الحارث بن الصمة: وقع أثناء الطريق فكسر فرُد.

٥- خوَّات بن جبير: أصابه في الطريق حجر في ساقه فرده من الصفراء[4].

وكذلك أعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم؛ وبذلك كان للإسلام السبق

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٢١٤.

(٢) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٥) رقم (٣٦٩٩).

(٣) انظر: الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد (٣/ ٣١).

(٤) انظر: معين السيرة، ص٢١٥.

في تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرنًا[1].

ثانيًا: الأسرى:

قال ابن عباس ﷺ: (... فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة: أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدهم، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهْوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩] فأحل الله لهم الغنيمة[2]. وفي رواية: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستأنِ بهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك، قرِّبهم فاضربْ أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم اضرم عليهم نارًا، فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر، كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]،وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. ثم قال ﷺ: «أنتم عالة،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم (٣/ ١٧٦٣).

فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق».

قال عبد الله بن مسعود: فقلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام قال: فسكت، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم، حتى قال: إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية[1].

وهذه الآية تضع قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى تُرْهَب من قبل أعدائها، وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها[2].

وكان سعد بن معاذ ﷺ لما شرع الصحابة في أسر المشركين كره ذلك ورأى رسول الله ﷺ الكراهية في وجه سعد لما يصنع الناس، فقال له رسول الله: «**والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم**» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إليَّ من استبقاء الرجل[3].

كانت معاملة النبي ﷺ للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدعوية؛ ولذلك تعددت أساليبه، وتنوعت طرق تعامله عليه الصلاة والسلام، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منَّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المن عليهم.

أ- **حفظ رسول الله ﷺ لجوار المطعم بن عدي:** قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «**لو كان مُطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له**»[4].

وهذا الحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول ﷺ في جواره حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حُصِرَ المسلمون وبنو هاشم[5].

وهذا يدل على قمة الوفاء لمواقف الرجال، ولو كانوا مشركين[6].

ب- **مقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث:** وإذا كان هذا الوفاء لرجل مثل المطعم بن عدي، فلا بد من الحزم مع مجرمي الحرب ورؤوس الفتنة من أمثال عقبة بن

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٧٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥).
(٢) انظر: معين السير، ص٢٠٩.
(٣) انظر: التربية الجهادية للغضبان (١/ ١٤١).
(٤) أبو داود في الجهاد، باب المن على الأسير، رقم ٢٦٨٩ وإسناده صحيح.
(٥) انظر: معين السيرة، ص٢٠٨.
(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٤).

أبي معيط والنضر بن الحارث، فقد كان من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام، والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولا سيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورعا على سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتْلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية[1]؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلهما عندما وصل إلى الصفراء[2]، أثناء رجوعه للمدينة، فلما سمع عقبة بن معيط بأمر قتله قال: يا ويلي، علام أُقتل يا معشر قريش من بين من هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعداوتك لله ولرسوله» قال: يا محمد مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي، إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت علي، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يا محمد مَنْ للصبية؟ قال رسول الله ﷺ: «النار، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه»[3] فقدمه عاصم فضرب عنقه[4].

وأما النضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكَّر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم إليَّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟[5].

إن هذا الرجل المتعالي على الله والمتألي عليه، والذي يزعم أنه سينزل أحسن ما أنزل الله، والذي يزعم أنه أحسن حديثًا من محمد لا بد لمثل من يمثل هذا التيار وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين، لا بد أن يُثأر لله ولرسوله منه، ومن أجل هذا لم يدخله رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة[6]، وأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[7].

وبمقتل هذين المجرمين تعلم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر وقادة الضلال، فلا هوادة معهم؛ لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح[8] بأعمالهم الشنيعة، فقد كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، محمد أحمد باشميل، ص١٦٢.

(٢) الصفراء: واد كثير النخل والزرع والخير.

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٨٩) قال فيه: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٧).

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٥).

(٨) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

وبغيا وحسدًا وهجاء للإسلام وأهله[1].

جـ- الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج النبوي الكريم: ولما رجع ﷺ إلى المدينة فرّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيرًا»[2] وبهذه التوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عما رأى قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ «استوصوا بالأسارى خيرًا»، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله ﷺ[3].

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا قال: كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليَّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، وكانوا يحملوننا ويمشون[4].

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خلقًا، وكان لهم طبيعة، قد أثر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر، بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وصية رسول الله ﷺ وأسلم معه السائب بن عبيد[5] بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم، وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم يتحدثون عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير[6]. إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام في معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار[7].

د- فداء العباس عم النبي ﷺ: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلمًا، فقال رسول الله ﷺ «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك قد كان

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٦). (٢) نفس المصدر (٣/ ٣٠٧).

(٣) مجمع الزوائد (٦/ ٨٦) وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١١٩).

(٥، ٦) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ١٧٥، ١٧٦).

علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم» قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠، ٧١]. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبدًا كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل[١].

هذا والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة، وإن كانت نزلت في العباس، إلا أنها عامة في جميع الأسرى[٢].

استأذن بعض الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه، قال: «والله لا تذرون منه درهمًا»[٣] أي لا تتركوا للعباس من الفداء شيئًا، ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[٤]، لتكون المنة عليهم في إطلاقه بخلاف لو قالوا: (عمك) لكانت المنة عليه ﷺ، وهذا من قوة الذكاء وحسن الأدب في الخطاب، وإنما امتنع النبي ﷺ عن إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع محاباة[٥].

وهنا يتعلم الأسرى والمسلمون أيضا درسًا بليغًا في عدم محاباة ذوي القربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد أغلا رسول الله الفداء على عمه العباس[٦].

ورجع العباس لمكة، وقد دفع فداءه وابْنَيْ أخويه، وأخفى إسلامه، وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارة فائقة، وقدرة نادرة حتى انتهى دوره في فتح مكة، فأعلن إسلامه قبلها بساعات[٧].

---

(١) انظر: البخاري في المغازي، باب ١٢، حديث رقم ٤٠١٨.
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم، عن غزوات الرسول (١/ ١٣٢).
(٣) فتح الباري(٧/ ٣٢١) نقلا عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).
(٤) لأن جدة العباس أم عبد المطلب من بني النجار من يثرب.
(٥) انظر: سبل الرشاد للصالحي (٤/ ١٣٥).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).
(٧) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٨).

هـ- أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ: قالت عائشة رضي الله عنها: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا»، فقالوا: (نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)[1].

وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه، أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «كونا ببطن يأجج[2] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها»[3].

إن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ لم يُعرف عنه قط موقف في مقاومة الدعوة بأي لون من ألوانها، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، وفي بدر كان أبو العاص صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يسمع لهم في المعركة صوت، ولم يعرف لهم رأي، ولا شوهدت لهم في قتال جولة، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها، أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، ومع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رضي الله عنها أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها للتحلي بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رقَّ لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبوية عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي ﷺ أب، له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه ﷺ متلطفًا يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء ولا يسلبهم حقهم في الفداء لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: **«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا»**

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة[4].

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٦١. (٢) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.

(٣) أبو داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال رقم ٢٦٩٢.

(٤) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٨٠- ٤٨٧).

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ على ابنته، يحمل في طياته مقصدًا آخر وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد، والرأي الرشيد، فقد كان ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة[1].

و- أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي بين الرحمة والحزم النبوي: كان محتاجًا ذا بنات قال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة، وذو عيال فامنن عليَّ، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدًا فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

مَنْ مبلغ عني الرسول محمدًا	بأنك حق والمليك حميدُ
وأنت امرؤ بُوِّئت فينا مباءة[2]	لها درجات سهلة وصعودُ
فإنك من حاربته لمحاربٌ	شقيٌّ ومن سالمته لسعيدُ
ولكن إذا ذكرت بدرًا وأهله	تأوَّبُ ما بي، حسرة وقعود

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله فرجع إليهم، فلما كان يوم أحد أُسر أيضا، فسأل من النبي ﷺ أن يمن عليه أيضا فقال النبي ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول: خدعت محمدا مرتين»، ثم أمر به فضربت عنقه[3].

فكان النبي ﷺ به رحيمًا وعفا عنه، وأطلق سراحه بدون فداء لما ذكر أبو عزة فقره وما لديه من بنات يعولهن، ولكنه لم يف لرسول الله ﷺ بما عاهده من لزوم السلم وعدم إثارة الحرب ضده، فوقع أسيرًا في معركة أحد، فكان موقف النبي ﷺ منه الحزم فأمر بضرب عنقه.

ز- سهيل بن عمرو ووقوعه في الأسر وماذا قالت سودة رضي الله عنها: قال عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ﷺ: (قُدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب الحجاب، قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كرامًا.. فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين؟»فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨٣). (٢) مباءة: مكانة رفيعة.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١٣).

رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت)[1].

وفد مكرز بن حفص بن الأخيَفْ في فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض المسلمين وانتهى إلى رضائهم قالوا: هات الذي لنا، قال لهم مكرز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزًا عندهم، وجاء في حديث مرسل أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنية سهيل بن عمر، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا في موطن آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيًّا»[2] ثم قال رسول الله ﷺ: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه»[3].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الذي قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله ﷺ وارتدَّ العرب، ونجم النفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكة فخطب في الناس وثبتهم على الدين الحنيف[4]، فقد قال في ذلك: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر الناس إسلامًا وأولهم ردة، من رابنا ضربنا عنقه[5].

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنية سهيل، ورأى أن ذلك من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثل به فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراسًا لأمته في انتصاراتها على أعدائها[6].

ح- **التعليم مقابل الفداء:** قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[7]؛ وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه[8]. وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤]. واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لمحمد الصوياني (٢/ ٢٠٠) وسنده صحيح.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١) وقال ابن كثير: مرسل بل معضل.

(٣،٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨١).

(٦) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).

(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٦١.

(٨) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٤).

في هذا للإسلام[1].

ط- حكم الأسرى: إن حكم الأسرى في الإسلام مفوض إلى رأي الإمام ليختار حكمًا من أربعة، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامة، والأحكام الأربعة هي:

١- القتل: وقد قتل رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.

٢- المن: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع أبي عزة الجمحي.

٣- الفداء: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال، وهذا ما حدث مع العباس عم النبي ﷺ ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم.

٤- الاسترقاق: وقد حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يقتل المحاربون وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء[2].

* * *

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص١٠١.

المبحث السادس

نتائج غزوة بدر ومحاولة اغتيال النبي ﷺ

أولاً: نتائج غزوة بدر:

١- كان من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأصبح على من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فعلته، وتعززت مكانة الرسول ﷺ في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشككون بالدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النفاق والمكر والخداع، فأعلن فريق منهم إسلامهم ظاهرًا أمام النبي ﷺ، وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطنًا، فظلوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[النساء: ١٤٣]، ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنع الله عليهم، وسمّع بهم في كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله الكريم ﷺ واشتداد ساعدهم وقوتهم، ودخول عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب فازدادوا إيمانًا على إيمانهم وثباتًا على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وشهرة واسعة في داخل الجزيرة العربية وخارجها، إذ أصبحوا قوة يحسب لها حسابها في بلاد العرب، فلا تهدد زعامة قريش وحدها، بل زعامة جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف الأصقاع والأماكن، كما أصبح للدولة الجديدة مصدر للدخل من غنائم الجهاد؛ وبذلك انتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي بما أفاء الله عليهم من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين داما تسعة عشر شهرًا[1].

٢- أما قريش فكانت خسارتها فادحة فإضافة إلى مقتل أبي جهل بن هشام وأمية بن

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص٢٧٤، ٢٧٥.

خلف وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعة وقوة وبأسًا، ولم تكن غزوة بدر خسارة حربية لقريش فحسب، بل خسارة معنوية أيضا، ذلك أن المدينة لم تعد تهدد تجارتها فقط، بل أصبحت تهدد أيضا سيادتها ونفوذها في الحجاز كله[1]، كان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة، ولم يصدقوا ذلك في بداية الأمر، قال ابن إسحاق رحمه الله: (وكان أول من قدم بمكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا له: ما وراءك؟.

قال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا فسلوه عني؟ فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا)[2].

وهذا أبو رافع مولى رسول الله ﷺ يقص علينا أثر خبر هزيمة قريش على أبي لهب -لعنه الله- حيث قال: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمتْ أم الفضل وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.. فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ووجدْنا في أنفسنا قوةً وعزةً.

قال: كنت رجلاً ضعيفًا، وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندي أم الفضل (زوجة العباس بن عبد المطلب) جالسة وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشرٍّ حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب قد قدم، فقال: أبو لهب: هلم إليَّ فعندك لعمري الخبر، قال: جلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله مع ذلك ما لُمت الناس، لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق[3] شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض ثم

---

(١) انظر التاريخ السياسي والعسكري، ص٣٧٥، ٣٧٦.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٧.

(٣) تُليق: أي تبقي.

برك عليَّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلعت[1] في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليًا ذليلاً، ثم مات بعد سبع ليالٍ بالعدسة[2] فقتلته[3]. وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب وأخت ميمونة أم المؤمنين وخالة خالد بن الوليد، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة[4] رضي الله عنهن.

لقد تركت غزوة بدر بنفوس أهل مكة المشركين كمدًا وأحزانًا وآلامًا بسبب هزيمتهم ومن فُقدوا وأسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابنًا له وأُسر له ابنٌ آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتى إن بعضهم حرم على نفسه الاغتسال[5] حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد[6].

٣- أما اليهود فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدر، وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يعز الإسلام ويظهر على دينهم ويكون لرسوله دونهم الحظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النبي ﷺ عندما قدم المدينة، وأظهروا عداوتهم التي كانت كامنة في نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القوم ويعلنون، ثم راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله، ويعملون للقضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم[7]، وبدءوا يتحرشون بالنبي ﷺ والمسلمين، وما كان النبي ﷺ ليخفى عليه شيء من ذلك فقد كان يراقبهم عن حذر ويقظة، حتى استخفُّوا بالمقررات الخلقية، والحرمات التي يعتز بها المسلمون واستعلنوا بالعداوة فلم يكن بد من حربهم وإجلائهم عن المدينة[8].

ثانيًا: محاولة اغتيال النبي ﷺ وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزبير: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر، بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي

---

(١) فلعت: شقت.

(٢) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون، وقد عدس الرجل: إذا أصابه ذلك.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٨).

(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر، ص١٦٢.

(٥) هو أبو سفيان بن حرب نذر ألا يمس رأسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

(٧) انظر: التاريخ السياسي العسكري، ص٢٧٤.

(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء[1] وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: (والله ما في العيش بعدهم خير). قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْنٌ علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة[2] بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة[3]، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم[4] ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم علي شأني وشأنك. قال: أفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشرٍّ وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه.قال ﷺ: «فأدخله عليَّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة[5] سيفه في عنقه فلبَّبه[6] بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عميرُ».

فدنا ثم قال: انعموا صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»[7].

فقال: أما والله، يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

فقال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا؟!! قال: «اصدقني ما الذي جئتَ به؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش،

---

(١) عناء: التعب.

(٢) الضيعة: الضياع والتشتت. (٣) العلة: السبب.

(٤) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

(٥) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم. (٦) لببه: قيده.

(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٩.

ثم قلت: لولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره ففعلوا».

ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا»[1].

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- حرص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية وعمير بن وهب يتفقان على قتل النبي ﷺ، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[2]. وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فها هو صفوان قد استغل فقر عمير وقلة ذات يده ودَيْنه ليرسله إلى هلاكه[3].

٢- ظهور الحس الأمني الرفيع الذي تميز به الصحابة رضي الله عنهم، فقد انتبه عمر ابن الخطاب لمجيء عمير بن وهب وحذَّر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشر، فقد كان تاريخه معروفًا لدى عمر، فقد كان يؤذي المسلمين في مكة، وهو الذي حرض على قتال المسلمين في بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرسول ﷺ، فمن جهته فقد أمسك بحمالة

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٦٠.

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٥٩).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص٨٢.

سيف عمير الذي في عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ وأمر نفرًا من الصحابة بحراسة النبي ﷺ.

٣- الاعتزاز بتعاليم هذا الدين، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: أنعموا صباحًا، وأخبره بأنه لا يحيي بتحية أهل الجاهلية؛ لأن الله تعالى أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

٤- سمو أخلاق النبي ﷺ فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتله[١]، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير وقال لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره»[٢].

٥- قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ، وفعل، وواجه، وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر ﷺ ممن يزن عنده ألف رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص -رضي الله عنهم- الذين كان كلٌّ واحد منهم بألف[٣].

* * *

(١) انظر غزوة بدر الكبرى، ص٨٣.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٦٠.

(٣) انظر: التربية القيادية، (٣/ ٧٣).

المبحث السابع

بعض الدروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النصر من الله تعالى:

إن حقيقة النصر في بدر كانت من الله تعالى قال سبحانه فقد بين سبحانه وتعالى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ١٠].

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، والمعنى: ليس النصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزة التي لا ترام[١]، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى[٢].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر-إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن يجب أن لا يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه، ثم بين سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته. وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين ويعلمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]. ولما بيَّن سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده، وضح بعض الحكم من ذلك النصر، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ۞ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨].

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتذكروا دائما تلك النعمة العظيمة؛ نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٢) نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٩٧- ١٠٥).

ثانيًا: يوم الفرقان:

سُمي يوم بدر يوم الفرقان، ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله تعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. فقال: كانت غزوة بدر، التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده، فرقانًا بين الحق والباطل، كما يقول المفسرون إجمالاً، وفرقانًا بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيرًا. كانت فرقانًا بين الحق والباطل فعلاً.. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء.. الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزيَّل بينهما فلم يعودا يلتبسان.

لقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد، كانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير؛ فرقانًا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات، وكانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر، كذلك فرقانًا بين العبودية الواقعية للأشخاص، والأهواء، وللقيم والأوضاع والشرائع والقوانين وللتقاليد والعادات، وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقانًا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويرًا جديدا للحياة، ومنهجًا جديدًا للوجود الإنساني، ونظامًا جديدًا للمجتمع، وشكلاً جديدًا للدولة، بوصفه إعلانًا عامًا لتحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة

الطواغيت التي تغتصب ألوهيته[1].

إلى أن قال: وأخيرًا فلقد كانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا، أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة)، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة)، وأن تكون معركة وقتالاً وقتلاً وأسرًا، ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة، وقد قال الله سبحانه: إنه صنع هذا ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة، إن الحق لا يحق وإن الباطل لا يبطل -في المجتمع الإنساني- بمجرد البيان النظري للحق والباطل، ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حقٌّ وهذا باطلٌ، إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا الناس، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ويهزم جند الباطل ويندحروا، فهذا الدين منهج حركي واقعي، لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل، أي لمجرد الاعتقاد السلبي.

ولقد حق الحق وبطَل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر العملي فرقانًا واقعيًا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته سبحانه من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة. ولقد كان هذا كله فرقانًا بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لفرقان ندرك به اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين، حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين، وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة، والله على كل شيء قدير، وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء، مثل لا يجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممار.. مثل من الواقع المشهود، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله. وأن الله على كل شيء قدير[2].

ثالثًا: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صورًا مشرقة في الولاء والبراء، وجعلت خطًا فاصلاً

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢١، ١٥٢٢).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢٣، ١٥٢٤).

بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني، فعاشها الصحابة واقعًا ماديًا وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه:

١- كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة في صف المشركين، وقد قتلوا جميعًا في المبارزة الأولى.

٢- كان أبو بكر الصديق في صف المسلمين.. وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

٣- كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيرًا في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاري: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك، تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك[١]، إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي[٢].

٤- كان شعار المسلمين في بدر (أَحَدٌ، أَحَدٌ) وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل بالعبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية، ولا الأحقاد والضغائن، ولا الثأر هو الباعث والمحرك، ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر واحدة في مضمونها[٣]، وللإيمان فقه عظيم، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين في مكة، وحبس من كان مضطهدًا ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ فشهد المعركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم[٤].

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيبوا جميعًا[٥] فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧).

(٢) انظر: معين السيرة، ص٢١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١٧.

(٤) انظر: معين السيرة، ص٢١٧.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٣).

قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قال ابن عباس: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا على الخروج، فنزلت:﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ إنهم لم يعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوافرة، ولم يكن الفاصل كبيرًا بين الصفين، ولن يعدموا لو أرادوا الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل[1].

إن للإيمان مستلزمات تعبر عن صدقه وقوته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه، فإذا كان كذلك كان لأصحابه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله، إن الإيمان يصبغ السلوك، فإذا به يشع من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة، ومن خلال السمت والانفعال؛ ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين؛ لأن الإيمان الذي ادعوه لم توجد له مستلزمات فلم يؤت ثماره[2].

ولهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصحابة الكرام في بدر مُثلاً عليا لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم آثروا رضاء الله ورسوله ﷺ على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصادقة في قوله تعالى:﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

رابعًا: المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها:

من المعجزات التي ظهرت على يدي رسول الله ﷺ في بدر إخباره عن بعض المغيَّبات، ومن المعلوم أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آية من كتابه العزيز، قال تعالى:﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. وقال تعالى:﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٢١٧.

(٢) انظر: معين السيرة، ص٢١٨.

شيء منه، فقد قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم، ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. فنخلص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الأخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ باطلاع الله له على المغيبات[1]. وكان لأحداث غزوة بدر نصيب من تلك المعجزات الغيبية منها:

١- مقتل أمية بن خلف:

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، قال: فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: ألا تنظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت؟ فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة، فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنا وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟ فقال: نعم، فتلاحيا[2] بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه فغضب سعد فقال: دعنا عنك. فإني سمعت محمدًا ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث، فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمدًا يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد، قال: فلما خرجوا إلى بدر جاء الصريخ، قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد ألا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يومًا أو يومين، فسار معهم يومين فقتله الله[3].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٤٥٣).

(٢) تلاحيا: تلاوما وتنازعا، انظر: النهاية (٤/ ٢٤٣).

(٣) البخاري ز انظر: الفتح (٦/ ٣٦٣٢).

٢- مصارع الطغاة:

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال، وكنت رجلا حديد البصر[١] فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيري، قال فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل يقول لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدًا، إن شاء الله» قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ[٢].

٣- إخبار العباس بن عبد المطلب بالمال الذي دفنه، وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذي حدث بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله ﷺ من عمه دفع الفداء، وأجابه العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، فقال له: «أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلتَ لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الأمر ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل. وما حدَّث به عمير بن وهب لما جاء متظاهرًا بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي ﷺ باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سببًا في إسلامه وصدق إيمانه[٣].

وذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذ، فأعطاه النبي ﷺ جذلا من حطب، فقال: «دونك هذا» فلما أخذه عكاشة وهزه، عاد في يده سيفًا طويلاً شديدًا أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر[٤]. وقال رفاعة بن رافع: رميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء[٥].

قال الدكتور أبو شهبة: وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات أنه نبي يوحى إليه، فقد أخبر بمغيبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه من انقلاب عود أو عرجون في يد صاحبه سيفا بَتَّارًا في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهادًا لا يعرف التردد أو الخور، وحرصه البالغ على أن

---

(١) حديد البصر: أي نافذ.
(٢) مسلم رقم (٢٨٧٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) وذكر المحقق أن ابن إسحاق ذكرها من غير سند.
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

يخوض المعارك بسيف خرقت به العادة وصار مثلاً وذكرى في الأولين والآخرين[1].

خامسًا: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدر -في الأحداث التي سبقتها- أراد مشرك أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النبي ﷺ الموافقة على قبوله معهم، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه فقال ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»[2] فالحديث يبين أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة وهي: تحقق المصلحة، أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن يكون تابعًا للقيادة الإسلامية، لا متبوعًا، ومقودًا فيها لا قائدًا لها، وألا تكون هذه الاستعانة. مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة وبمن يستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة. وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش إذ لا حاجة به أصلاً، وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة؛ ليدلهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم[3]. وضبط هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقه دقيق وإيمان عميق.

سادسًا: حذيفة بن اليمان، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

١- حذيفة بن اليمان ووالده: قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، لما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فيما ترى؟ قال: نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا[4].

هذه صورة مشرقة في حرص النبي ﷺ لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٤) انظر: المستدرك للحاكم (٣/ ٢٠١، ٢٠٢) هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

الأخلاق الرفيعة، وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين.

٢- **أسيد بن الحضير**: عندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة قادمًا من بدر لقي بالروحاء رؤوس الناس يهنئونه بما فتح الله عليه، فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًا، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت»[1].

سابعا: الحرب الإعلامية في بدر:

قال حسان رضي الله عنه:

فما نخشى بحول الله قومًا ... وإن كثُروا وأجمعت الزحوف

إذا ما ألَّبوا جمعًا علينا ... كفانا حدَّهم ربٌّ رؤوف

سمونا يوم بدر بالعوالي ... سِراعًا ما تضعفنا الحتوف[2]

فلم تر عصبة في الناس أنكى ... لمن عادوا إذا لقحت كشوف

ولكنا توكلنا وقلنا ... مآثرنا ومعقلنا السيوف

لقيناهم بها لما سمونا ... ونحن عصبة وهم ألوف[3]

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

لما حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللقاء

وردناه بنور الله يجلو ... دُجى الظلماء عنا والغطاء

رسول الله يقدمنا بأمر ... من أمر الله أُحكم بالقضاء

فما ظفرت فوارسكم ببدر ... وما رجعوا إليكم بالسواء

فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء

بنصر الله روحُ القدس فيها ... وميكالٌ، فيا طيب الملاء[4][5]

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦) الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

(٣) هذا محمول على المبالغة لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

(٤) أي ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٠).

كان النبي ﷺ يحث شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدفاع عن المسلمين وإخافة الأعداء بشعرهم، فقد كان الشعر يمثل الحملات الإعلامية المؤثرة في دنيا العرب، فيرفع أقوامًا ويخفض آخرين، ويشعل الحروب ويطفئها[1]. كانت بوادر الحرب الإعلامية قد اندلعت منذ الهجرة، غير أن ظهورها أكثر بدأ مع حركة السرايا قبيل بدر، لكنها انفجرت انفجارًا ضخمًا بعد بدر؛ لأن الجانب الإعلامي للقبائل المجاورة كان هدفًا مهمًّا من أهداف الفريقين، ويظهر أن القصائد سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة، فيأتي الرد من الطرف الآخر، فعند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر، بينما تكثر المراثي عند الفريق الثاني، وكان الصف الإسلامي يضم شعراء متخصصين، كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكان أشدهم على الكفار حسان[2].

* * *

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٩٩).

(٢) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص٣٥٤، ٣٥٥.

الفصل الثاني

غـزوة بني قينقـاع

ذكر الزهري أنها وقعت في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية[1]، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[2]، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشًا في بدر[3]، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وإنك لم تلق مثلنا[4]. وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحًا عدائيًا، وتحديًا واستعلاء واستعدادًا للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۞ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

١- الأسباب المباشرة للغزو: لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجَلَب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[5].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٩).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٦٩).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٧٦)

(٤) نفس المصدر (١/ ٢٧٦).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).

فحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة[1]، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبد المطلب ﷺ، واستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمري[2]، واسمه بشير[3]، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

٢- **ضرب الحصار عليهم:** وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة، كما ذكر ابن هشام[4]، واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بأسلوب الحصار، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأسًا وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ[5]، فأمر بهم فربطوا فكانوا يكتفون أكتافًا، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي[6].

٣- **مصير يهود بني قينقاع:** حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحل حلفاءه من وثاقهم، فعندما مر عليهم قال: حلوهم، فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه[7]، فاضطر عبد الله بن أبي ابن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم[8]. فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أحسن في موالي -وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال يا محمد: أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً[9]، ثم قال: «ويحك أرسلني» قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»[10]. فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم ثم أمر

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٧٦)، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٨، ٢٩).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٨١).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٧٩).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٥).

(٥) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٤).

(٦) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٠)

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).

(٨) المصدر نفسه (٥/ ٣٣).

(٩) ظللا: جمع ظلة وهي السحابة، استعارة لتغير الوجه عند الغضب.

(١٠) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨١).

بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة ﷺ[1]، وحاول ابن أبي ابن سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يقرهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فرده عويم، وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أبي، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم[2].

ويظهر في هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام[3].

وهناك بُعد آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين، حيث إن بعض الأنصار حديثو عهد بالإسلام، ويخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم[4]، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءته تجنبا للفتنة وإظهارًا لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم ينفر الناس من حوله ولا يتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحًا باهرًا، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه[5]، بل أرادوا قتله كما سيأتي بإذن الله تعالى.

٤- **تبرؤ عبادة بن الصامت منهم:** لما نقضت العهد بنو قينقاع وكان عبادة بن الصامت أحد بني عوف -لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي- مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم[6]. ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يجليهم، فجعلت بنو قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج -ونحن مواليك- فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبد الله بن أبي: تبرأت من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكره مواطن قد أبلوا فيها، فقال عبادة: يا أبا الحباب،

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨١).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٠).
(٣) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان، ٢٤٧.
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).
(٥) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٨).
(٦) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).

تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمعصم بأمر سنرى غيَّه غدًا، فقالت بنو قينقاع: يا محمد، إن لنا دينًا في الناس، قال النبي ﷺ: «تعجلوا وضعوا» وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولا ساعة من نهار، لكم ثلاث لا أزيد عليها، هذا أمر رسول الله ﷺ، ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وبلغ خلف الذباب ثم رجع ولحقوا بأذرعات[1].

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة، وأشدهم بأسًا، وأكثرهم عددًا وعدة؛ ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبهم وخضدت شوكتها [2].



(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٩).

الفصل الثالث
غـــــزوة أحـــــد

المبحث الأول
أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحد متعددة منها: الديني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي.

١- السبب الديني: فقد أخبر المولى عز وجل أن المشركين ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدعوة الإسلامية، ومنع الناس في الدخول في الإسلام، والسعي للقضاء على الإسلام والمسلمين ودولتهم الناشئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطبري: يصرفون أموالهم وينفقونها، ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام[١].

وقال ابن كثير: أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق[٢].

وقال الشوكاني: والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك[٣].

من هذا يظهر أن أهم أسباب غزوة أحد هو السبب الديني الذي كان من أهداف قريش للصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة الرسول ﷺ والقضاء على الدعوة الإسلامية[٤].

٢- السبب الاجتماعي: كان للهزيمة الكبيرة في بدر، وقتل السادة والأشراف من قريش وقع كبير من الخزي والعار الذي يحل بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلة والهزيمة، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم في غسل هذه الذلة والمهانة التي لصقت بهم، ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدر، قال ابن إسحاق: (لما أصيب يوم بدر من

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، محمد بامدحج، ص٧١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١) طبعة دار السلام.

(٣) انظر: فتح القدير (٣٠٩).

(٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٧١.

كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فُلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشا لقتال رسول الله ﷺ، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منها، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك[١].

ودعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًا يقال له: وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ لها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق[٢].

٣- **السبب الاقتصادي**: كانت حركة السرايا التي تقوم بها الدولة الإسلامية قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصارًا اقتصاديًا قويًا، وكان الاقتصاد المكي قائمًا على رحلتي الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحي هاتين الرحلتين ضرب للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع اليمن، وتجارتهم إلى اليمن قائمة على سلع الشام[٣]، قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش].

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أمية: (إن محمدًا وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، قد وادعهم[٤]، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى الحبشة)[٥].

٤- **السبب السياسي**: فقد أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدر، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمة لها، فلا بد من رد الاعتبار والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وتضحيات.

هذه أهم الأسباب التي جعلت قريش تبادر إلى المواجهة العسكرية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة[٦].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٨).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٧٩).
(٣) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٧٤.
(٤) وادعهم: أي صالحهم وسالمهم.
(٥) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٩٥، ١٩٦).
(٦) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٧٥.

ثانيًا: خروج قريش من مكة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة[1]، وعبأت جيشها المكون من ثلاثة آلاف مقاتل مصحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بجدها وحديدها وأحابيشها[2] ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة. وخرجوا بالظعن[3]، التماس الحفيظة لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربيعة[4]، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[5].. فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة، على شفير الوادي مما يلي المدينة[6].

كانت التعبئة القرشية قد سبقتها حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزِّبَعْرَى وقد حققت نتائج كبيرة[7]، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهبًا[8].

ثالثًا: الاستخبارات النبوية تتابع حركة العدو:

كان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجد في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة، التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر، في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء[9].

كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: (وكان ﷺ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك في مكة خير)[10].

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١١) المغازي للواقدي، (١/ ١٩٩).

(٢) الأحابيش: من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم.

(٣) الظعن: النساء، واحدتها ظعينة، والظعينة المرأة في الهودج.

(٤) انظر: الإصابة (٨/ ٣٤٦) رقم ١١٨٦٠.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠).

(٦) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٧٨.

(٧) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١٧.

(٨) المصدر نفسه، ص١٦.

(٩) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ص٢٥٠.

(١٠) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢).

كانت المعلومات التي قدمها العباس لرسول الله ﷺ دقيقة فقد جاء في رسالته: (أن قريشًا قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعًا إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا[1] من السلاح)[2].

فقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

١- معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة.

٢- حجم الجيش وقدراته القتالية، وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

لم يكتف النبي ﷺ بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط وإستراتيجيات نافعة، ولذلك أرسل ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَده ورجع، فسأله رسول الله ﷺ: «ما رأيت؟» قال: رأيت أي رسول الله عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «هل رأيت ظعنًا؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[3]... فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرضن القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول»[4].

كما أرسل ﷺ أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم[5].

وبعد أن تأكد من المعلومات حرص ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي، خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أبي بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر، وعاد مسرعًا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان ﷺ قد أطلع سيد الأنصار سعد بن الربيع على خبر رسالة العباس فقال: والله إني لأرجو أن يكون خيرًا، فاستكتمه إياه، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد، قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أم لك، أنت وذاك، فقالت: قد سمعت ما قال لك، فأخبرته بما أسر به

---

(١) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح. (٢) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٤).

(٣) الأكبار: جمع كبر: والكبر هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارسي معرب.

(٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٧، ٢٠٨). (٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٨٧).

الرسول ﷺ فاسترجع سعد، وقال: يا رسول الله، إني خفت أن يفشو الخبر فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إياه، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ عنها»[١].

وفي هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية، وخططهم وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار لأن إفشاءها يهدد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب في القديم والحديث يحدثنا أن كثيرًا من الهزائم والمآسي والآلام قد حلت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق، أو قريب في الظاهر عدو في الحقيقة والواقع[٢].

رابعًا: مشاورته ﷺ لأصحابه:

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه رضي الله عنهم وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، وقال: «إنا في جنة حصينة»[٣] فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول[٤] مع رأي رسول الله ﷺ إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: (وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة)[٥].

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته[٦]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»[٧].

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).
(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص٢٢.
(٣) انظر: تاريخ الطبري، (٢/ ٦٠).
(٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٨٢.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤).
(٦) لأمة الحرب: عدتها.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١).

كان رأي من يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيًا على أمور منها:

١- أن الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثانية على نصرة الرسول ﷺ، فكان أغلبهم يرى أن المكوث داخل المدينة تقاعس عن الوفاء بهذا العهد.

٢- أن الأقلية من المهاجرين كانت ترى أنها أحق من الأنصار في الدفاع عن المدينة ومهاجمة قريش وصدها عن زروع الأنصار.

٣- أن الذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرقون شوقًا من أجل ملاقاة الأعداء طمعًا في حصول الشهادة في سبيل الله.

٤- أن الأكثرين كانوا يرون أن في محاصرة قريش للمدينة ظفرًا يجب ألا تحلم به، كما توقعوا أن وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤن عنهم(١).

أما من وجهة نظر من يرى البقاء في المدينة فهو مبني على التخطيط الحربي الآتي:

١- أن جيش مكة لم يكن موحد العناصر، وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمنًا طويلاً إذ لا بد من ظهور الخلاف بينهم إن عاجلاً أو آجلاً.

٢- أن مهاجمة المدن المصممة على الدفاع عن حياضها وقلاعها وبيضتها أمر بعيد المنال، وخصوصا إذا تشابه السلاح عند كلا الجيشين، وقد كان يوم أحد متشابهًا.

٣- أن المدافعين إذا كانوا بين أهليهم فإنهم يستبسلون في الدفاع عن أبنائهم وحماية نسائهم وبناتهم وأعراضهم.

٤- مشاركة النساء والأبناء في القتال وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

٥- استخدام المدافعين أسلحة لها أثر في صفوف الأعداء مثل الأحجار، وغيرها، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم(٢).

من الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلابد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، لتعتاد على ممارسة

---

(١) انظر: غزوة أحد، أحمد عز الدين، ص٥١، ٥٢.

(٢) انظر: القيادة العسكرية للرشيد، ص٣٧٤.

الشورى وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي، فإنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع[1].

كان النبي ﷺ قد عزم على الخروج وقد أعلن حالة الطوارئ العامة وتجهز الجميع للقتال، وأمضوا ليلتهم في حذر، كلٌّ يصحب سلاحه ولا يفارقه، حتى عند نومه، وأمر ﷺ بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة ﷺ. واهتم الصحابة بحراسة رسول الله، فبات سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وسعد بن عبادة في عدة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ليلة الجمعة مدججين بالسلاح في باب المسجد يحرسون رسول الله ﷺ[2].

خامسًا: خروج جيش المسلمين إلى أحد:

أ- من الأسباب المهمة التي اتخذها ﷺ لملاقاة أعدائه اختياره لوقت التحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئًا، والحركة قليلة، وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء، غالبا، في نوم عميق لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذا منهم مجهودًا كبيرًا.

ومن المعروف أن من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية والحركة الثقيلة، قال الواقدي رحمه الله: ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان في السحر قال: «أين الأدلاء؟»[3] ثم إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهي السرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة ﷺ استعداده قائلا: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لربعي بن قيظي، وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قيظي وكان رجلاً منافقًا ضرير البصر، فلما أحس برسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثو في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٠).

(٢) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ص٣٤، ٣٥.

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢١٧).

أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: لا تقتلوه، **فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر**، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني الأشهل[1] قبل نهي رسول الله عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه[2].

ولا شك في أن مروره ﷺ بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير؛ لأن الطرق العامة تكشف للأعداء على مقدار قوات المسلمين، وهذا أمر محذور، فالرسول ﷺ علم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يستطيع الأعداء معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم لجيوشهم في مهب الرياح.

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصلحتان فالرسول ﷺ حينما مر بالجيش في أرض المنافق مربع بن قيظي، وترتب على ذلك إفساد المزرعة، لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أحد، فبين ﷺ أن ما يكون به مصلحة للدين مقدم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان مصلحة عامة ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة وهي مقدمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال[3]. وقد رتب الشارع الحكيم مقاصد الشرع في تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها[4]، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مقدم على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما به يكون حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء[5].

ب- انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش: عندما وصل جيش المسلمين الشواط[6] انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضًا على قرار القتال خارج المدينة قائلا: (أطاع الولدان ومن لا رأي له،

---

(١) بنو الأشهل: حي من الأنصار.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٣).
(٣) انظر: غزوة أحد، دراسة دعوية، ص١٦٨.
(٤) انظر: ضوابط المصلحة، محمد رمضان البوطي، ص٢٣.
(٥) انظر: المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العالم، ص١٦٦.
(٦) الشواط: اسم حائط، أي بستان، بين المدينة وأحد.

أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا)[1]. وكان هدفه الرئيس من هذا التمرد أن يحدث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي لتنهار معنوياته، ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظيمة، وبغض الإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب، حتى لا يختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق[2] قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن[3].

ج- **موقف عبد الله بن عمرو بن حرام من انخذال المنافقين:** حاول عبد الله بن حرام ﷺ إقناع المنافقين بالعودة فأبوا، فقال: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه[4]. وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

د- **بنو سلمة، وبنو حارثة:** ولما رجع ابن أبي ابن سلول وأصحابه همت بنو سلمة وبنو حارثة أن ترجعا، ولكن الله ثبتهما وعصمهما، قال جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] بني سلمة، وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾[5].

لقد أثر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألم بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى فدفع عنهم الوهن فثبتوا مع المؤمنين.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصحابة تجاه موقف ابن سلول، فالأول: يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش، والثاني: لا يرى قتلهم، وقد بين القرآن الكريم موقف الفريقين[6] في الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤). (٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٨٤.

(٣) انظر: مرويات غزوة أحد، حسين أحمد، ص٧١. (٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٧٧.

(٥) البخاري في المغازي، باب إذ همت طائفتان رقم٤٠٥١.

(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣/ ٣٨٢).

كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨].

هـ - **الاستعانة بغير المسلمين:** عندما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان يدعي الشيخين رأى كتيبة لها صوت وجلبة فقال: ما هذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول من يهود فقال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك»[1]، وهذا أصل وضعه النبي ﷺ في عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[2].

و- **رد النبي ﷺ بعض الصحابة لصغر سنهم:** رد النبي ﷺ في معسكره بالشيخين جماعة من الفتيان لصغر أعمارهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك، منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، بلغ عددهم أربعة عشر صبيًا، وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم[3]، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رامٍ، فبلغ ذلك سمرة بن جندب فذهب إلى زوج أمه مري بن سنان بن ثعلبة عم أبي سعيد الخدري وهو الذي ربى سمرة في حجره يبكي، وقال له: يا أبت أجاز رسول الله ﷺ رافعًا وردني، وأنا أصرع رافعًا، فرجع زوج أمه هذا إلى النبي ﷺ، فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسمرة فقال لهما: «تصارعا» فصرع سمرة رافعًا فأجازه كما أجاز رافعًا، وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه[4].

ونلحظ أن رسول الله ﷺ أجاز رافعًا وسمرة لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهما، ورد صغار السن خشية ألا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمي السهام، وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمي الوطيس، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين[5].

ونلحظ أن المجتمع الإسلامي يضج بالحركة، ويسعى للشهادة شيبًا، وشبابًا، وحتى الصبيان يقبلون على الموت ببسالة، ورغبة في الشهادة، تبعث على الدهشة، دون أن يجبرهم قانون التجنيد، أو تدفع بهم قيادة إلى ميدان القتال، وهذا يدل على أثر المنهج النبوي الكريم في تربية شرائح الأمة المتعددة على حب الآخرة والترفع عن أمور الدنيا.

سادسًا: خطة الرسول ﷺ لمواجهة كفار مكة:

أ- وضع الرسول ﷺ خطة محكمة لمواجهة المشركين من قريش، حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقتال، ورد من لم يكن صالحًا، واختار خمسين منهم للرماية،

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٧٨.

(٢) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٥٦١).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٣).

(٤) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٥٧١).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٥٧٢).

وشدد الوصية عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير ﷺ.

٢- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير ﷺ.

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر ﷺ[(١)].

ب- وكان ﷺ من هديه يحرض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثهم على التحلي بالصبر في ميادين القتال، لكي تتقوى روحهم المعنوية ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم، ومن ذلك ما فعله يوم أحد، وفي ذلك يقول الواقدي، ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس: «يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده، فإن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي آمركم فإني حريص على رشدكم، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر»[(٢)].

ويتضح من هذه الخطبة عدة أهداف منها:

١- الحث على الجد والنشاط في ميدان الجهاد.

٢- الحث على الصبر عند قتال الأعداء.

٣- بيان مساوئ الاختلاف والتنازع[(٣)].

إن هذا الهدي المبارك الذي سنه ﷺ يعلمنا حقائق ثابتة وهي أن الجيوش مهما عظم تسليحها وتنظيمها فإن ذلك لا يغني شيئًا إلا إذا حملته نفوس قوية تحرص على الموت أشد من حرصها على الحياة، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتوجيه وغرس حب الجهاد والشهادة في نفوسهم.

ج- أدرك الرسول ﷺ أهمية جبل أُحُد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة، وانتقى

---

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٨٩.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ص٤٦٩.

خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير[1]. ووضعهم فوق جبل عينين المقابل لجبل أحد، وذلك يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلا: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[2].

قال رسول الله ﷺ للجيش: لا تبرحوا حتى أؤذنكم، وقال: لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال. وقال لأمير الرماة: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا»، وقال للرماة: «الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم»[3].

سيطر المسلمون على المرتفعات وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجه أُحدًا وظهره إلى المدينة، وأصبحت مهمة الرماة في النقاط التالية: احتلال الموقع، حماية المسلمين من الخلف، صد الخيل عن المسلمين[4].

د- تسوية الصفوف وتنظيم الجيش: تقدم رسول الله ﷺ وأصحابه وصفهم على هيئة صفوف الصلاة، وجعل رسول الله ﷺ يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف، ويبوئ أصحابه للقتال يقول: تقدم يا فلان، وتأخر يا فلان، فهو يقومهم...، حتى استوت الصفوف[5]. فوضع ﷺ في مقدمة الصفوف الأشداء، لكي يفتحوا الطريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرسول ﷺ بهذا الأسلوب؛ لأنه أبلغ في قتال الأعداء[6].

هـ- عدم القتال إلا بأمر من القائد: قال الطبري: فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال»[7]. وفي هذا التوجيه فائدة مهمة وهي توحيد القيادة والمسئولية؛ لأنه ﷺ أدرى بالمصلحة.

* * *

---

(١) انظر: الإصابة (٢/ ٢٧٨)

(٢) انظر: البخاري في المغازي، باب غزوة أحد، رقم ٤٠٤٣.

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٦).

(٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٩٠.

(٥) انظر: الواقدي المغازي، (١/ ٢١٩).

(٦) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج، ص٣٥٥، ٣٥٦.

(٧) انظر: تاريخ الطبري، (٢/ ٥٠٧).

المبحث الثاني
في قلب المعركة

أولاً: بدء القتال واشتداده وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال حاول أبو سفيان أن يوجد شرخًا وتصدعًا في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: (خلوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتال) فردوا عليه بما يكره[١].

ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميل خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب، حيث حاول أبو عامر الراهب أن يستزل بعض الأنصار فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثم قاتلهم قتالاً شديدًا، ورماهم بالحجارة[٢].

وبدأ القتال بمبارزة بين علي بن أبي طالب ﷺ وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أحد، يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مرارًا فلم يخرج إليه أحد فقال: يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ فخرج إليه علي بن أبي إليه طالب ﷺ فقال له علي ﷺ: والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلكَ الله بسيفي إلى النار أو يعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه علي فقطع رجله، فوقع على الأرض فانكشفت عورته، فقال: يا ابن عمي، أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهز عليه، فكبر رسول الله، وقال لعلي بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه[٣].

والتحم الجيشان واشتد القتال، وشرع رسول الله يشحذ في همم أصحابه ويعمل على رفع معنوياتهم وأخذ سيفًا، وقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا، قال: «فمن يأخذه بحقه» قال: فأحجم القوم، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني» قال: أنا آخذه بحقه، فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، أي يمشي مشية المتكبر، وحين رآه رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ١٢٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٩٢).
(٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٧، ٤٩٨)، تفسير الطبري (٧/ ٢١٨).

يتبختر بين الصفين قال: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[1].

وهذا الزبير بن العوام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أحد قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه وسألته إياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع، فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي	ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول؟[3]	أضرب بسيف الله والرسول[2]

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحًا إلا ذفف[4] عليه فجعل كل منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها فقلت: الله ورسوله أعلم[5]. قال ابن إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنسانا يحمِّس الناس حماسًا شديدًا فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة[6].

ثانيًا: مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ:

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين وكان شعارهم: أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجل فيه أبطال الإسلام صورًا رائعة في البطولة والشجاعة[7]، وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأبو دجانة وأبي طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير[8]، وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[9]، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٧٠.
(٢) الكيول: مؤخرة الصفوف.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٧).
(٤) ذفف: أجهز عليه.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٨).
(٦) نفس المصدر (٤/ ١٨).
(٧) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٣٠٣).
(٨، ٩) نفس المصدر (١/ ٣٠٣).

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها ورأوا الغنائم في أرض المعركة جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم ظنًا منهم أن المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جبير: (الغنيمة الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة[1]، ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولا يعبأون بقول أميرهم، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرماة في ذلك الموقف فقال: (فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعًا فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ فهم كذا وشبَّك بين أصابع يديه، والتبسوا فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموقع على أصحاب النبي ﷺ فضرب بعضهم بعضًا، والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير)[2].

ورأى خالد بن الوليد وكان على خيالة المشركين الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتل من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان والد حذيفة بن اليمان خطأ، وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قُتل[3]، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريبًا من النبي ﷺ فرموه بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته[4] وشجه[5] في وجهه الكريم فأثقله وتفجر الدم[6] منه ﷺ.

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير ﷺ حيث كان شديد الشبه برسول الله ﷺ فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمدًا[7] وشاع أن محمدًا قد قتل فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، رقم ٣٠٣٩.
(٢) مسند أحمد (١/ ٢٨٧) رقم ٢٦٠٨.
(٣) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٩٨.
(٤) الرباعية: إحدى الأسنان الأربعة التي تكون بين الثنية والناب.
(٥) الشج: كسر في الرأس.
(٦) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٢٩٤.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).

كيف يفعلون من هول الفاجعة[1]، ففر جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله ﷺ قد مات، ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهود بدر، والذي قال في ذلك: (والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع) وقد صدق في وعده، مر يوم أحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل، وموتوا على ما مات عليه، وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، يعني المشركين، ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استُشهد، فوُجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه[2]. وفي هذا وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]. أما أولئك النفر الذين فروا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي ﷺ لهم بالصمود والثبات فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي ﷺ الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول ﷺ وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى، فأمره النبي بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك[3]، وقد نص القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ثالثًا: خطة الرسول ﷺ في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين والهدف الرئيسي فيه شخص النبي ﷺ، لم يتزحزح عليه الصلاة والسلام من موقفه والصحابة يسقطون واحدًا تلو الآخر بين يديه، وحصر رسول الله ﷺ في قلب المشركين وليس معه إلا تسعة من أصحابه سبعة منهم من الأنصار، وكان الهدف أن يفك هذا الحصار، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدفاع عن رسول الله ﷺ واستشهدوا واحدًا بعد الآخر[4]، ثم

---

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص١٠٠.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠١.
(٣) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١١٢).
(٤) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٤).

قاتل عنه طلحة بن عبيد الله حتى أُثخن وأصيب بسهم شلت يمينه[1]، وأراد النبي ﷺ إلى صخرة فلم يستطع، فقعد طلحة تحته حتى استوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبي ﷺ يقول: «أوجب طلحة»[2]، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ، وكان يناوله النبال ويقول له: «ارم يا سعد، فداك أبي وأمي»[3]، كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة»[4]، وقد كان مترسًا على رسول الله بحجفة، وكان راميًا شديد النزع[5] كسر يومئذ قوسين أو ثلاث، وكان الرجل يمر معه الجعبة[6] من النبل فيقول رسول الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة» ثم يشرف إلى القوم فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت، لا تشرف إلى القوم[7] ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك[8][9].

ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمي بالقوس وأصيبت بجراح كبيرة، وترس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه حتى كثر فيه النبل[10]. والتفَّ حول الرسول ﷺ في تلك اللحظات العصيبة أبو بكر وأبو عبيدة، وقام أبو عبيدة بنزع السهمين من وجه النبي ﷺ بأسنانه، ثم توارد مجموعة من الأبطال المسلمين، حيث بلغوا قرابة الثلاثين يذودون عن رسول الله ﷺ منهم قتادة وثابت بن الدحداح، وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف،والزبير بن العوام.

واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجومًا مضادًا قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف، عاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد[11]، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبي ﷺ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أحد، وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله ﷺ وما أصابهم، رغم نجاحهم في رد المشركين[12]، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيرًا، ثم أفاقوا آمنين مطمئنين قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ

---

(١) البخاري، رقم ٣٧٢٤.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٥.

(٤) المسند والفتح الرباني (٢٢/ ٥٨٩) بإسناده رجاله ثقات.

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٦.

(٦) الجعبة: الكنانة التي تجعل فيها السهام.

(٧) لا تشرف: لا تتطلع.

(٨) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأصاب بها دونك.

(٩) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٦.

(١٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥، ٣٦).

(١١) انظر: السيرة النبوية لمنير الغضبان، ص٤٦٨، ٤٧٠.

(١٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٥).

وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون[١].

أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين وجلدهم وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفوا حول النبي ﷺ؛ ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم[٢].

رابعًا: من شهداء أحد:

أ- حمزة بن عبد المطلب ﷺ سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسد الله حمزة قتالاً ضاريًا، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، وبينما هو على هذه الحالة من الشجاعة والإقدام كمن له وحشي حتى تمكن منه ثم رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، ولندع وحشيًا يخبرنا عن هذا المشهد المؤلم، قال وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، قال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، فلما خرج الناس عام عينين، وعينين جبل بجبال أحد، بينه وبينه واد، خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحادُّ الله ورسوله ﷺ؟ ثم شد عليه، فكان كأمس الذاهب. قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثنته[٣] حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به[٤]، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل[٥] قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني قال: «أنت وحشي؟» قلت: نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟» قال: فخرجت فلما قُبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق[٦]، ثائر الرأس

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٥).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٠٦).
(٣) فأضعها في ثنته: أي في عاتقه.
(٤) ذلك العهد به: كناية عن موته.
(٥) لا يهيج الرسل: أي لا ينالهم منه مكروه.
(٦) أورق: لونه كالرماد.

قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته قال: قال عبد الله ابن الفضل فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود[1].

١- سؤال النبي ﷺ عن مقتل حمزة ﷺ: بعد انتهاء المعركة سأل رسول الله ﷺ أصحابه: من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: «**فانطلق أرناه**» فخرج رسول الله ﷺ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شق بطنه، وقد مُثِّل به، فقال: يا رسول الله، مُثل به والله[2]، وفي رواية (لما بلغ النبي ﷺ قتل حمزة بكى فلما نظر إليه شهق)[3] ووقف بين ظهراني القتلى فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، كفنوهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآنا فاجعلوه في اللحد**»[4].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله ﷺ في أحد تحققت رؤية رسول الله ﷺ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أحد فقال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فلاً[5]، فأولته فلاً يكون فيكم (أي انهزامًا)، ورأيت أني مردف كبشًا، فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، ورأيت بقرًا تذبح، فبقر والله خير، فبقر والله خير» فكان الذي قال رسول الله ﷺ[6].

٢- صبر صفية بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة: قال الزبير بن العوام ﷺ: إنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت تشرف على القتلى، قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم فقال: المرأة المرأة، قال الزبير: فتوسمت أنها صفية قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلدمت[7] في صدري وكانت امرأة جلدة، قالت: إليك عني لا أرض لك، فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك.

قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل فُعل به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وخنى أن يكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر

---

(١) البخاري، المغازي رقم ٤٠٧٢.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٤.

(٤) المصدر السابق، ص٢٨٣.

(٥) الفل: الثلم في السيف.

(٦) انظر: المسند (١/ ٢٧١) برقم ٢٤٤٥.

(٧) لدمت: ضربت ودفعت.

من الآخر فأقرعنا بينهما، فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له[1].

٣- من شعر صفية في بكاء حمزة:

أسـائلة أصـحاب أحـد مخافـةً	بنـات أبـي مـن أعجـم[2] وخيـبر
فقـال الخـبير إن حمـزة قـد ثـوى	وزيـر رسـول الله خـير وزيـر
دعـاه إلـه الحـق ذو العـرش دعـوة	إلى جنـة يحيـا بهـا وسـرور
فـذلك مـا كنـا نرجـي ونرتجـي	لحمـزة يـوم الحشـر خـير مصـير
فـوالله لا أنسـاك مـا هبـت الصـبا	بكـاء وحزنـا محضـري ومسـيري
علـى أسـد الله الـذي كـان مـدرها[3]	يـذود عـن الإسـلام كـل كفـور
فيا ليت شـلوي[4] عنـد ذاك وأعظمـي	لـدى أضـبع تعتـادني ونسـور
أقـول وقـد أعلـى النعـي عشـيرتي	جـزى الله خـيرًا مـن أخ ونصـير[5]

٤- حمزة لا بواكي له: لما رجع رسول الله ﷺ من أحد سمع نساء الأنصار يبكين فقال: «لكن حمزة لا بواكي له» فبلغ ذلك نساء الأنصار فبكين حمزة فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهن يبكين فقال: «يا ويحهن، مازلن يبكين منذ اليوم فليبكين، ولا يبكين على هالك بعد اليوم»[6] وبذلك حرمت النياحة على الميت.

٥- رسول الله ﷺ يسمي غلامًا للأنصار بحمزة: قال جابر بن عبد الله: وُلد لرجل منا غلام، فقالوا: ما نسميه؟ فقال النبي ﷺ: «سموه بأحب الأسماء إليَّ، حمزة بن عبد المطلب»[7] فحمزة متجذر في القلب النبوي، عالق بالذاكرة الكريمة.. ولكن الله سبحانه ينزل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»[8].

٦- فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟[9]: فهذا التوجيه الكريم لا يوجد فيه شيء من المؤاخذة والتأثيم لوحشي، وإنما هو تذكير له بأن رؤيته تجلب له شيئًا من المتاعب

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٨٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).

(٣) مدرها: الذي يدفع عن القوم.

(٤) الشلو: البقية، تعتادني: تتعاهدني.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).

(٦) انظر: صحيح ابن ماجة للألباني (١/ ٢٦٥).

(٧) رواه الحاكم (٣/ ١٩٦) سنده حسن.

(٨) مسلم، كتاب الأدب رقم ٢١٣٢.

(٩) البخاري، المغازي رقم ٤٠٧٢.

النفسية، وتحرك في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بشع بعمه، فتثير عنده حزازات بشرية ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد، مما قد يشغل النبي ﷺ ويقلقه[1]، فأشار عليه ﷺ بأن يغيب وجهه حتى يفقد مصدر التذكير بتلك المصيبة[2]، وفي رواية صحيحة قال وحشي: أتيت النبي ﷺ فقال لي: «وحشي» قلت: نعم، قال: «قتلت حمزة؟» قلت: نعم، الحمد الله الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده، فقالت له قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟ فقلت: يا رسول الله فاستغفر لي، فتفل رسول الله ﷺ في الأرض ثلاثة، ودفع في صدري ثلاثة، وقال: «وحشي، اخرج فقاتل في سبيل الله، كما قاتلت لتصد عن سبيل الله»[3] فهذا من التوجيه الإرشادي النبوي إلى مكفرات ما سلف من الكفر ومحادة الله تعالى ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفي حض من النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثرًا من آثار توجيه النبي ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب ويطهر الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير الناس يعني سيد الشهداء حمزة بن عَبد المطلب، وقتلت شر الناس مسيلمة الكذاب[4].

ب- مصعب بن عمير ﷺ:

قال خباب ﷺ: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[5]، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها[6]، ومن حديث عبد الرحمن بن عوف أنه أتى بطعام وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير، وكان خيرًا مني، فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلا بردة، وقتل حمزة أو رجل آخر خير مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه، إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي[7]. ومن حديث أبي هريرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودعا له ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

---

(١) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٦٠٣).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٤١)
(٣) رواه الطبراني في الكبير، إسناده حسن (٢٢/ ١٣٩) رقم ٣٧٠ نقلا عن صحيح السيرة النبوية، ص٢٨٦.
(٤) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٦٠٢).
(٥) الإذخر: نوع من العشب.
(٦) البخاري في الجنائز، رقم ١٢٨٦.
(٧) البخاري في الجنائز رقم ١٢٧٤، ١٢٧٥.

تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣] ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»[١].

ج- **سعد بن الربيع** ﷺ: هذا الذي استكتمه رسول الله ﷺ خبر مسير قريش، وكان رسول الله ﷺ يحبه، فلما انتهت معركة أحد قال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات»؛ لأن النبي ﷺ قد رأى الأسنة شرعت إليه، فقال أبي بن كعب ﷺ: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال له: «إن رأيت سعد بن الربيع فأقرأه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف يجدك؟» فنظر أبي فوجده جريحًا به رمق، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وقد أنفذت إلى مقاتلي[٢]، وفي رواية صحيحة قال: على رسول الله وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر[٣] يطرف، قال: وفاضت نفسه رحمه الله[٤]. وهذا نصح لله ورسوله في سكرات الموت يدل على قوة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح.

د- **عبد الله بن جحش** ﷺ: قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله، فخلوا في ناحية فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلقِّني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا، قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول صدقت، قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط[٥]. وفي هذا الخبر جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله، وتمنيه ذلك وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه[٦].

هـ- **حنظلة بن أبي عامر** ﷺ **(غسيل الملائكة)**: لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح حنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن

---

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٢٠٠) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٣٢).

(٣) شفر: العين.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٤.

(٥) المصدر السابق، ٢٩٣.

(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٢).

شداد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة» فقال رسول الله ﷺ: «فاسألوا أهله ما شأنه؟» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة[1]، فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك غسلته الملائكة»[2].

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلى بالصبح غدا يريد رسول الله ﷺ ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها، وتعلق بعبد الله بن حنظلة، ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد فولدت له محمد بن ثابت بن قيس[3].

وفي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

١- في تعلق جميلة بنت عبد الله بن أبي بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظية لدى الخطاب، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولدًا ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح أولاً، ثم بما ترجوه من نيله الشهادة، ولقد حصل لها ما أملت به فحملت منه وولدت ولدًا ذكرا سمي عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

٢- في حرص حنظلة القوي على مقارعة أعداء الله الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكن معه من غسل الجنابة.

٣- شجاعته الفائقة تظهر في تصديه لقائد المشركين أبي سفيان بن حرب والقائد غالبًا يكون حوله من يحميه، وهو فارس وحنظلة راجل.

٤- تشريف رباني كريم في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه المزن في صحاف الفضة.

٥- معجزة نبوية في إخبار الصحابة عما قامت به الملائكة من تغسيل، حيث رأى ﷺ

---

(١) أي: سمع منادي رسول الله يدعو للخروج لملاقاة العدو.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٨٩.

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٣).

الملائكة وهي تغسل ولم ير الصحابة ذلك[1].

٦- إذا كان الشهيد جنبًا، غسل، كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر[2].

و- **عبد الله بن عمرو بن حرام** ﷺ: أصر عبد الله بن عمرو بن حرام على الخروج في غزوة أحد، فخاطب ابنه جابر بقوله: يا جابر، لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي[3].

وقال لابنه أيضا: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن على دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيرًا[4]. وخرج مع المسلمين ونال وسام الشهادة في سبيل الله، فقد قتل في معركة أحد، وهذا جابر يحدثنا عن ذلك حيث يقول: لما قُتل أبي يوم أحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفعتموه»[5].

وقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً ودينًا، قال ﷺ: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ما كلَّم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحًا، يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك فقال: يا عبدي، تمنَّ عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية، فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب.. فأبلغ من ورائي»[6]. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤية في منامه قبل أحد، قال: رأيت في النوم قبل أحد، مبشر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء، قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هذه الشهادة يا أبا جابر[7]، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنه.

ز- **خيثمة أبو سعد** ﷺ: قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا، وقد

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٤).

(٣) البخاري رقم ٤٠٩٧.

(٤) البخاري رقم ١٣٥١.

(٥) البخاري، رقم ١٢٤٤.

(٦) صحيح ابن ماجة للألباني، رقم ١٩٠ (٢٨٠٠).

(٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).

والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيدًا[1].

ح- **وهب المزني وابن أخيه رضي الله عنهما:** أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مزينة، فوجدا المدينة خلوًا فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثرًا بعد عين فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع. فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع المزني، ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقال: «قم، وأبشر بالجنة» فقام المزني مسرورًا يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين، حتى خرج من أقصاهم ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم ارحمه» ثم يرجع فيهم، فما زال كذلك وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومُثل به أقبح المثلة يومئذ، ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب ميتة أموت لما مات عليها المزني[2].

وكان بلال بن الحارث المزني يحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مزينة[3]، فجئت سعدًا حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال، قال: مرحبًا بك، من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس، قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أحد؟ قال: ابن أخيه، قال سعد: مرحبًا وأهلاً وأنعم الله بك عينًا، ذلك الرجل شهدت منه يوم أحد مشهدًا ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في الناس يتوسمهم[4] يقول: «من لهذه الكتيبة؟» كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله، كل ذلك

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).

(٢) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٧٧).

(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٧).

يرده فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله ﷺ: «قم وأبشر بالجنة» قال سعد: وقمت على أثره يعلم الله أني أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه -رحمه الله- وودت والله أني كنت أصبت يومئذ معه، ولكن أجلي استأخر، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اختَرْ في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهد لرأيت رسول الله ﷺ واقفًا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك فإني عنك راضٍ»، ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام ليشق عليه على قبره حتى وُضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمد رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمره، وأدركه فيها طولا، وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه، وهو في لحده، ثم انصرف، فما حال أموت عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزني[1].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزني وابن أخيه تركا الأغنام بالمدينة والتحقا بصفوف المسلمين وحرصا على نيل الشهادة، فأكرمهما الله بها، وقد كانت تلك الملحمة التي سطرها المزني محفورة في ذاكرة الصحابة، فهذا سعد بن أبي وقاص يتذكرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريبا على غزوة أحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزني ويتمنى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزني.

ط- عمرو بن الجموح ﷺ: كان عمرو بن الجموح ﷺ أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، وهم خلاد ومعوذ ومعاذ وأبو أيمن، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه وللخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله تعالى فلا جهاد عليك» وقال لبنيه: «ما عليكم ألا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة» فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم لا تردني إلى أهلي خائبًا فقتل شهيدًا.

وفي رواية أتى عمرو بن الجموح ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة، وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر بهم رسول الله ﷺ فجُعلوا في قبر واحد[2].

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٧٧).

(٢) انظر: المسند (٥/ ٢٩٩)، السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠١).

وفي هذا الخبر دليل على أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج[1].

وفيه دليل على شجاعة عمرو بن الجموح ورغبته في نيل الشهادة وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

ي- أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش -رضي الله عنهم-: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش في الآطام[2] مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمء[3] حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد[4]، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟ فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا، قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ[5] خيرًا. وفي هذا الخبر، يظهر أثر الإيمان في نفوس الشيوخ الكبار الذين عذرهم الله في الجهاد وكيف تركوا الحصون وخرجوا إلى ساحات الوغى طلبًا للشهادة وحبًا وشوقًا للقاء الله تعالى، وفيه موقف عظيم لحذيفة، حيث تصدق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة لكونهم قتلوا والده خطأ، وفيه أيضًا: أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد يظنونه كافرًا، فعلى الإمام ديته من بيت المال؛ لأن رسول الله ﷺ أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الدية، وتصدق بها على المسلمين[6].

ك- الأمور بخواتيمها: إن الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة في هذا الدين، فقد وقع حادثان يؤكدان هذا الأمر، وفيهما عظة وعبرة لكل مسلم متعظ ومعتبر[7].

١- شأن الأصيرم ﷺ: واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وروى قصته أبو هريرة ﷺ: أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأُحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأحد، فقال: أين بنو أخيه؟

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٢) الآطام: الحصون.
(٣) ظمء حمار: أي مقدار ما بين شربتي حمار.
(٤) أي نموت اليوم أو غدًا.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٨).
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٧) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١١٧.

قيل: بأحد: فسأل عن قومه فقيل: بأحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمته، وركب فرسه فعدا حتى دخل في عرض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذ هم به، فقالوا: والله إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله، وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة». وقيل: مات فدخل الجنة وما صلى من صلاة، فقال النبي ﷺ: «عَمِل قليلاً وأجر» [1] وكان أبو هريرة يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ قال: هو أصيرم بن عبد الأشهل[2].

٢- شأن مخيريق: لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين، جمع مخيرقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ: مخيريق خير يهود[3].

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي[4] أن مخيريق مات مسلمًا، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقبًا على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مخيريق خير يهود» قال: ومخيريق مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النصارى، ولا خير اليهود؛ لأن أفعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنهم نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ثم عربت الذال دالا[5]. وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبد الله الشقاوي في كتابه (اليهود في السنة المطهرة) وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه[6].

---

(١) انظر: البخاري، الجهاد، رقم ٢٨٠٨. (٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٠، ١٠١).

(٣) انظر: المغازي للواقدي، (١/ ٢٦٣)، والسيرة لابن هشام (٣/ ٩٩).

(٤) انظر: تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٧٠)، الإصابة (٣/ ٣٩٣).

(٥) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٦) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٠٦).

ل- إنما الأعمال بالنيات: كان ممن قاتل مع المسلمين يوم أحد رجل يدعى قزمان، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له: إنه من أهل النار، فتأخر يوم أحد فعيرته نساء بني ظفر، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكت كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغيداق، هنيئًا لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلى على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1]. وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وإنه من قاتل حمية عن قومه أو ليقال شجاع ولم تكن أعماله لله تعالى لا يقبل الله منه.

خامسًا: من دلائل النبوة:

١- عين قتادة بن النعمان ﷺ: أصيبت عين قتادة ﷺ حتى سقطت على وجنتيه فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وأصبحت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[2]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- فسأله من أنت؟ فقال له مرتجلا:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حسنها عينًا ويا حسن ما خد

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته[3].

٢- مقتل أبي بن خلف: كان أبي بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي العود فرسًا أعلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**» فلما كان يوم أحد، وأسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لا نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ «دعوه» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٩)، غزوة أحد دراسة دعوية، ص١١٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٨).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥).

ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشعراء[1] عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ [2] منها عن فرسه، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني، فمات عدو الله بسرف[3]، وهم قافلون به إلى مكة[4].

وفي هذا الخبر مثل رفيع على شجاعة رسول الله ﷺ فقد كان أبي بن خلف مدججًا بالسلاح ومتدرعًا بالحديد الواقي، ومع ذلك استطاع رسول الله ﷺ أن يطعنه بالرمح من فرجة صغيرة في عنقه بين الدرع والبيضة، وهذا يدل على قدرة رسول الله القتالية ودقته في إصابة الهدف، وفي هذا الخبر معجزة للنبي فقد أخبر أبيًا بأنه سوف يقتله بمشيئة الله وتم ذلك، وفي الخبر عبرة في إيمان المشركين بصدق النبي ﷺ وأنه إذا قال شيئًا وقع، فقد كان أبي بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم وعبادة أهوائهم[5]. وقد خلد حسان بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أبي يوم بارزه الرسول

أتيت إليه تحمل رم عظم ... وتوعده وأنت به جهول[6]

* * *

(١) الشعراء: ذباب له لدغ.

(٢) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

(٣) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣، ٩٤).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٦٩).

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٤).

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولا: حوار أبي سفيان مع الرسول ﷺ وأصحابه:

قال البراء ﷺ: وأشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء القوم قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر ﷺ نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل[1]، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قال: قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني[2]. وفي رواية قال عمر: (لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار)[3].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبهم قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيرًا له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر، وردوا عليه بشجاعة[4].

وفي هذا يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشركه، تعظيمًا للتوحيد. وإعلامًا بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده. ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي أنه نهاهم عن إجابته، وقال: لا تجيبوه؛ لأن كَلْمَهم لم يكن برد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدو الله، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال، ما يؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم

---

(١) اعل هبل: ظهر دينك.

(٢) البخاري، المغازي، رقم ٤٠٤٣، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

(٣، ٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

الخوف منهم وقد أبقى الله لهم ما يسؤوهم منهم، وكـان في الإعـلام ببقـاء هـؤلاء الثلاثـة بعد ظنه، وظن قومه أنهم قـد أصيبوا مـن المصـلحة، وغـيظ العـدو وحزبـه، والفـت في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحدًا، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومـه آخر سهام العدو كيده، فصبر له النبي ﷺ حتى استوفى كيـده، ثـم انتـدب لـه عمـر فـرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانيًا أحسن، وأيضا فإن في تـرك إجابته حين سأله عنهم إهانة له، وتصغيرًا لشأنه، فلما منته نفسه مـوتهم، وظـن أنهـم قـد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر مـا حصـل، كـان في جوابـه إهانـة لـه، وتحقـير وإذلال، ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبي ﷺ «لا تجيبـوه» فـإن إنمـا نهـى عـن إجابتـه حـين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكـل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانيًا[1].

ثانيًا: تفقد الرسول ﷺ الشهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ذهب الرسول ﷺ ليتفقد أصـحابه رضـي الله عنهم، فمر على بعضهم، ومنهم حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وحنظلـة بـن أبي عامر، وسعد بن الربيع والأصيرم، وبقية الصحابة رضي الله عنهم، فلما أشرف علـيهم رسول الله ﷺ قال: «أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله بعثه يـوم القيامة، يدمي جرحه، اللون لون دم، والريح ريح المسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعًـا للقـرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر»[2].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاري: أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟» فـإذا أشـير لـه إلى واحـد قدمـه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصـل علـيهم، ولم يغسلوا[3].

وأمر رسول الله ﷺ أن يدفنوا حيث صرعوا، وأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة[4].

ولما رأى رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب، وقد مُثّل به حـزن حزنًـا شـديدًا، وبكـى حتى نشغ[5] من البكاء[6] وقال ﷺ: «لولا أن تحزن صفية، ويكون سـنة مـن بعـدي لتركتـه

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٩).

(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٠٧٩.

(٤) سنن النسائي السيوطي وحاشية السندي، كتاب الجنائز، باب أين يدفن الشهيد (٤/ ٧٩) رقم ٢٠٠٦.

(٥) النشغ: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي.

(٦) انظر: مختصر سيرة الرسول، لمحمد عبد الوهاب، ص٣٣١.

حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن ظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب[1]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. لقد ارتكب المشركون صورًا من الوحشية، حيث قاموا بالتمثيل في قتلى المسلمين فبقروا بطون كثير من القتلى وجدعوا أنوفهم، وقطعوا الآذان ومذاكير بعضهم[2]. ومع ذلك صبر رسول الله ﷺ وأصحابه واستجابوا لتوجيه المولى عز وجل، فعفا وصبر وكفَّر عن يمينه، ونهى عن المثلة.

روى ابن إسحاق بسنده عن سمرة بن جندب قال: (ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة)[3].

ثالثًا: دعاء الرسول ﷺ يوم أحد:

صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الظهر قاعدًا لكثرة ما نزف من دمه، وصلى وراءه المسلمون قعود، وتوجه النبي ﷺ بعد الصلاة إلى الله بالدعاء والثناء على ما نالهم من الجهد والبلاء، فقال لأصحابه: «استووا، حتى أثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفًا، ثم دعا بهذه الكلمات الدالة على عمق الإيمان[4]، فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسولك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق» [5] ثم ركب فرسه ورجع إلى المدينة[6].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٦).

(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١٠٤.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢١٠).

(٥) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٢١، ١٢٢) وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٤).

وهذا أمر عظيم شرعه رسول الله ﷺ لأمته لكي يطلبوا النصر والتوفيق من رب العالمين، وبين لأمته أن الدعاء مطلوب في ساعة النصر والفتح، وفي ساعة الهزيمة لأن الدعاء مخ العبادة، كما أنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلقة بخالقها، فينزل عليها السكينة، والثبات والاطمئنان ويمدها بقوة روحية عظيمة، فترتفع المعنويات نحو المعالي وتتطلع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة، يتخذ النبي ﷺ أهبته وينظم المسلمين صفوفًا، لكي يثني على ربه عز وجل، إنه لموقف عظيم، يجلي إيمانًا عميقًا، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب العالمين الفعَّال لما يريد، فهو القابض والباسط، المعطي والمانع، لا راد ولا معقب لحكمه.

إن هذا الموقف من أعظم مواقف العبودية التي تسمو بالعابدين، وتجل المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء[1].

رابعًا: معرفة وجهة العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم» قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة[2]. فرجع علي ﷺ وأخبر رسول الله بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدة دروس وعبر منها:

يقظة الرسول ﷺ، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور، وظهور قوته المعنوية العالية، ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النبي ﷺ بعلي ﷺ ومعرفته بمعادن الرجال، وفيه شجاعة علي ﷺ؛ لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع في محاولة قتله[3]، ونلحظ أن النبي ﷺ أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت، تفقد خلالها الجرحى والشهداء، وأمر بدفنهم ودعا ربه وأثنى عليه سبحانه، وأرسل عليًا ليتتبع خبر القوم، كل ذلك من أجل أن يحافظ على النصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أحد، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنصر أسبابًا، وللهزيمة أسبابًا، فمن أخذ بأسباب النصر، وصدق التوكل على الله

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله، ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤١).

(٣) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص٩٥، ٩٦.

سبحانه وتعالى حقيقة التوكل نال النصر بإذن الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

ويتجلى فقه النبي ﷺ في ممارسة سنة الأخذ بالأسباب في غزوة حمراء الأسد.

خامسًا: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الروايات: أن النبي ﷺ تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه حتى بعد رجوعهم إلى مكة، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الروحاء[١] قال أبو سفيان: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ[٢]. وتفيد هذه الرواية خبر استطلاع الرسول ﷺ أعداءه حتى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئن على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كان تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره يوم أحد من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد يوم الأحد سادس عشر من شوال: أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وألا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهبًا للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم[٣]، وقد استجاب أصحاب النبي ﷺ لنداء الجهاد حتى الذين أصيبوا بالجروح، فهذا رجل من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أحدًا أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحًا منه، فكان إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة (نوبة)، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[٤]. وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، واقترب بجنوده من جيش المشركين فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نار[٥].

---

(١) الروحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلومترًا في طريق مكة.

(٢) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٢١) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز.

(٣،٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٠).

(٥) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١٤٤ نقلا عن الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٤٣).

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، فقد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة[1]. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتًا من شعر:

قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتي	إذ سالت الأرض بالجرد[2] الأبابيل
تردي[3] بأسد كرام لا تنابلة[4]	عند اللقاء ولا ميل[5] معازيل[6]
فظلت عدوًا أظن الأرض مائلة	لما سمو برئيس غير مخذول
فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم	إذا تغطمطت البطحاء بالجبل[7]
إني نذير لأهل البسل ضاحية	لكل ذي أُربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش[8] قنابله	وليس يوصف ما أنذرت بالقيل[9]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وحاول أبو سفيان أن يغطي انسحابه هذا بشن حرب نفسية على المسلمين، لعله يرهبهم فأرسل مع ركب عبد القيس -وكانوا يريدون المدينة للميرة- رسالة إلى رسول الله ﷺ مفادها، أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود، وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيبًا عندما يأتوه في سوق عكاظ، ومر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون: حسبنا الله ونعم الوكيل[10]. واستمر المسلمون في معسكرهم، وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).

(٢) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسي قصير الشعر، والأبابيل: الفرق الكثيرة.

(٣) تردى: تسرع.

(٤) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير.

(٥) الميل: جمع أميل وهو الجبان.

(٦) معازيل: جمع معزال وهو من لا رمح له.

(٧) تغطمطت: اضطربت وثارت.

(٨) وخش: ردئ.

(٩) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥١)

(١٠) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٢٢٦.

بانتصار المشركين، وهزوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجل ظواهرها[1] بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥] ووقع في أسر النبي ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحي الشاعر فقتل صبرًا؛ لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده عندما منَّ عليه ببدر وأطلقه، فعاد فقاتل في أحد، وقد حاول أبو عزة أن يتخلص من القتل، وقال: يا رسول الله أقلني، فقال رسول الله ﷺ: «لا والله، لا تمسح عارضيك[2] بمكة بعدها، وتقول: خدعت محمدًا مرتين، اضرب عنقه يا زبير» [3] فضرب عنقه، فقال النبي ﷺ حينئذ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» [4] فصار هذا الحديث مثلا ولم يسمع قبل ذلك.

وبعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية؛ لأن هذا الشاعر من المفسدين في الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن في المن عليه تمكينًا له من أن يعود حربًا على المسلمين.

ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي[5].

وأما عدد القتلى من المسلمين في أحد فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيدًا من المسلمين، ويؤيد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أنها نزلت تسلية للمؤمنين عمن أصيب منهم يوم أحد، قال ابن عطية رحمه الله: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفرًا، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدر سبعين وأسروا سبعين[6]، أما عدد الذين قتلوا يوم أحد من المشركين فاثنان وعشرون قتيلا[7]. كان خروج رسول الله ﷺ لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد يهدف لتحقيق مجموعة من المقاصد المهمة منها:

١- ألا يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الذين خرجوا يوم أحد هو الشعور بالهزيمة.

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص١٤٢.

(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه، لسان العرب (٢/ ٧٤٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٦).

(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المرء (٧/ ١٣٤) رقم ٦١٣٣.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣)

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٤١١).

(٧) مرويات غزوة أحد للباكري، ص٣٦٧، ٣٦٩.

٢- إعلامهم أن لهم الكرة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضعف والفشل واستجابوا لدعوة الله ورسوله.

٣- تجرئة الصحابة على قتال أعدائهم.

٤- إعلامهم أن ما أصابهم في ذلك اليوم إنما هو محنة وابتلاء اقتضتها إرادة الله وحكمته وأنهم أقوياء، وأن خصومهم الغالبين في الظاهر ضعفاء[١].

كما أن في خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم، حيث خرج ﷺ بجنوده إلى حمراء الأسد، ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران فكانت تشاهد من مكان بعيد وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى خيل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لا طاقة لهم به فانصرفوا، وقد ملأ الرعب أفئدتهم[٢]. قال ابن سعد: (ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكبت الله تعالى بذلك عدوهم)[٣].

سادسًا: مشاركة نساء المسلمين في معركة أحد:

كانت غزوة أحد أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ في سقي المحاربين وتضميد الجرحى، وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول ﷺ، وممن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأم عمارة، وحمنة بنت جحش الأسدية، وأم سليط، وأم سليم، ونسوة من الأنصار[٤]، قال ثعلبة بن أبي مالك ﷺ: (إن عمر بن الخطاب قسم مروطًا بين نساء المدينة، فبقي مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر ﷺ: أم سليط أحق به من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ، فإنها كانت تزفر[٥] لنا القرب يوم أحد[٦]".

أ- سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنس ﷺ قال: (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥١٩).

(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص٥١.

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٩)

(٤) مسلم، كتاب الجهاد، باب غزو النساء، رقم ١٧٧٩.

(٥) تزفر: تحمل القرب مملوءة بالماء.

(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٠٧١.

بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهن تنقزان[1] القرب، وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم[2].

وقال كعب بن مالك‌ﷺ: رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد، حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وكانت أم أيمن تسقي الجرحى[3].

ب- مداواة الجرحى ومواساة المصابين:

عن أنس بن مالك ﷺ قال كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى[4].

وأخرج عبد الرزاق عن الزهري: كان النساء يشهدن مع النبي ﷺ المشاهد ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى[5]. وعن الربيع بنت معوذ قالت: كنا مع النبي ﷺ نسقي القوم، ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة، وفي رواية: كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة[6]. وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد ﷺ وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله، ومن كان يسكب الماء وبما دووي، قال: كانت فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعلي يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم[7].

ج- الدفاع عن الإسلام ورسوله ﷺ بالسيف:

لم تقاتل المشركين يوم أحد إلا أم عمارة نسيبة المازنية -رضي الله عنها-، وهذا ضمرة ابن سعيد يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحدًا تسقي الماء قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان» وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا، فلما حضرتها

---

(١) تنقزان: أي تحملان وتقفزان بها وثبا.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد واليسر، باب غزو النساء رقم ٢٨٨٠.

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٤٩).

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء، رقم ١٨١٠.

(٥) البخاري فتح الباري لابن حجر (٦/ ٩٢) عند حديث رقم ٢٨٨٠.

(٦) البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم ٢٨٨٢، ٢٨٨٣.

(٧) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٠٧٥.

الوفاة كنت فيمن غسلها، فعددت جراحها جرحًا جرحًا فوجدتها ثلاثة عشر جرحًا، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها -وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنة- ثم نادى منادي النبي ﷺ إلى حمراء الأسد فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثنا ليلنا نكمد الجراح حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني[1] -أخو أم عمارة- يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها فسر النبي ﷺ بذلك[2]. وقد علق الأستاذ حسين الباكري عن مشاركة نسيبة بنت كعب في القتال فقال: وخروج المرأة للقتال مع الرجل لم يثبت في ذلك منه شيء غير قصة نسيبة، وقتال نسيبة إنما كان اضطراريًا حين رأت أن رسول الله أصبح في خطر حين انكشف عنه الناس، فأم عمارة كانت في موقف أصبح حمل السلاح واجبًا على من يقدر على حمله رجلا كان أو امرأة[3].

وعلق الدكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدالة في مشاركة النساء في أحد بقوله: وهذه الآثار تدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة لمداواة الجرحى وخدمتهم إذا أمنت فتنتهن مع لزومهن الستر والصيانة، ولهن أن يدافعن عن أنفسهن بالقتال إذا تعرض لهن الأعداء، مع أن الجهاد فرض على الرجال وحدهم إلا إذا داهم العدو ديار المسلمين فيجب قتاله من الجميع رجالا ونساء[4].

وأما الأستاذ محمد أحمد باشميل فقد قال: وقد كانت معركة أحد أول معركة قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين في الإسلام، ومن الثابت أن امرأة واحدة فقط اشتركت في هذه المعركة، وهي تدافع عن رسول الله ﷺ، كما أنه من الثابت أيضًا أن المرأة التي اشتركت في معركة أحد، لم تخرج بقصد القتال فهي لم تكن مجندة فيها كالرجال، وإنما خرجت لتنظر ما يصنع الناس لتقوم بأية مساعدة يمكنها القيام بها للمسلمين كإغاثة الجرحى بالماء وما شابه ذلك، يضاف إلى هذا أن هذه المرأة التي خاضت معركة أحد هي امرأة قد تخطت سن الشباب، كما أنها لم تخرج إلى المعركة إلا مع زوجها وابنيها الذين كانوا من الجند الذين قاتلوا في المعركة، يضاف إلى هذا الرصيد الهائل الذي لديها من المناعة الخلقية والتربية الدينية، فلا يقاس على هذه الصحابية الجليلة مجندات هذا الزمان اللواتي يرتدين لباس الميدان وعنصر الإغراء والفتنة هو أهم عنصر يتميزن به ويحرصن على إظهاره للرجال فأين الثرى من الثريا؟

---

(١) أخو أم عمارة: انظر الذهبي سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨).

(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٣) انظر: مرويات غزوة أحد، ص٢٥٤.

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١).

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحد من رجال هذا الزمان من ناحية الشهامة والاستقامة والعفة والرجولة، فكل المحاربين الذين اشتركت معهم امرأة في معركة أحد كانوا صفوة الأمة الإسلامية ورمز نبلها وشهامتها وعنوان رجولتها واستقامتها، فلا يصح مطلقًا جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أحد قاعدة تقاس عليها (من الناحية الشرعية) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر لتقاتل بجانب الرجل (كعنصر أساسي من عناصر الجيش)، فالقياس في هذه الحالة قياس مع الفارق وهو قياس باطل قطعًا[1].

سابعًا: دروس في الصبر تقدمها الصحابيات للأمة:

أ- صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لما استُشهد أخوها حمزة بن عبد المطلب ﷺ في أحد وجاءت لتنظر إليه وقد مثل به المشركون؛ فجدعوا أنفه وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مُثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير بن العوام ﷺ إلى رسول الله فأخبره بذلك، قال: «خلِّ سبيلها» فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت[2]، واستغفرت له[3].

ب- حمنة بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه -رضي الله عنهم- ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنة: «احتسبي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «أخوك عبد الله بن جحش» قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئًا له الشهادة، ثم قال لها: «احتسبي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطلب» قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئًا له الشهادة، ثم قال لها: «احتسبي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «زوجك مصعب بن عمير»، قالت: واحزناه، وصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان» لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: «ولم قلت هذا؟» قالت: يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى

---

(١) انظر: غزوة أحد، محمد باشميل، ص١٧١: ١٧٣.

(٢) استرجعت، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٨).

عليهم من الخلف[1]. فتزوجت طلحة بن عبيد الله فولدت منه محمدًا وعمران[2] وكان محمد بن طلحة أوصل الناس لولدها[3].

ج- المرأة الدينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[4]، تريد صغيرة، وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

د- أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت عبيد الخزرجية رضي الله عنها:

خرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله: «مرحبًا بها» فدنت حتى تأملت رسول الله فقالت: أما إذا رأيتك سالمًا، فقد أشوت[5] المصيبة، فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: «يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا، وهم اثنا عشر رجلاً، وقد شفعوا في أهليهم» قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خُلفوا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خُلفوا»[6].

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٧)، غزوة أحد دراسة دعوية، ص٢٣٦.

(٢) انظر: الإصابة (٨/ ٨٨) رقم ١١٠٦٠.

(٣) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١٠٩.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٨).

(٥) أشوت: صارت صغيرة خفيفة.

(٦) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣١٥، ٣١٦).

المبحث الرابع

بعض الدروس والعبر والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أحد وصفًا دقيقًا، وكان التصوير القرآني للغزوة أقوى حيوية ووضوحًا من الروايات التي جاءت في الغزوة، كما أن أسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة، والمسكنة والواعظة كان رائعًا وقويًا، فبين القرآن الكريم نفوس جيش النبي ﷺ، وهذا تميز لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عما جاء في كتب السيرة، فسلط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم، والناظر عموما في منهج القرآن في التعقيب على غزوة أحد، يجد الدقة والعمق والشمول.

يقول سيد قطب: الدقة في تناول كل موقف، وكل حركة، وكل خالجة، والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث. كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجًا عميقًا عنيفًا، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، والتعقيب فهو وصف حي، يستحضر المشاهد، كما لو كانت تتحرك، ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ، والإيحاء المثير[1].

إن حركة النبي ﷺ في تربية الأمة وإقامة الدولة والتمكين لدين الله، تعتبر انعكاسًا في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم التي سيطرت على مشاعره، وأفكاره وأحاسيسه ﷺ، ولذلك نجد أن النبي ﷺ في علاجه لأثر الهزيمة في أحد تابع للمنهج القرآني الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النقاط المهمة في هذا المنهج.

أولا: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٩].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله سبحانه وتعالى لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محنة غزوة بدر، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم[2].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٣٢).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٠).

قال القرطبي: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين[1].

ففي الآيات السابقة دعوة للتأمل في مصير الأمم السابقة التي كذبت بدعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره. وجاء التعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى التعجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأن هؤلاء المكذبين مكن الله لهم في الأرض ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن؛ لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

ثانيًا: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤٣].

بيَّن الله -سبحانه- لهم أن الجروح والقتلى يجب ألا تؤثر في جسدهم واجتهادهم في جهاد العدو؛ وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى[3].

وقال صاحب الكشاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا[4]. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل المؤمنون يوم أحد، اتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله ﷺ يوم بدر المشركين فجعل الدولة عليهم[5]. وقد ذكر الله تعالى أربع حكم لما حدث للمؤمنين في غزوة أحد وهي: تحقق علم الله تعالى وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٦).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩١).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٤).

(٤) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٤٦٥).

(٥) انظر: تفسير الرازي (٤/ ١٠٥).

ومحق الكافرين واستئصالهم رويدًا رويدًا[1].

ثالثًا: كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وقال في أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي هذا حكمة عملية وتربية قرآنية يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه[2].

رابعًا: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمدًا قد قتل، فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال[3].

وضرب الله لهم مثلا بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعة كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريض بالمسلمين الذين أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلا للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] وهذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم -مع كونهم ربانيين- هضم لها واعتراف منهم بالتقصير

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٩).

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص١٣٧.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠).

ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدم على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم النصر عن زكاة وطهارة وخضوع، وفي هذا تعليم للمسلمين إلى أهمية التضرع، والاستغفار وتحقيق التوبة. وتظهر أهمية ذلك في إنزال النصر على الأعداء ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى الله، وإحسانهم في موقف الجهاد، وكانوا بذلك مثلا يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخص الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده .(١)

خامسًا: مخالفة ولي الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ ووقوعهم في الخطأ الفظيع الذي قلب الموازين، وأدى إلى الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسلمين. ولكي نعرف أهمية الطاعة لولي الأمر، نلحظ أن انخذال عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين لم يؤثر على المسلمين، بينما الخطأ الذي ارتكبه الرماة الذين أحسن الرسول ﷺ تربيتهم، وأسند لكل واحد منهم عملا، ثم خالفوا أمره ﷺ كان ضرره على المسلمين عامة، حيث سلط الله عليهم عدوهم، وذلك بسبب عصيان الأوامر، ثم اختلطت أمورهم وتفرقت كلمتهم، وكاد يُقضى على الدعوة الإسلامية وهي في مهدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا لأوامر الرسول ﷺ، وانقادوا لتعليمات قائدهم وأميرهم عبد الله بن جبير ﷺ، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره ﷺ ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة(٢) رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

يقول الشيخ محمد بن عثيمين: (ومن آثار عدم الطاعة ما حصل من معصية بعض الصحابة رضي الله عنهم، والنبي ﷺ بين أظهرهم، وهم يجاهدون في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، والذي حصل أنه لما كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرماة أن المشركين انهزموا تركوا الموضع الذي أمرهم النبي ﷺ ألا يبرحوه، وذهبوا مع الناس، وبهذا كر العدو عليهم من الخلف، وحصل ما حصل من الابتلاء والتمحيص للمؤمنين، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٤).

(٢) انظر: غزوة أحد دارسة دعوية، ص٢٠٧- ٢٠٩.

الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] هذه المعصية التي فات بها نصر انعقدت أسبابه، وبدأت أوائله، هي معصية واحدة والرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟ ولهذا نقول: إن المعاصي من آثارها أن الله يسلط بعض الظالمين على بعض بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النصر والعزة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم[١].

سادسًا: خطورة إيثار الدنيا على الآخرة:

وردت نصوص عديدة من آيات وأحاديث تبين منزلة الدنيا عند الله وتصف زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذر من الحرص عليها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد حذر الرسول الكريم ﷺ أمته من الاغترار بالدنيا، والحرص الشديد عليها في أكثر من موضع، وذلك لما لهذا الحرص من أثره السيئ على الأمة عامة وعلى من يحملون لواء الدعوة خاصة ومن ذلك:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٢] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدنيا في غزوة أحد.

قال ابن عباس ﷺ: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: (أدركوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم) وقال بعضهم: (لا نريم[٣] حتى يأذن لنا النبي ﷺ)[٤] فنزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال الطبري: قوله سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة، قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد[٥] ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.

إن الذي حدث في أحد عبرة عظيمة للدعاة وتعليمًا لهم بأن حب الدنيا قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز

---

(١) انظر: الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، محمد بن العثيمين نقلا عن غزوة أحد، ص٢١١.

(٢) مسلم، رقم ٢٧٤٢.

(٣) لا نريم: لا نبرح المكان.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٤٧٤).

بنعيمها، ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر الرسول ﷺ الصريحة بتأويل ساقط، يرفعه هوى النفس وحب الدنيا، فيخالفون الشرع وينسون المحكم من أوامره، كل هذا يحدث ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية، وعلى رأسها حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها، حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها[1].

سابعًا: التعلق والارتباط بالدين:

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان، ألا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر، عن القتال، ففي ذلك أنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه[2].

وقد جاء في تفسير الآية السابقة، أن الرسل ليست باقية في أقوامها أبدًا، فكل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به، وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائما مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف لموت النبي ﷺ أو قتله، فقال تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي رجعتم القهقرى، وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته: ﴿وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حيًا أو ميتًا[3].

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أحد أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ، فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله ربًا معبودًا وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالدًا فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، الربط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول ﷺ البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة -رضي الله عنهم- من الفوضى والدهشة والاستغراب، ومتابعة

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٩٧). (٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٤١).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٠).

الرسول ﷺ أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة، وتبليغ الدعوة ونصرة الحق، وهذا التأسي هو الجانب الأغرّ من جوانب منهج رسالة الإسلام؛ لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض، وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا[1].

قال ابن القيم: إن غزوة أحد كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو لا يموت فلو مات محمد أو قتل، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينهم، وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت، وما بُعث محمد ﷺ ليخلد، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان، إن محمدًا قد قتل فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله، وأعزهم وظفرهم وجعل العاقبة لهم)[2].

قال القرطبي: (فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء)[3]. وكلامه -رحمه الله- نفيس جدًا، فالذين ظنوا من قبل أن الإسلام قد انتهى بموت النبي ﷺ والذين يظنون أن ظهور الإسلام ودعوته متوقف على شخص بعينه، فهؤلاء وأولئك قد أخطأوا ولم يقدروا هذا الدين قدره، ولم يوفوه حقه؛ لأن ظهور هذا الدين وهيمنته على كل الأديان هو قدر الله عز وجل وسنته، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فسبب ظهور هذا الدين أنه حق وأنه هدى[4].

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٦١٦).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٤). (٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

(٤) انظر: مرض النبي ووفاته وأثر ذلك على الأمة، خالد أبو صالح، ص٢٠ نقلا عن غزوة أحد دراسة دعوية، ص١٩١.

في غزوة أحد نزل التشريع الإلهي بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أحد، وعند موت الرسول ﷺ جاء التطبيق حيث (لما توفي رسول الله ﷺ أقبل أبو بكر الصديق ﷺ على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم[1] رسول الله ﷺ وهو مغشي بثوب حبرة[2]، فكشف عن وجهه ﷺ ثم أكبَّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها)[3].

وعن ابن عباس ﷺ قال: إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ﷺ فقال أبو بكر ﷺ: أما بعد من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر ﷺ قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر ﷺ تلاها فَعَقِرْت[4] حتى ما تقلّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات[5].

ثامنًا: معاملة النبي ﷺ للرماة الذين أخطأوا والمنافقين الذين انخذلوا:

أ- الرماة:

إن الرماة الذين أخطأوا الاجتهاد في غزوة أحد لم يخرجهم الرسول ﷺ خارج الصف، ولم يقل لهم إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف، بل قبل ضعفهم هذا في رحمة وعفو وفي سماحة، ثم شمل سبحانه وتعالى برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا في هذه الغزوة، رغم ما وقع من بعضهم من أخطاء جسيمة وما ترتب عليه من خسائر فادحة، فعفا سبحانه وتعالى عفوًا غسل به خطاياهم ومحا به آثار تلك الخطايا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهناك أمر مهم يتصل بهذا العفو قد يترك أثرًا في نفوسهم يعوقها بعض الشيء، ذلك هو موقف رسول الله ﷺ مما

---

(١) فتيمم: قصد.
(٢) الحبرة: نوع من برود اليمن مخططة غالية الثمن.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب مرض رسول الله ووفاته، رقم٤٤٥٤.
(٤) عقرت: دهشت وتحيرت، وسقطت.
(٥) انظر: البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤٥٤.

حدث منهم، إنهم يشعرون أن الرسول ﷺ هو وحده الذي تحمل نتيجة تلك الأخطاء فلا بد أن ينالوا منه عفوًا تطيب به نفوسهم، وتتم به نعمة الله عليهم، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يعفو عنهم وحثه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفًا له عن الاستفادة من خبراتهم ومشورتهم[١]، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ب- انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله ابن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين، كان يريد أن يحدث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته. وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدر به في أحلك الظروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال إلا أنهم رفضوا دعوته[٢]، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

فالبرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد، لقلة جيش المسلمين وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم، ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس[٣]. وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول، فعندما رجع رسول الله من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحث الناس على طاعة رسول الله ﷺ، قال الإمام الزهري: كان عبد الله بن أبي له مقام يقومه كل جمعة لا ينكسر له شرفًا في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفًا، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجرًا[٤]، إن قمت أشدد أمره. فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إلي رجال من

---

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٩.

(٣) نفس المصدر، ص٢٢٠.

(٤) بجرًا: شرًا.

أصحابه يجبذونني ويعنفونني لكأنما قلت بجرًا أن قمت أشدد أمره، قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله، قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي[1].

تاسعًا: «أحد جبل يحبنا ونحبه»:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن النبي ﷺ طَلَع له أحدٌ فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[2].

وهذا يدل على دقة شعور النبي ﷺ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلا أعلى على التخلق بخلق الوفاء؟. ألا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء، ويفضي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإن كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سما حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلا عمن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى[3].

والحديث النبوي الشريف فيه كثير من المعاني منها ما ذكره الحميدي، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشامي حيث قال: والإنسان كثيرًا ما يربط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها.. وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بيانًا للحق، وابتعادًا عن الطيرة والتشاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السيئة في نفس الإنسان، ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك المعنى السيئ بين لهم أن المكان والزمان مخلوقات لله لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنما الأمر بيد الله تعالى، والاستشهاد في سبيل الله كرامة لصاحبه لا مصيبة، وهكذا تتسق المفاهيم في إطارها الإيماني، إذًا (أحد) يكرم ويحب انطلاقًا من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في ذلك اليوم فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته[4].

عاشرًا: الملائكة في أحـــد:

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد، رجلين عليهما ثياب يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل، عليهما السلام[5]. وهذا خاص بالدفاع عن النبي ﷺ؛ لأن الله تكفل بعصمته من

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣).

(٢) انظر: صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٨٤.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ١٩٨).

(٤) انظر: معين السيرة النبوية، ص٤٢٧.

(٥) مسلم، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل (٤/ ١٨٠٢).

الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال، ذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدهم؛ وجعل وعده معلقًا على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد[1]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال، وآل عمران:

تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر بشيء من التفصيل، وتحدثت سورة آل عمران عن غزوة أحد لكي تتعلم الأمة كثيرًا من المفاهيم، تتعلق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النصر والهزيمة، ومفهوم الربح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنفاق، ومفهوم المنحة والمحنة، ومن المفاهيم التي تعلمها الصحابة -رضي الله عنهم- من خلال أحداث بدر وأحد وسورتي الأنفال وآل عمران، قوانين النصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بينتها الآيات الكريمة ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ- النصر ابتداء وانتهاء، بيد الله عز وجل، وليس ملكًا لأحد من الخلق، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

ب- وحين يقدر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ج- ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله عز وجل، نحن بحاجة إلى فقهها، فلا بد أن تكون الراية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

د- ووحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]..

هـ- وطاعة أمر الله تعالى ورسوله وعدم الخروج عليها أساس في النصر، أما المعصية

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١).

فتقود إلى الهزيمة قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

و- وحب الدنيا والتهافت عليها يفقد الأمة عون الله ونصره، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ز- ونقص العدد والعدة ليس هو سبب الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ح- ولكن لا بد من الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة العدو[1]، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ط- والثبات عند المواجهة، والصبر عند اللقاء من العوامل الرئيسية في النصر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[الأنفال:١٥].

ي- ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزل النصر، وطلب العون منه، والتوكل عليه، وعدم الاعتماد على العدد أو العدة أو الذات، والتبرؤ من الحول والقوة، هو عامل أساسي من عوامل النصر[2]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم:

قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم» فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ هذه الآيات[3]، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٤٦١، ٤٦٢.

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٤٦٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٧٠).

وقد جاء في تفسير الآيات السابقة ما رواه الواحدي عن سعيد بن جبير أنه قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أحد، ورأوا ما رزقوا من الخير قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رغبة، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)]. وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. قال: أما إنا سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة، حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[(٢)].

ثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين:

كان الإعلام في العهد النبوي يقوم على الشعر، وكان شعراء المشركين في بدر في موقف الدفاع والرثاء، وفي أحد حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النصر، فجعلوا من الحبة قبة، وأمام هذه الكبرياء المزيفة، انبرى حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة للرد على حملات المشركين الإعلامية التي قادها شعراؤهم كهبيرة بن أبي وهب، وعبد الله الزِّبَعْرَى وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص[(٣)].

وكانت قصائد حسان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملة المشركين، ويوبخ المشركين ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم حتى كان في النهاية بيد امرأة منهم، وولى أشرافهم وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكير للمشركين بمواقف الذل والجبن التي تعرضوا لها في بداية المعركة، حتى لا يغتروا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسان من المشركين مقتلاً حينما عيرهم بالتخلي عن اللواء وإقدام امرأة منهم على حمله، وهذا يتضمن وصفهم بالجبن الشديد حيث أقدمت امرأة على

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص١٢٥، تفسير الطبري (٤/ ٢٦٩).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب أرواح الشهداء في الجنة (٣/ ١٨٨٧).

(٣) انظر: معين السيرة، ص٢٥٢، ٢٥٣.

ما نكلوا عنه[1]. ومما قاله في شأن عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعها اللواء:

إذا عَضَلٌ سيقت إلينا كأنها ... جداية شركٍ معلمات الحواجب[2]

أقمنا لهم طعنًا مبيرًا منكلاً ... وحُزناهم بالضرب من كل جانب[3]

فلولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون في الأسواق بيع الجلائب[4]

وعندما أخذ اللواء من الحارثية غلام حبشي لبني طلحة، كان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثية وقاتل به قتالاً عنيفًا قتل على أثره فرمى حسان بن ثابت أبياته في هذا الموضوع فقال:

فخرتم باللواء وشر فخر ... لواء حين رد إلى صؤاب

جعلتم فخركم فيه بعبد ... وألأم من يطا عفر التراب

ظننتم، والسفيه له ظنون ... وما إن ذاك من أمر الصواب[5]

ومن أعجب ما قرأت في المعركة الإعلامية بين المسلمين والمشركين محاولة ضرار بن الخطاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدر على اعتبار النصر كان لرسول الله والمهاجرين وفي ذلك قوله:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما ... بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه ... يحامون في اللأواء والموت حاضر

يعد أبو بكر وحمزة فيهم ... ويُدْعَى علي وسط من أنت ذاكر

ويدعى أبو حفص وعثمان منهم ... وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر

أولئك لا من نتجت من ديارها ... بنو الأوس والنجار حين تفاخر[6]

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ٢١).

(٢) عضل: اسم قبيلة ابن خزيمة، الجداية: الصغير من أولاد الظباء.

(٣) مبيرًا: مهلكًا، ومنكلاً: قامعًا لهم ولغيرهم.

(٤) الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق ليباع فيها.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٧).

(٦) انظر: معين السيرة، ص ٢٥٢.

وهكذا حولها إلى لغة قبلية تقوم على مفاهيم جاهلية ولقد أجابه كعب ﷺ:

وفينـــا رســـول الله والأوس حولـــه ... لـــه معقـــل مـــنهم عزيـــز وناصـــر

وجمـــع بـــني النجـــار تحـــت لوائـــه ... يمســـون في المـــأذى والنقـــع ثـــائر

إلى أن قال:

وكـــان رســـول الله قـــد قـــال أقبلـــوا ... فولـــوا وقـــالوا: إنمـــا أنـــت ســـاحر

لأمـــــر أراد الله أن يهلكـــــوا بـــــه ... ولـــيس لأمـــر حمـــه النـــار زاجـــر

كما أجابه بقوله:

وبيـــوم بـــدر إذ نـــرد وجـــوههم ... جبريـــل تحـــت لوائنـــا ومحمـــد

وهو أفخر بيت قالته العرب كما قال صاحب العقد الفريد[1].

* * *

(١) انظر: معين السيرة، ص٢٥٢.

الفصل الرابع
غـــزوة بني النضير

أصاب يهود المدينة، الخوف والرعب، طيلة الفـترة الـتي تفصـل بـين مقتـل كعـب بـن الأشرف، وبين معركة أحد التي جرت في شوال عام ٣هـ، ولكن الهزيمة التي حلت بالمسلمين في تلك المعركة، أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل مـن جديـد، بتحقيـق مطـامعهم وأغراضهم، وأزالت من قلوب اليهود الهلع على المصير، وممـا سـاهم في تبديـد هـذا الهلـع عندهم مقتل أصحاب الرجيع، وبئر معونة، وبذلك لم يدم خوف اليهود طـويلا وعـادوا إلى أساليب الدس والمكر والخداع، وشرعوا في حشد حصونهم بالسـلاح والعتـاد للانقضـاض على المسلمين ودولتهم، ثم صمموا على قتل النبي ﷺ والغدر به[١].

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ- تاريخ الغزوة:

يرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رد ابن القيم على من زعم أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشـهر بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وَهْم منه، أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه: أنها بعد أُحُدٍ والذي كانـت بعـد بـدر بسـتة أشهر، هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية[٢].

وقال ابن العربي: والصحيح أنها بعد أُحُد[٣]. وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير[٤].

ب- أسباب الغزوة:

هناك مجموعة من الأسباب حملت النبي ﷺ على غزوة بني النضير وإجلائهم من أهمها:

١ - نَقْض بني النضير عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤووا عدوًا للمسـلمين، ولم يكتفـوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السويق[٥] حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة بعد غزوة بدر، نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، ص١٨٨، ١٨٩.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧٦٥).

(٤) انظر: حديث القرآن عن الغزوات (١/ ٢٥٤).

(٥) غزوة السويق كانت بعد بدر وقد تحدثت عنها.

قاصدًا المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك[1].

قال موسى بن عقبة صاحب المغازي: (كانت بنو النضير قد دسوا إلى قريش وحصونهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلوهم على العورة)[2].

٢- محاولة اغتيال النبي ﷺ: خرج النبي ﷺ في نفر من أصحابه عن طريق قباء إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامرين اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري بجوار رسول الله ﷺ لهما؛ وذلك تنفيذا للعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين بني النضير حول أداء الديات، وإقرارًا لما كان يقوم بين بني النضير وبين بني عامر من عقود وأحلاف.

استقبل بنو النضير النبي ﷺ بكثير من البشاشة والكياسة، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في قتله والغدر به، ويبدو أنهم اتفقوا على إلقاء صخرة عليه ﷺ، من فوق جدار كان يجلس بالقرب منه، ولكن الرسول ﷺ الذي كان برعاية الله وحفظه أدرك مقاصد بني النضير، إذ جاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة، ثم تبعه أصحابه بعد قليل[3].

لم تكن مؤامرة بني النضير، التي أفشلها الله سبحانه وتعالى تستهدف شخص النبي ﷺ فحسب، بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة والدعوة الإسلامية برمتها؛ لذا صمم محمد ﷺ على محاربة بني النضير، الذين نقضوا العهد والمواثيق معه وأمر أصحابه بالتهيؤ لقتالهم والسير إليهم[4].

هذه الأسباب وغيرها أدت إلى غزوة بني النضير، وقد ذكَّر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النعمة الجليلة وكيف نجى الله نبيه ﷺ من مكر يهود بني النضير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها:

أخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله ﷺ بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: «أعينوني في عقل أصابني» فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٨٤). (٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢).

(٣) انظر: الواقدي (١/ ٣٦٥) التاريخ السياسي والعسكري، ص١٩٠.

(٤) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، ص١٩٠.

فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولا ترون شرًّا أبدًا. فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من ثم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر الله نبيه ﷺ ما أرادوا به[١].

وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد[٢] أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك أن جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقي الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية[٣].

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي ﷺ وأصحابه فقال: (وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيهم ﷺ مما كانت يهود النضير همت به من قتله وقتل من معه، يوم سار إليهم في الدية التي تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية، وإنما قلنا بالصحة في تأويل ذلك؛ لأن الله عقب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها وقبيح فعالها، وخيانتها ربها وأنبياءها)[٤].

وقد وافق الدكتور محمد آل عابد ترجيح الطبري، وقال: لا مانع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تعددت الحوادث والمنزل واحد، كما قال العلماء[٥].

ومعنى الآية الكريمة: أي اذكروا نعمة الله عليكم، التي من أكبر مظاهرها كفه عنكم أيدي اليهود الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامرتهم الخبيثة، ولكن الله أحبط مكرهم ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم. ثم أمر -سبحانه- بتقواه والتوكل عليه، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي اتقوا الله -أيها المؤمنون- في رعاية حقوق نعمته، ولا تخلوا بشكرها، فقد أراكم

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) هذه الآثار وإن كان فيها ضعف يمكن أن تعضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة، ص١٤٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

(٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥١).

قدرته، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بكم، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون[1].

ثانيًا: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم:

أ- إنذار بني النضير: سجلت معظم كتب السيرة النبوية خبر إنذار النبي ﷺ لبني النضير بالجلاء خلال عشرة أيام، وقد أرسل ﷺ محمد بن مسلمة إليهم، وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير، وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه»[2]، ولم يجدوا جوابًا يردون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس، فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، فقالوا: نتحمل، فمكثوا أياما يعدون العدة للرحيل[3]. وفي تلك المدة أرسل إليهم عبد الله بن أبي ابن سلول من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم[4]، ولا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم[5]. فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل إلى النبي ﷺ جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم -أي لن نبرح- دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون معه، وقال: «حاربت يهود» [6].

ب- ضرب الحصار وإجلاؤهم: وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فتحركت جيوش المسلمين صوبهم، وضربت عليهم الحصار لمدة خمس عشرة ليلة. وأمر ﷺ بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال، وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟ وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس في قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أبي وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيرًا أو يدفعوا عنهم شرًا، فأرسلوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم. فوافقهم النبي ﷺ على ذلك وقال لهم: «اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة - وهي الدروع والسلاح- فرضوا بذلك»[7].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٢).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧)، مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣- ٣٧٠).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٢).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).

(٥) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٣).

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٦).

(٧) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٥٧).

ونقض اليهود سقف بيوتهم وعمدها وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون. وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة، وكان يقول: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل[1]. وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام[2].

وقد تولى عملية إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة، بأمر من رسول الله ﷺ[3]. وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فلما نزلوها دان لهم أهلها[4].

ثالثا: الدروس والعبر في هذه الغزوة:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة وهي سورة الحشر، وقد سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- سورة الحشر بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر، قال: سورة بني النضير[5].

وقد بينت هذه السورة ملابسات هذه الغزوة، وفصلت القول فيها، وبينت أحكام الفيء، ومن هم المستحقون له؟ وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وجه سبحانه خطابه إلى المؤمنين وأمرهم بتقواه وحذرهم من معصيته، ثم تحدث سبحانه عن القرآن الكريم، وأسمائه وصفاته، وهكذا كان المجتمع المسلم يتربى بالأحداث على التوحيد وتعظيم منهج الله، والاستعداد ليوم القيامة. وبالتأمل في السورة يمكننا استخراج بعض الدروس والعبر من أهمها:

أ- **الثناء على الله وتمجيده:** ابتدأت السورة بالثناء على الله، وأن الكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، ينزه الله ويمجده ويشهد بوحدانيته وقدرته وجلاله، وناطق بعظمته وسلطانه[6]. قال تعالى: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٦).

(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٦٥)، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧).

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٧٤)، اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٢١).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٢).

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بن النضير رقم ٤٠٢٩.

(٦) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).

الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

كان استفتاح هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض، تسبح بحمد ربها، وتتنزه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته؛ لأنه العزيز، الذي قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه عسير.

الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب، من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم، التي ألفوها وأحبوها[1].

ب- الرعب جند من جند الله: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۞ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢-٤].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يتبين له أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول الحشر في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها.

لكن الله فاجأهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآني الفريد يربي الأمة بالأحداث والوقائع، وهو يختلف تماما عن طريقة أهل السير، ويمتاز بأنه يكشف الحقائق ويوضح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العالمين، ومن ذلك أنها بينت أن الذي أخرج بني النضير هو الله جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبين أن يهود بني النضير حسبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضية، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتي من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة، لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة، وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور، وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات، فهو القادر على كل شيء، فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم، فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٣٢٧).

إن هذه الغزوة درسٌ للأمة في جميع عصورها تذكرهم أن طريق النصر قريب وهو الرجوع إلى الله والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قويًا وكثيرًا، فإن الله لا يعجزه شيء، وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليُعتبر بها، والسعيد من اعتبر بغيره.

ثم أوضح سبحانه أنه لو لم يعاقبهم بالجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل، أما في الآخرة فلهم عذاب النار[(١)].

ج- تخريب ممتلكات الأعداء: لما نزل رسول الله ﷺ بجيشه وحاصر بني النضير تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟[(٢)] فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[(٣)] وقد توسع الشيخ محمد أبو زهرة في شرح هذه الآية فقال ما ملخصه بعد أن ساق آراء الفقهاء في ذلك: والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي ﷺ في حروبه:

١- أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢- أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنه لا مناص من قطع الأشجار وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف.

٣- أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب، إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا[(٤)].

د- تطوير السياسة المالية للدولة الإسلامية: بيَّن سبحانه وتعالى حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضير بعد أن تم إجلاؤهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٠، ٢٧١). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٧٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ٣٤).
(٤) انظر: خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٢٦٥- ٢٦٩).

وبيَّن سبحانه وتعالى أن الأموال التي عادت إلى المسلمين من بني النضير قد تفضل بها عليهم بدون قتال شديد؛ وذلك لأن المسلمين مشوا إلى أعدائهم ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً وافتتحها ﷺ صلحًا، وأجلاهم، وأخذ أموالهم ووضعها حيث أمره الله، فقد كانت أموال بني النضير للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله[1].

ثم بيَّن المولى عز وجل أحكام الفيء في قرى الكفار عامة، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

فكانت هذه الغنيمة خالصة لرسول الله ﷺ، ولهذا تصرف فيه -أي الفيء- كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات.

ولما غنم ﷺ أموال بني النضير، دعا ثابت بن قيس فقال: «ادع لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال ﷺ: «الأنصار كلها» فدعا له الأوس والخزرج.

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله، بل نقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله[2].

وقسم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحدًا من الأنصار شيئًا، غير أبي دجانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما[3]، ومع أنه ﷺ يعلم أن الفيء كان خاصًا له إلا أنه جمع الأنصار وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم، وهذا من الهدي النبوي الكريم في سياسة الأمور. وكانت الغاية من هذا التوزيع تخفيف العبء عن الأنصار، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دور بني النضير، وأعيدت دور الأنصار إلى أصحابها، واستغنى بعض المهاجرين مما يمكن أن يقال فيه: إن الأزمة قد بدأت بالانفراج[4].

إن قسمة أموال بني النضير أوجدت تطورًا كبيرًا في السياسة المالية للدولة الإسلامية، فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية

(١،٢) مسلم، كتاب الجهاد باب حكم الفيء (٣/ ١٣٧٦) رقم ١٧٥٧.

(٣) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٨٦). (٤) انظر: السيرة النبوية لصالح الشامي ص٢٢٢.

خمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، وبعد غزوة بني النضير، أصبحت هناك سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت حسب السياسة الجديدة على نوعين:

١- غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خمسها لتصرفه في مصارفه الخاصة.

٢- غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصادية في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحًا، أو يبني به مدينة أو يصلح به طرقا أو... وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفًا سريعًا حسب مقتضيات المصلحة[1]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في الآيتين اللتين أوضحتا سياسته عليه الصلاة والسلام في تقسيم فيء بني النضير إذ اختص به أناسًا دون آخرين العلة في ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. أي لكي لا يكون تداول المال محصورًا فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط، والتعليل لهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال، قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبدأ، وأن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يبغي من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم ويقضى فيه على أسباب الثغرات التي قد تظهر فيما بينها، والتي قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة ومنع للربا وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكارات، لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش قد يتفاوتون في الرزق، ولكنهم جميعًا مكتفون وليس فيهم كَلٌّ على آخر، وإن كانوا جميعًا يتعاونون[2]. وبعد بيان العلة في توزيع أموال الفيء عقب سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول ﷺ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى، فإن عقابه شديد وأليم للعصاة. قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، ص١٦٩.

(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص١٩٤.

أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره[1]. وقد جاءت آيات كثيرة تربي الأمة على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله ﷺ وذلك في كل الأمور، قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»[2].

هـ- فضل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان:

١- فضل المهاجرين: بينت الآيات الكريمة في سورة الحشر فضل المهاجرين على غيرهم، فهم لهم الدرجة الأولى، فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة، وشهد الله لهم بالصدق، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٢- فضل الأنصار: فقد وضحت الآيات فضل الأنصار، وقد وصفهم الله بهذه الصفات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

٣- فضل التابعين لهم بإحسان: وهم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون في السر والعلانية لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان[3]، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. وهكذا تحدثت السورة الكريمة عن صور مشرقة للمهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان.

و- موقف المنافقين في المدينة: بينت الآيات الكريمة حالة المنافقين، ووضحت موقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود، وكشفت أيضا موقفهم من المسلمين، وموقف

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٩/ ٢٨)، صفوة التفاسير (٣/ ٣٥١).

(٢) مسلم،كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله (٤/ ١٨٣٠).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٩١).

اليهود ونفسياتهم[1]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

يخبرنا المولى عز وجل عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم بمناصرتهم، وقوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾ أي الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر، وهم يهود بني النضير، وجعلهم إخوانًا له لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر.

ز- تحريم الخمر: حرمت الخمر ليالي حصار بني النضير[2] في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة[3]، وقد خضع تحريم الخمر لسنة التدرج، وكان ذلك التحريم على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب[4].وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

يقول سيد قطب رحمه الله: وهذا النص الذي بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شرًا خالصًا، فالخير يلتبس بالشر، والشر يلتبس بالخير في هذه الأرض، ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، فتلك علة تحريم ومنع وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع.

هنا يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامية القرآنية الربانية الحكيمة، وهو المنهج الذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه وفرائضه وتوجيهاته، ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والميسر، عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسمًا منذ اللحظة الأولى. ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعبادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والتدرج، ويهيئ الظروف الواقعة التي تيسر التنفيذ والطاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك أمضى أمره منذ اللحظة

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٢٦٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥٣).

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٠).

(٤) انظر: الخصائص العامة للإسلام، للقرضاوي، ص١٨١.

الأولى في ضربة حازمة جازمة لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق؛ لأن المسألة هنا مسألة أساسية للتصور، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

فأما الخمر والميسر، فقد كان الأمر أمر عادة وألفة، والعادة تحتاج إلى علاج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني المنطقي التشريعي في نفوس المسلمين، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّن الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]. والصلاة في خمسة أوقات، معظمها متقارب، لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة، وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترة حد العادة، أمكن التغلب عليها، حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الجازم الأخير لتحريم الخمر والميسر[(١)]. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

ح- **لا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله**: كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ والدولة الإسلامية في غاية الخسة والوضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم وغدرهم عزة ورفعة ومجدًا، وغلبة، لكن الله سخر منهم، ونجى رسوله والمسلمين من مكرهم وأذلهم وأخزاهم، فزال مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحلهم عن ديارهم، ولم يكلف ذلك المسلمين اصطدامًا مسلحًا، ولا قتالاً ضاريًا، ولكن الله قذف في قلوبهم الرعب والفزع، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلفين وراءهم ثروة وملكًا، حازه المسلمون غنيمة باردة، وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

هذه عاقبة المكر السيئ، والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى مواطن العبرة في هذه الموقعة، وإلى هذا التهديد الذي أعلنه لكل من يسلك سبيل المكر

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٢٩).

المزري، والحقد المستبد[1] وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوه:

١- إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

٢- الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وباق حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف.

٣- الاعتبار يكون بتجنب ما ارتكبه اليهود من خيانة وغدر حتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان[2].

ط- لا إكراه في الدين: كان في بني النضير أناس من أبناء الأنصار قد تهودوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرحيل معهم. فأنزل الله عز وجل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: كانت المرأة تكون مقلاة[3] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦][4].

***

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص١٦٧، ١٦٨.

(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس، ص١٧٩.

(٣) المقلاة: التي لا يعيش لها ولد، سنن أبي داود (٣/ ١٣٣).

(٤) أبو داود، كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الإسلام (٣/ ١٣٢) رقم ٢٦٨٢.

الفصل الخامس

غزوة ذات الرقـــــاع

أولاً: تاريخها وأسبابها، ولماذا سميت بذات الرقاع؟:

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزوة، وقد ذهب البخاري[1] إلى أنها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق[2] إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي[3] وابن سعد[4] أنها كانت في المحرم سنة خمس.

وقد ذكر البوطي بأن تاريخ الغزوة كان في السنة الرابعة للهجرة بعد مرور شهر ونصف تقريبًا على إجلاء بني النضير، وقال بأن هذا الرأي ذهب إليه أكثر علماء السير والمغازي[5]، وإليه ذهبت.

وأما سبب الغزوة ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج ﷺ قاصدًا قبائل محارب وبني ثعلبة[6]. وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادمًا قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وعاد رسول الله إلى المدينة[7].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها، وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق من تحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره[8].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٥/ ٦٢) رقم ٤١٢٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٢٥).

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٩٥).

(٤) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٦١).

(٥) انظر: فقه السيرة النبوية، ص١٩٤.

(٦) نفس المصدر، ص١٩٤، ١٩٥.

(٧) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص١٤.

(٨) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، ص٧٧، ٧٨.

وسميت بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع[1]، وقيل: لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك[2]. والصحيح: أنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نَلُفُّ على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا[3].

ثانيًا: صلاة الخوف وحراسة الثغور:

١- **صلاة الخوف:** أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ صلاة الخوف في هذه الغزوة، وبيَّن القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]. فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائمًا، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالسًا، وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم[4].

وفي رواية: أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان[5]. قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول، وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين[6]، ودل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٠٩)

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص١٧٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٥/ ١٤٥).

(٤) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٥.

(٥) مسلم (٢/ ٥٧٦) رقم ٣١١.

(٦) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٠٧.

عنها، مهما كانت الظروف؛ وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلا يوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد[١].

٢- حراسة الثغور: عندما رجع الجيش الإسلامي من غزوة ذات الرقاع سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عباد بن بشر، وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا بسهم وهو قائم يصلي فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحانه الله، هل نبهتني؟ فقال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فآذنتك، وايمُ الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[٢]. ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروسًا وعبرًا منها:

أ- اهتمام النبي ﷺ بأمن الجنود، ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب- تقسيم الحراسة، ونلاحظ أن الرجلين اللذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفًا للراحة ونصفًا للحراسة، إذ لا بد من راحة جسم الجندي بعض الوقت.

ج- التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته: فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة[٣].

د- الشعور بمسئولية الحراسة: فلم يقطع عباد صلاته لألم يشعر به وإنما قطعها استشعارًا بمسئولية الحراسة التي كلف بها، وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد[٤].

هـ- مكان الحراسة استراتيجي: اختار النبي ﷺ فم الشعب مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق؛ لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

و- قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيدًا عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث ما لا تحمد عقباه[٥].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٧.

(٣) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص٣٠، ٣١.

(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٨.

(٥) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص٣٢.

ثالثا: شجاعة الرسول ﷺ ومعاملته لجابر بن عبد الله:

١- شجاعة الرسول ﷺ:

عندما قفل رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع أدركته القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر بن عبد الله: (فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله» فها هو ذا جالس، لم يعاقبه رسول الله، واسم الأعرابي: غورث بن الحارث)[1]. وقد عاهد غورث رسول الله ﷺ ألا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس)[2].

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحِلْمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[3].

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة وهي تكشف عن مدى رعاية الباري جل جلاله وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هي تزيدك يقينًا بالخوارق التي أخضعها الله جل جلاله له عليه الصلاة والسلام، مما يزيدك تبصرًا ويقينًا بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في غفلة النوم، أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله ﷺ في قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟[4].

ليس لهذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذي يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته[5]. فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تيارًا من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدي رسول الله ﷺ، وما حدث مصداق لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٢٧.

(٣) انظر: فتح الباري (١٥/٣١٧) نقلا عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٧.

(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٠٠.

(٥) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص١٧٨.

﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فليست العصمة المقصودة في الآية أن لا يتعرض الرسول ﷺ لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة ألا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بعث لتبليغها[١].

٢- معاملته ﷺ لجابر بن عبد الله:

قال جابر بن عبد الله ﷺ: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف، حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: «ما لك يا جابر؟» قال: قلت: يا رسول الله أبطأني جملي هذا، قال: «أنخه» فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال «أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصا من شجرة» قال: ففعلت، قال: فأخذها رسول الله فنخسه بها نخسات، ثم قال: «اركب» فركبت، فخرج -والذي بعثه بالحق- يواهق ناقته مواهقة (أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته).

في هذه القصة صورة جميلة ورفيعة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث لطف الحديث، والتواضع الرفيع، الوقوف على أحواله ، فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيدًا في أحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق.

* * *

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٠٠.

الفصل السادس

غزوة بدر الموعد، ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذًا للموعد الذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحد، والتزام الرسول ﷺ بذلك، فقد خرج النبي ﷺ من المدينة على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيالة، وذلك في ذي القعدة سنة ٤ هـ، وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب ﷺ، فوصلوا بدرًا فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحدًا من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرسًا، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنة على بعد أربعين ميلا من مكة ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة[1] بعد أن خطب فيهم وقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا[2]، وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله ﷺ على بني ضمرة في غزوة ودان، فالتقى برسول الله ﷺ في بدر وقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك» قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة[3].

ففي هذا اللقاء أكد رسول الله ﷺ على معنى كبير في إظهار قوة المسلمين، وأن العقد الذي كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا بعامل ضعفهم، وبناء على طلب الطرف الثاني، وفي هذا ما فيه من القوة للمسلمين وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم[4]. لقد كانت تحركات الجيش الإسلامي من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت بها وجوده، وأعطى الدليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة وخارجها، أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة في الجزيرة العربية كلها، ولا أدل على ذلك من أن جيش مكة وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح قد هاب الجيش الإسلامي ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (في أحد) قائد عام جيش مكة[5].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٣١٨، ٣١٩).
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، ص٨٨.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٢).
(٤) انظر: معين السيرة للشامي، ص٢٦٤، ٢٦٥.
(٥) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، ص٨٨، ٨٩.

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم، وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحد وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري[1]، فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السمعة العسكرية للمسلمين[2]، وكسبوا انتصارًا معنويًا عظيمًا على أعدائهم بدون قتال، وشاركوا في الموسم التجاري ببدر وربحوا في تجارتهم ربحًا طيبًا[3].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[4].

ثانيًا: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدولة الإسلامية، فبعد غزوة بدر الموعد، تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، وفي حدود الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة) ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشهير (على بعد ٤٥٠ كيلومترًا شمال المدينة)، كانت هذه القبيلة أول من احتك بها المسلمون فغزاها رسول الله ﷺ تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م)[5] فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، كما وردت الأنباء بأنهم يفكرون في القرب من المدينة لعجم عودها[6].

إن دومة الجندل تعتبر بلادًا نائية بالنسبة للمدينة المنورة؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها، وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية العسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع[7] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية، وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

١- لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي بلا شك إلى تطوره واستفحاله،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٦). (٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ٦٧).

(٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، ص٩١.

(٥) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع، ص١٤٤.

(٦) انظر: تأملات في سيرة الرسول لمحمد الوكيل، ص١٦٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٦٩.

ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يجاهدون من أجل استرداده.

٢- وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب، مما يضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣- وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسئوليتهم، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم، ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر[١].

٤- حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها[٢].

٥- الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية[٣] وليست مقصورة على العرب. ورأى بعض المؤرخين كالذهبي، والواقدي، ومحمد أحمد باشميل، وغيرهم أن من أهداف تلك الغزوة إرهاب الروم الذين تقع المنطقة التي وصل إليها ﷺ بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق[٤].
لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن النهار حتى يخفي مسيره[٥]، ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء[٦].

واتخذ له دليلاً من بني عذرة يسمى (مذكورًا)، وسار حتى دنا من القوم، عندئذ تفرقوا، ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحدًا فقد ولوا مدبرين، وتركوا نعمهم وماشيتهم غنيمة باردة

---

(١) تأملات في سيرة الرسول، ص١٦٩.
(٢) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص١٤٤، ١٤٥.
(٣) المصدر نفسه، ص١٤٤.
(٤) انظر: غزوة الأحزاب، باشميل، ص٩٣، تاريخ المغازي للذهبي، ص٢٥٨.
(٥) انظر: تأملات في سيرة الرسول، ص١٧٠.
(٦) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص٤٠.

للمسلمين، وأسر المسلمون رجلا منهم، وأحضروه إلى الرسول فسأله عنهم، فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم وأقام بساحتهم أيامًا، وبعث البعوث، وبث السرايا، وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحد، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرسول عيينة بن حصن الفزاري واستأذن عيينة رسول الله ﷺ في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلا منها.

إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا، أي ما يقرب من خمسة وستين كيلومترًا، لدليل قاطع على ما وصلت إليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسئولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وإن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتى[1].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت لقيصر وجنده، كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدها من قبل، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وأفريقيا فيما بعد[2].

كان خطة الرسول ﷺ في هذه الغزوة ترمي إلى أهداف عديدة، فهي غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها[3].

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله ﷺ وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا في الطاعة والانضباط، ودروسًا في التدريب

---

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، ص١٧٠.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ص٢٥١، ٢٥٢.

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٢).

الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا في الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه، إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها عليه الصلاة والسلام ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلم الجيل الرائد فن القيادة وعظمة السياسة.

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء، يتربى ويتثقف ويتدرب ويمتحن ويقوم، ليكون هذا استعدادًا لمعارك قادمة[1]. وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عين ﷺ سباع بن عرفطة الغفاري واليًا على المدينة في تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًا ولا خزرجيًّا ولا قرشيًا، بل من غفار التي كانت تعتبر من سراق الحجيج عند العرب، فلا بد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيا كان شأن هذا الأمير، وهذا يدل على عظمة المنهج النبوي في تربية الأمة والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النبي ﷺ وفراسته في أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاري وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها[2].

* * *

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٧٣).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٧٤).

الفصل السابع

غـزوة بني المصطلـق

أولاً: من هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة وأسبابها؟:

١- **بنو المصطلق**: هم بطن[١] من خزاعة، والمصطلق[٢] جدهم، وهو جذيمة بن سعد ابن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء[٣].

٢- **تاريخ الغزوة**: اختلف العلماء في ذلك، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوال، فمن قائل إنها في شعبان سنة ست، قال بذلك ابن إسحاق وخليفة بن خياط، وابن جرير الطبري. ومن قال بأنها في شعبان من العام الرابع للهجرة، مثل المسعودي.

وذهبت طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، منهم موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير - رحمهم الله- ومن المحدثين الخضري بك، والغزالي، والبوطي.

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[٤].

٣- **أسباب هذه الغزوة**: من أهم الأسباب لهذه الغزوة:

أ- تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتركت في المعركة تأييدًا لقريش.

ب- سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسي المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزًا منيعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة[٥].

ج- أن الرسول ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة [٦].

---

(١) فرع.

(٢) المصطلق: بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وكسر اللام.

(٣) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٣١١).

(٤) من أراد مزيدًا من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق، ص٩٧.

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي، ص٣٣٢.

(٦) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٥).

٤- **أحداث غزوة بني المصطلق:** عندما شعر رسول الله ﷺ بحركة بني المصطلق المريبة أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم فتأكد من قصدهم، فأخبر الرسول ﷺ بذلك.

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول ﷺ من المدينة في سبعمائة مقاتل[(١)]، وثلاثين فارسًا[(٢)]، متوجهًا إلى بني المصطلق، ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري[(٣)] ومسلم[(٤)] أن رسول الله ﷺ أغار عليهم وهم غارون -أي غافلون- وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث[(٥)].

ثانيا: زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث، وكانت بركة على قومها، ولنسمع قصتها من السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما هو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلتْ عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لا يخفى عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو -لابن عم له- فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: «فهل لك في خير من ذلك؟».

قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقض عنك كتابك وأتزوجك». قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت. قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[(٦)]. وجاء الحارث بن أبي ضرار بعد الوقعة، بفداء ابنته، إلى المدينة، فدعاه

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، المغازي للذهبي، ص٢٥٩.

(٢) انظر: الواقدي (١/ ٤٠٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٣٣.

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار، (٣/ ١٣٥٦) رقم ١٧٣٠.

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٣٣.

(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٦٠، ١٦١).

النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم[1].

تعتبر غزوة المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها، وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عليه الصلاة والسلام، وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة للنبي ﷺ، وتكريمهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث له أبعاده، وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام، وهذه مصلحة إسلامية بعيدة، يسر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معًا للإسلام والمسلمين[2].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجة لسيد المرسلين وأمًا للمؤمنين، فكانت رضي الله عنها عالمة بما تسمع، وعاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله، وتحب الخير للمسلمين.

وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، لينشروه في المجتمع المسلم علمًا وعملاً، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية[3]. فقد حدَّث عنها ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب مولى ابن عباس ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي. بلغ مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث[4]، منها أربعة في الكتب الستة، عند البخاري حديث، وعند مسلم حديثان، وقد تضمنت مروياتها أحاديث في الصوم في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصوم، وحديث في الدعوات في ثواب التسبيح، وفي

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣١٧).

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص١٩٩، ٢٠٠.

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون، (٤/ ٢٥٠).

(٤) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، آمال قرداش، ص٨٨.

الزكاة في إباحة الهدية للنبي ﷺ وإن كان المهدي ملكها بطريق الصدقة، كما روت في العتق، وبسبعة أحاديث شريفة خلدت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها اسمها في عالم الرواية، لتضيف إلى شرف صحبتها للنبي ﷺ وأمومتها للمسلمين، تبليغها الأمة سنن المصطفى ﷺ ما تيسر لها ذلك[1].

وكانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث -رضي الله عنها- من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات والقانتات الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه[2]، فهذه أم المؤمنين جويرية تحدثنا عن ذلك فتقول: إن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها[3]، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتُكِ عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[4].

وقد توفيت رضي الله عنها سنة خمسين، وقيل: ست وخمسين[5].

ثالثًا: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عدد كبير من المنافقين مع المسلمين، وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعًا في الغنيمة[6]. وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصرًا جديدًا ازدادوا غيظًا على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشفى من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حربًا نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها، ولنترك الصحابي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك[7]، قال: (كنت في غزاة[8] فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي[9]،

---

(١) دور المرأة في خدمة الحديث، ص٨٨، ٨٩.
(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٣) مسجد: المكان الذي تصلي فيه في بيتها.
(٤) مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار، رقم ٢٧٢٦.
(٥) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢١) خليفة بن خياط تاريخه، ص٢٣٤.
(٦) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٨).
(٧) انظر: السيرة الصحيحة للعمري (٢/ ٤٠٨).
(٨) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.
(٩) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.

فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقين: ١] فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد»[١].

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري ما حدث عند ماء المريسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: (كنا في غزاة فكسع[٢] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟».

قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «دعوها فإنها منتنة» فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[٣].

وفي رواية قال عمر بن الخطاب: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس[٤].

وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه. فلما سار رسول الله ﷺ، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو بلغك ما قال صاحبكم؟». قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي؟» قال: وما قال؟ قال: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبت ملكه. ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٨).
(٢) كسع: ضربه برجله.
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٩).

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه[1]. إن هذه الحادثة من السيرة النبوية العطرة مليئة بالدروس والعبر، فمن أهم تلك الدروس:

١- الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟[2].

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جدًّا بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمدٍ محمدًا، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا[3]، وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات[4].

ولم يقف النبي ﷺ موقفًا سلبيًّا حيال تلك المؤامرة التي تزعمها ابن سلول لتصديع الصف المسلم، وإحياء نعرات الجاهلية في وسطه، بل اتخذ إزاءها الخطوة الإيجابية التالية:

أ- سار رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما[5].

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاء مبرمًا، ولم يدع مجالا للحديث فيما قال ابن أبي.

ب- لم يواجه النبي ﷺ ابن سلول ومؤامراته المدبرة بالقوة واستعمال السلاح حرصًا على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبي أتباعًا وشيعة مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة في معالجة المواقف العصبية في حزم وقوة أعصاب وبُعد نظر[6]. وهذه البراعة

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٩).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٤٦٣). (٤) المصدر نفسه (٣/ ٤٦٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٥).

(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٠٢.

في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه ﷺ نبيًا ورسولاً إلى الناس[1] لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرسول ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي ابن سلول كلما أحدث حدثًا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي ﷺ والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: **«كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته»** فقال عمر: قد -والله- علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[2].

٢- (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبي ابن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله فقال له: (يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي ابن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: **«بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»**[3]. ولما وصل المسلمون مشارف المدينة تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي، وقال له: قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له[4].

٣- مثل أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة[5]. لقد ضرب الابن أروع مثل في الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة **«بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»** يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة النبوية[6]، فقد تلطف النبي ﷺ بهذا الصحابي الجليل، وهدأ

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٤٠٩.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٢١).
(٤) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، ص٢٠٩ للقحطاني.
(٥) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٣/ ١٦٣).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن شهبة (٢/ ٢٥٧).

من روعه، وأذهب هواجسه[1].

٤- محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية الممقوتة والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها، وإنما الاشتراك في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، قال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**»[2]، ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) (والأنصار). فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم، لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار)، وكان حق الاثنين -إذا كان لا بد من الاستنصار بالغير- أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعًا، وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، من بلد، أو مذهب، أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]. وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصرًا على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق، وأن يكونوا معه، لا مع المعتدي[3].

لقد أوضح الرسول ﷺ أن العصبيات هي من دعاوى الجاهلية، وقال: «**لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره**»[4] فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلي: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا[5].

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ١٦٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٠٩). (٥) المصدر نفسه (٢/ ٢٠٩).

إن مهمة الدعاة وطلاب العلم والعلماء والفقهاء في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا لقلعها من النفوس[1].

رابعًا: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون)[2]. فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا ومتاعها، وحثت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السورة أن يلاحظ عدة محاور مهمة منها:

١- تحدثت السورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم ووصفت حالهم[3]؛ فابتدأت هذه السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها الكذب في ادعاء الإيمان، وحلف الإيمان الكاذبة، وجبنهم وضعفهم وتآمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وصدهم الناس عن دين الله[4]، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ١-٤].

٢- ثم بينت الآيات عنادهم وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحق وبينت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل خاصة ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنهم سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة، وأن العزة لهم، إلى غير ذلك من الأقوال العظيمة الفظيعة[5].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٣٠٢).
(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المنافقون» (٥/ ٤١٥).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٢٧).
(٤) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، (٢٨/ ٢١٣).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).

وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٥-٨].

وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالإشراف على ذلك.

خامسًا: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على عائشة - رضي الله عنها - بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، فقد ألمت بالبيت النبوي هذه النازلة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار. هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير[١] على أن حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون[٢]، والمحدثون[٣].

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحيهما، وهذا سياق القصة من صحيح البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[٤] فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي[٥] وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جَزْعِ ظَفَارِ[٦] قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[٧] الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن اللحم، إنما نأكل العُلقة[٨] من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فأقمت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل

---

(١) كالواقدي، والذهبي، والطبري، وابن سعد، وابن حزم
(٢) كابن كثير، والرازي، والطبري وغيرهم.
(٣) كابن حجر، والنووي.
(٤) هي غزوة بني المصطلق.
(٥) الهودج: محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.
(٦) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن.
(٧) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.
(٨) العُلقة: البلغة من الطعام.

السلمي[1] ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج[2] فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[3] حين عرفني، فخمرت[4] وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[5] في نحر الظهيرة[6]، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول.

١- انتشار الدعاية بالمدينة:

وقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني[7] إني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: **«كيف تيكم؟»**[8] ثم ينصرف، وذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت، فخرجت معي أم مسطح قِبَل المناصع[9]، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[10] قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة[11]، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها[12]، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه[13] أوَ لَمْ تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضًا على مرضي، قالت: فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ -تعني فسلَّم- ثم قال: **«كيف تيكم؟»** فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك،

---

(١) صحابي جليل كان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته.
(٢) فادلج: بالتشديد سار آخر الليل.
(٣) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٤) فخمرت: أي غطيت.
(٥) موغرين: الوغرة: شدة الحر.
(٦) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.
(٧) يريبني: يشككني.
(٨) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل ذاكم للمذكر.
(٩) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة.
(١٠) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.
(١١) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، توفي في خلافة عثمان.
(١٢) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت.
(١٣) هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[١] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها[٢]، قالت: فقلت: سبحان الله لقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[٣] ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

٢- استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي:

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث[٤] الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: **«أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟»** قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أَغْمصه[٥] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن[٦] فتأكله. فقام رسول الله فاستعذر[٧] يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: **«يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً[٨] ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»** فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣- آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج -وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية[٩]- فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان[١٠] الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر،

---

(١) وضيئة: الوضاءة: الحسن والبهجة.
(٢) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها.
(٣) لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ولا يسكت.
(٤) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر.
(٥) أغمصه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه.
(٦) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
(٧) فاستعذر: أي قال: من يقوم بعذري إن كفأته على سوء صنيعه.
(٨) هو صفوان بن المعطل السلمي.
(٩) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.
(١٠) فتثاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية.

فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها.

٤- مفاتحة الرسول ﷺ لعائشة وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهرًا[١] لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد: يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا [٢] ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلُصَ[٣] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت إني بريئة، والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتصدقن، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[٤] قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزلٌ في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

٥- نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله ما رام[٥] رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البُرحَاء[٦] حتى أنه ليتحدر منه مثل الجُمَان[٧] من العرق، وهو في

---

(١) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.

(٢) كناية عما رميت به من الإفك.

(٣) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.

(٤) هو يعقوب عليه السلام.

(٥) ما رام: ما برح وما فارق مجلسه.

(٦) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.

(٧) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.

يوم شات من ثقل القول الذي يَنْزِل عليه.

قالت: فلما سُرِّي[1] عن رسول الله ﷺ سُري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «يا عائشةُ، أما الله عز وجل فقد برأكِ» فقالت أمي: قومي إليه، قالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ۞ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۞ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠].

٦- موقف أبي بكر الصديق ممن تكلم في عائشة رضي الله عنها:

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ﷺ -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى، والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش[2] عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي[3] سمعي وبصري، وما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني[4] من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله[5] بالورع[6] وطفقت[7] أختها حمنة[8] تحارب لها، فهلكت ممن هلك

(١) سُري: انكشف عنه ما يجده من الهم والثقل.

(٢) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته رضي الله عنها.

(٣) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.

(٤) تساميني: أي تعاليني وتفاخرني، أي تطاولني عنده ﷺ.

(٥) ومعنى عصمها: حفظها ومنعها.

(٦) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.

(٧) طفقت: شرعت.

(٨) حمنة بنت جحش بنت عمته ﷺ وهي أخت زينب رضي الله عنهما.

من أصحاب الإفك[1].

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه ﷺ وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

سادسًا: أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات التي نزلت في حادثة الإفك أحكامًا وآدابًا من أهمها ما يأتي:

١- تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١].

٢- أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق ﷺ بحديث الإفك خيرًا لهم، حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

٣- الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

٤- تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

٥- بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور: ١٤].

٦- وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

٧- النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٧، ١٨].

٨- النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿وإِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن

---

(١) البخاري، كتاب التفسير باب ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ رقم ٤٧٥٠.

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٠

تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٩- بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيدًا له، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٢٠].

١٠- النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

١١- الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

١٢- غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات:

ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مُفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥] لكفى بها حديثًا جعل القذفة معلونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله[2].

١٣- بيان سنة من سنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٨٦) نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣).

الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين، قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

١٤- والناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[1]:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد - عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك-: إن الناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا، وقسم: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوه، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاءوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله عز وجل إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام، وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف، فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

أما القسم الثالث: فقد أشار الله عز وجل إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥، ١٦].

وقد أثبت الله عز وجل لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح، ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧).

رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب، فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة[١]، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

سابعًا: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق:

١- بشرية الرسول ﷺ:

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًّا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ، لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملاً، ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيرًا على نبوة محمد ﷺ[٢].

٢- حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى -عز وجل- أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام[٣].

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضًا كل الأسباب

---

(١) انظر: فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤١.
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧).

المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة، طاهرًا أو طاهرة، بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا[1].

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان وحمنة، وروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحا وحسانًا وحمنة، وذكره الترمذي[2] قال القرطبي: والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حُدَّ حسان ومسطح وحمنة، ولم يسمع بحد عبد الله بن أبي[3]. وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أبي أقيم عليه الحد، ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة[4].

وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي فقال:

أ- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

ب- وقيل: كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

ج- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

د- وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال في ختام كلامه ولعله تُرك لهذه الوجوه كلها[5].

٣- اعتذار حسان ﷺ للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بينت الروايات أن مَنْ خاض في الإفك قد تاب ما عدا ابن أبي، وقد اعتذر حسان ﷺ عما كان منه، وقال يمدح عائشة بما هي أهل له[6]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ... من المحصنات غير ذات غوائل

(١) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم، ص١١٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٩٧).

(٣) نفس المصدر (١٢/ ٢٠١).

(٤) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق، ص٢٤٢.

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٦٣).

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

وإن الذي قد قيل ليس بلائق بك الدهر بل قيل امرئ متناحل

فإن كنت أهجوكم كما بلغوكم فلا رفعت سوطي إلي أناملي

فكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل

وإن لهم عزًا يرى الناس دونه قصارًا، وطال العز كل التطاول[1]

٤- من الأحكام المستنبطة من غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العتق صداقًا كما فعلﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة، ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، ومنها جواز استرقاق العرب كما حدث في الغزوة وهو قول جمهور العلماء[2]، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن ورماها بما اتهمت به فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن [3]. ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث سأل الصحابة الرسولﷺ عنه فأذن به وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة» [4]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها [5]، ونزلت آية التيمم في هذه الغزوة، تنويهًا بشأن الصلاة، وتنبيهًا على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها [6].

* * *

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٢٨١.

(٢) انظر: كتاب الأم للشافعي (٤/ ١٨٦).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٦٤٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤١٥).

(٥) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٢٢٢-٢٢٤).

(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢١٠، ٢١١.

الفصل الثامن
غــــزوة الأحـــزاب ٥ هـ

المبحث الأول
تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١- تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة[(١)]، وقال الواقدي[(٢)]: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد[(٣)]: إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجرهﷺ، ونقل عن الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة، أنها وقعت سنة أربع هجرية[(٤)].

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة[(٥)] وجزم ابن حزم[(٦)] أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر إن الرسولﷺ رده يوم أحد -وهي في السنة الثالثة باتفاق- وهو ابن أربع عشر سنة[(٧)]، ولكن البيهقي[(٨)]، وابن حجر[(٩)]، وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية الرابعة عشرة ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[(١٠)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٣.

(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٤٠) بدون إسناد.

(٣) الطبقات (٢/ ٦٥، ٧٣) بإسناد متصل.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥).

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٣.

(٦) انظر: جوامع السيرة، ص١٨٥.

(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٤.

(٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٩٦).

(٩) انظر: الفتح (٣/ ٣٩٦).

(١٠) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٤.

وإلى ما ذهب إليه الجمهور وهو الراجح لديَّ مال ابن القيم حيث قال: وكانت سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أُحدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهو سنة أربع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه[1].

٢- أسبابها:

إن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار[2].

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا في مهمته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا في خيرات المدينة وفي السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكة: إن دينكم خير من دين محمد، وأنتم أولى بالحق منه[3]، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريش الوثني على دين الإسلام الذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد، فقال: (والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية)[4] ولا ريب فإن قريشًا قد سُرَّت بما سمعت من مدح لدينها، فازدادت حماسًا، وأصبحت أكثر تصميمًا على حرب المسلمين، ثم أعلنت موافقتها على هذه الدعوة والاشتراك في الحملة التي ستهاجم المدينة، وضربت لها موعدًا[5].

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٨٨) (٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص٣١٠.

(٤) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، ص١٤٢.

(٥) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، ص٣١٠.

العسكري ضد المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ- أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

ب- أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر لسنة واحدة[1].

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة، ومعه عشرة آلاف مقاتل؛ أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانيًا: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على حذر تام من أعدائه؛ لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب، ويرصد تحركاتهم، ويتابع حركة الوفد اليهودي منذ خرج من خيبر في اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولا، ثم غطفان ثانيًا، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسولﷺ في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة[2]. فأدلى سلمان الفارسي رضي الله عنه برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصد عدوان الأحزاب، فأعجب النبيﷺ بذلك، قال الواقدي -رحمه الله-: فقال سلمان: يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين)[3].

وعندما استقر الرأي -بعد المشاورة- على حفر الخندق، ذهب النبيﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش.

فقد ذكر الواقدي: أن رسول اللهﷺ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب[4] إلى راتج[5]، وقد استفادﷺ من مناعة جبل سلع[6] في حماية ظهور الصحابة.

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد احمد باشميل، ص١٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٤، ١٤٥.

(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٤)، والطبقات الكبرى (٢/ ٦٦).

(٤) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

(٥) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.

(٦) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٣٦).

كان اختيار تلك المواقع موفقًا؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرة واقم[1] من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول ﷺ وبني قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحدا، ولا يناصروا عدوًا ضده[2].

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها[3].

لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

ثالثًا: اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية:

١- لما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعال على معنويات المقاتلين؛ لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، يسخر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولي عليه القلق، مما يكون له أثر في تراجعه عن القتال؛ وبذلك تنزل الكارثة بالجميع[4].

---

(١) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز(٢/ ٢٨٣، ٢٨٥)

(٢) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤٤٢.

(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٢٦.

(٤) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص٩٨.

٢- ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر[1].

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣- وكان ﷺ يشارك الصحابة -رضي الله عنهم- في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع[2]، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله ﷺ.

٤- رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني، حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف بطبيعة الحال يحتاج إلى قدر كبير من الحزم، والجد، ولكن النبي ﷺ لم ينسَ في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي. ولهذا نجد أن النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأعادي قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها[3].

وعن أنس ﷺ أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

---

(١) انظر: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، (٥/٥٧) رقم ٤١٠٦.

(٢) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد أبو فارس، ص١١٦، ١١٧.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/٥٧) رقم ٤١٠٦.

نحـــن الـــذين بـــايعوا محمــدًا   علــى الإســلام مــا بقينــا أبــدًا

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

اللـــهم إن الخـــير خـــير الآخـــرة   فـــاغفر للأنصـــار والمهـــاجرة[(١)]

لقد كان لهذا التبسط والمرح في ذلك الوقت أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط بإنجاز العمل الذي كلفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم[(٢)].

٥- تقدير ظروف الجند والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصحابة رضي الله عنهم على قدر كبير من الأدب مع النبي ﷺ فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة في الخير واحتسابًا له، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم[(٣)]، فكان النبي ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن، ولم ير فيه مضرة على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال[(٤)].

٦- تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة: قسم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى أنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمون الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة ابن أبي جهل، بل تصدى علي لبطل قريش عمرو بن عبد ود

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤٣٢) رقم ١٢٩.

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٨٢.

(٣) انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ٣٥١).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤١٠).

وقتله[1]، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر ﷺ، فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

أ- أمر بحفر الخندق بعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا لذلك، وهي السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب- قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

ج- سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه ﷺ.

د- قسم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه، بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهارًا، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

هـ- استطاع ﷺ لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور، وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها[2]، فقد توحدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها.

* * *

(١) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، ص٥٠٤.

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عصر الرسول، ص١١.

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أن المسلمين أخذوا بكافة الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحف، إلا أن سنة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقترب النصر زاد البلاء والامتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق لأمور:

أولاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة، ولذلك انتدب النبي ﷺ الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم فذهب الزبير، فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله: رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون[1] طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم[2]. وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير -رضي الله عنهم- وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا [3] أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس [4]. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد، فرجعوا فسلموا على النبي ﷺ وقالوا: عضل والقارة[5]، فعرف النبي ﷺ مرادهم[6].

واستقبل النبي ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم واستخدام كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي ﷺ في الوقت نفسه

---

(١) يدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السير إلى المسلمين.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤٥٧). (٣) لحنًا: أي كلام لا يفهمه أحد سواي.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٩٩).

(٥) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النبي ﷺ في ذات الرجيع.

(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٥).

(سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا، وشعيرًا، وتينًا لتمدهم بها وتقويهم على البقاء إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي ﷺ[1].

ثانيًا: تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتد الكرب على المسلمين، وتأزم الموقف، وقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف، وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. وكان ظن المسلمين بالله قويًا، وقد سجله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإجحاف والتخذيل[2]، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير[3]، والآيات هي: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً ۞ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٣٢٣).

(٢) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٦) مجمع الزوائد (٦/ ١٣١).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٤).

يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۞ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٣-٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام[1].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيقة منه، ويأخذهم على حين غرة، لكن أسيد بن حضير في مائتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم، وقد حصلت مناوشات استشهد فيها الطفيل بن النعمان والذي قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلا[2]، واستطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهمًا أصاب سعد بن معاذ ﷺ في أكحله[3]، وقال: خذها وأنا بن العرقة، وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[4]. وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصالح وهو الذي سيحكم فيهم، ثم وجه المشركون كتيبة غليظة نحو مقر رسول الله ﷺ فقاتلهم المسلمون يومًا إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت كتيبة، فلم يقدر النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا، وشغل بهم النبي ﷺ فلم يصل العصر، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل، فقال رسول الله ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[5].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٥).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٢٤).

(٣) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم ١٧٦٩.

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٨) رقم ٤١١١.

ثالثًا: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان وبث الإشاعات في صفوف الأعداء:

١- سياسة النبي ﷺ في المفاوضات مع غطفان:

ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًا وعقائديًا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ[1]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي ﷺ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي ﷺ واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله ﷺ في مفاوضتهم، وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ- عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

ب- توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

ج- تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

د- يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة[2]، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟» قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[3].

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، ص٢٠١.

(٢) المصدر نفسه ص٢٠١، ٢٠٢.

(٣) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٤٧٧).

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ويحركها في جبهة القتال، ولا شك في أن اختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال، وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه؛ وبذلك استطاع ﷺ أن يفتت ويضعف من قوة جبهة الأحزاب[١].

فقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانبًا من جوانب منهج النبوة في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًا تربويًا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء[٢]، وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله ﷺ الصحابة في هذا الامر، فكان رأيهم في عدم إعطاء غطفان شيئًا من ثمار المدينة وقال السعدان -سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة-: يا رسول الله أمرًا تحبه، فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ فقال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**» فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النبي ﷺ: «**أنت وذاك**».

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا[٣]. كان رد زعيمي الأنصار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى فلا مجال لإبداء الرأي بل لا بد من التسليم والرضا.

والثاني: أن يكون شيئًا يحبه رسول الله ﷺ، باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك.

الثالث: أن يكون شيئًا عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالا للرأي.

---

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤١٣.

(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ١٧٦).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

ولما تبين للسعدين من جواب الرسول ﷺ أنه أراد القسم الثالث، أجاب سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بين أن الأنصار لم يذلوا لأولئك المعتدين في الجاهلية، فكيف وقد أعزهم الله تعالى بالإسلام، وقد أعجب النبي ﷺ بجواب سعد، وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح مع غطفان[1].

وفي قوله ﷺ: «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»[2] دليل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفًّا واحدًا، وهذا يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الإستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام[3].

وفي استشارة رسول الله ﷺ للصحابة يبين لنا أسلوبه في القيادة، وحرصه على فرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ، ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ولم ينزل به وحي[4]. إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[5].

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ- أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب- أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

ج- أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر، والرغبة القوية في قهر العدو، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه[6].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٢٥). (٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

(٣) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٨٧).

(٤) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤١٤.

(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤١٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤١٥، ٤١٦.

٢- اهتمام الرسول ﷺ ببث الخذلان في صفوف الأعداء:

استخدام النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعًا خفيًا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه، وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة»[(١)].

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة[(٢)].

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب؛ مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم.

وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب- أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[(٣)].

* * *

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١١٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠).

(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٧٧.

المبحث الثالث

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدة تضرع الرسول ﷺ ونزول النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله، وخصوصا في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا [(١)].

وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم[(٢)]، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال القرطبي -رحمه الله-: وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريبًا منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها ولا خبر عندهم بها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط[(٣)]، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إليَّ فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب[(٤)].

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحبه ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تهزم بالقتال من المسلمين، رغم تضحياتهم، ولم تهزم بعبقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (٤/ ١٨).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥/ ٥٩) رقم ٤١١٤.

(٣) الفساطيط: جمع فسطاط نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ١٤٤).

بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[(١)].

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها[(٢)].

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب، وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها[(٣)].

ثانيًا: تحري انصراف الأحزاب:

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب، وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة[(٤)]. فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب، وكرره ثلاث مرات، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحدًا بنفسه فقال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم، ولا تذعرهم عليَّ»[(٥)].

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة ﷺ: فمضيت كأنما أمشي في حمام، فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تذعرهم عليَّ، ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»[(٦)].

ويؤخذ من قصة حذيفة دروس وعبر منها:

١ - معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال، حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥-٥٩) رقم ٤١١٤.

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٠٣.

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٢.

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤) رقم ١٧٨٨.

(٥) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب رقم ١٧٨٨.

(٦) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، (٣/ ١٤١٤) رقم ١٧٨٨.

على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

٢- الانضباط العسكري الذي يتحلى به حذيفة: لقد مرت فرصة سانحة يقتل فيها قائد الأحزاب وهمَّ بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعرهم، وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه[١].

٣- كرامات الأولياء: إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين؛ لا شك هذه كرامة يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين[٢].

٤- لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان ﷺ يترفق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة قائلا: «قم يا نومان»، دعابة تقطر حلاوة، وتفيض بالحنان، وتسيل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ، وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام[٣]، وصدّق الله العظيم في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥- وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي على يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص[٤]. وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته[٥].

ثالثًا: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ونتائجها:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله لله سبحانه، وقد سجل القرآن

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٠٥، السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٦٧.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٦٧.

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٤٦.

(٤) انظر: شرح الزرقاني (٢/ ١٢٠).

(٥) انظر: من معين السيرة، ص٢٩٣.

الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائمًا لأن يغزوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور[1]؛ لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص. والذي يتدبر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمور من أهمها ما يلي:

١- تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩].

٢- التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

٣- الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة، ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

٤- حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وجهاده وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥- مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٦- بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

٧- امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله[2]، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ

---

(١) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٦٢)

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

* انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم، وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

* تغير الموقف لصالح المسلمين، فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[(١)].

* كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

* كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

* كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها[(٢)].

رابعًا: التخلص من بني قريظة:

بعد عودة النبي من الخندق ووضعه السلاح أمر الله تعالى نبيه بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب ﷺ أصحابه بالتوجه إليهم، وقد أعلمهم بأن الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب وأوصاهم بأن: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»[(٣)]. وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمسًا وعشرين ليلة[(٤)]، ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكِّم الرسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ ﷺ ونزلوا على حكمه، ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعد محمولاً؛ لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، فقضى أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ، وقال:

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، (٥/ ٥٨) رقم ٤١١٠.

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٤٢).

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٥/ ٦٠) رقم ٤١١٩.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٧٣.

«قضيت بحكم الله»[1] ونفذ حكم الإعدام في أربعمائة في سوق المدينة، حيث حفرت أخاديد وقتلوا فيها بشكل مجموعات، وقد نجا مجموعة قليلة جدا بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالهم وذراريهم على المسلمين. وهذا جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم، حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاء وفاقًا[2].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدة، ونترك السيدة عائشة -رضي الله عنها- تحدثنا عنها، قالت السيدة عائشة: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي تضحك ظهرًا وبطنًا[3]، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك وما لك؟ قالت: أقتل، قلت: ولم؟ قالت: حدثًا أحدثته[4] قالت: فانطلق بها فضربت عنقها، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل[5].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر، واضمحل حلم قريش؛ لأنها كانت تعول، وتؤمل في يهود بأن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمد المنافقين بأسباب التحريض والقوة[6].

إن حماية الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية من العابثين منهج نبوي كريم رسمه الحبيب المصطفى للأمة المسلمة.

* * *

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع رسول الله من الأحزاب (٥/ ٦١) رقم ٤١٢١.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٥- ٣١٧).

(٣) ظهرًا وبطنًا: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.

(٤) طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلها رسول الله ﷺ به.

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٧٧.

(٦) انظر: سيرة الرسول، دروزة (٢/ ٧٦) نقلا عن دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص١٥٣.

المبحث الرابع

فوائد ودروس وعبر

أولاً: المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات حسية للنبي ﷺ، منها تكثير الطعام الذي أعده جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: إنا يوم الخندق مُحفِّر[1]، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل[2] أو أهيم[3].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق[4]، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة[5]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[6]. قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال «كثير طيب»، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحكِ جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال «ادخلوا ولا تضاغطوا»[7] فجعل يكثر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة»[8].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما،

---

(١) محفر: اسم فاعل من حفَّر.

(٢) أهيل: رملاً سائلاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٩).

(٣) أهيم: الرمل الذي لا يتمالك، انظر: لسان العرب (٣/ ٨٥٨).

(٤) العناق: الأنثى من أولاد الماعز، انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١٠).

(٥) البرمة: هي القدر مطلقًا، انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ١٢١).

(٦) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها، انظر: القاموس المحيط (٣/ ١٢٠)

(٧) ولا تضاغطوا: أي لا تزاحموا. انظر: لسان العرب (٢/ ٥٣٧).

(٨) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٥) رقم ٤١٠١.

قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالي يا بنية ما هذا معك؟ فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: هاتيه، قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغذاء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[1].

ففي هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة للرسول ﷺ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقل عنهم القوت، وأصاب الناس جوع وحرمان حتى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام[2].

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق إخباره ﷺ عمار بن ياسر- وهو يحفر معهم الخندق- بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي[3]، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتتت قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة»، ثم ضربها الثانية فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة»[4]. وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس[5].

ثانيًا: بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟ قال: نعم، يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ، بالخندق[6]، ثم ذكر حديث تكليفه

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤١). (٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١٧٥.

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٤٩. (٥) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٢٥).

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٥٥)

بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل من يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلا عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «خير القرون قرني» فبين أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًا، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر، وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض[1].

ثالثًا: سلمان منا أهل البيت[2]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت[3]، وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يشعر بأن سلمان من المهاجرين؛ لأن أهل البيت من المهاجرين[4].

رابعًا: الصلاة الوسطى:

قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[5].

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي[6].

قال الدكتور البوطي: لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس. وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن

---

(١) انظر: من معين السيرة للشامي، ص٢٩١.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٢٤٧) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير.

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٠٨).

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم ٤١١١.

(٦) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٨٢).

الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تباعًا بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها، وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً وركبانًا عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ على فرض صحته ليس واردًا على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخًا لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة[1].

خامسًا: الحلال والحرام:

عرضت قريش فداء مقابل جثة عمرو بن ود، فقال ﷺ: «**ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئًا**».

حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟[2]

سادسًا: شجاعة صفية عمة الرسول ﷺ:

كان ﷺ قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم؛ لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ أرسلت يهوديًا ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم، فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ فأخذت عمودًا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، فكان هذا الفعل من صفية رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال[3]، ففي هذا الخبر دليل للمرأة في الدفاع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها[4].

سابعًا: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان ﷺ:

ففي قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لليهودي جاء في رواية سندها ضعيف[5] أن

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، ص٢٢٣.

(٢) انظر: من معين السيرة، ص٢٩٤.

(٣) انظر: الرحيق المختوم، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/٢٤٦).

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٦٥.

صفية -رضي الله عنها- قالت لحسان بن ثابت: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفية: فلما قال ذلك، احتجزت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني أن استلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب[1].

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١- من حيث الإسناد فالخبر ليس مسندًا، وهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى، فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

٢- لو كان حسان بن ثابت ﷺ معروفًا بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية، والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين[2].

ثامنًا: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام[3]، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام:... وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصاب سعد بن معاذ السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب»[4].

ويفهم من النص السابق أن من أصيب من المسلمين إن كان له أهل اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسي، ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٦٥. (٢) انظر: غزوة الأحزاب، الدكتور أبو فارس.

(٣) انظر: المستشفيات الإسلامية، الدكتور عبد الله السعيد، ص٤٣.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).

باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلم ضربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ[1]، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستورًا للمسلمين على مدى الزمن.

تاسعًا: المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر -وكانوا حلفاءه- فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقه يعني الذبح، ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطًا بالجذع في المسجد ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع[2]، وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت: قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك. قال: تيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئتِ، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده. فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه[3]. وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سرًا حربيًا خطيرًا، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح، وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكر رقابة الله عليه وعلمه بما يسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعًا عظيمًا[4]، وأقر بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة، إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

---

(١) انظر: من معين السيرة، ص٢٩٤.
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٦٥).

السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق. وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشرته بقبول الله توبته[1]. وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]. ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢][2].

عاشرًا: من فضائل سعد بن معاذ ﷺ:

ظهرت لسعد بن معاذ ﷺ في هذه الغزوة فضائل كثيرة تدل على فضله ومنزلته عند الله ورسوله ﷺ منها:

* استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك)، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه، وتماثل للشفاء[3] حتى كانت غزوة بني قريظة، وكان سعد قد دعا أيضًا: (ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[4]، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم، وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى[5].

* ومن إكرام رسول الله ﷺ قوله للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»[6]. وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته حيث سماه سيدًا، وأمر بالقيام له[7].

* وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا والمشركين)، فإن كنت قد

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٦١.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٣/ ٢٦٢).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٨.

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم ١٧٦٩.

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).

(٧) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٦٥.

وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها[1]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله[2]. ومن خلال دعائه الأول والثاني، نلحظ هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته[3].

* ونرى من سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السماوات والأرض، فقد شاءت إرادة المولى تعالى أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

* إنه لم يحرص كثيرًا على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسئولية وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحروب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدا قطف الثمار للإسلام فلا ثمرة أشهى من الشهادة (فافجر جرحى واجعل موتي فيه)[4].وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر[5]. وعندما انفجر جرحه نقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم، فقال: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة، فانتهى إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدًا حزامة وجدًا

فقال: كل نائحة تكذب إلا أم سعد، ثم خرج به، وقال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخف علينا منه قال: «وما يمنعه أن يخف؟ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم»[6].

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال ﷺ: «هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضم ضمة ثم أفرج عنه»[7] يعني سعدًا.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٧٥).

(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٨.

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٠).

(٤) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧١).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٧٤).

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) إسناده حسن.

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٥) إسناد صحيح، أخرجه النسائي (٤/ ١٠٠) في الجنائز.

وها هو رسول الله ﷺ يودع سعدًا كما روى عبد الله بن شداد: دخل رسول الله ﷺ وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيرًا من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك»[1].

* لقد أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيرًا أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به[2]، فقد قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[3] وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونه ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»[4].

ومع كل هذه المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد رضي الله عنه نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع في قبره، تغير وجه رسول الله ﷺ وسبح ثلاثًا، فسبح المسلمون حتى ارتج البقيع ثم كبَّر ثلاثًا، وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر، وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرج الله عنه»[5].

إن هذا الصحابي الجليل قد استُشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره، فقد كانت هذه السيادة في العشرينيات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تنفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين التي هي غاية الرشد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السماوات بقدومه، واهتز عرش الرحمن فرحًا لوفاته، من دون خلق الله أجمعين[6]. كان سعد بن معاذ، رجلا أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية[7]، رحمة الله عليه ورضي عنه، وأعلى ذكره في المصلحين.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) رجاله ثقات.
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧١).
(٣) مسلم، فضائل الصحابة رقم ٢٤٦٦.
(٤) مسلم، فضائل الصّحابة، رقم ٢٤٦٨.
(٥) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧٧)، نقلا عن مسند الإمام أحمد (٦/ ١٤١).
(٦) انظر: القيادة الربانية (٤/ ٧٨).
(٧) انظر: سير النبلاء (١/ ٢٩٠).

حادي عشر: مقتل حيي بن أخطب وكعب بن أسد:

١- مقتل حيي بن أخطب النضري:

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب، فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة إلى أن قال: فلما فض الله جموع الأحزاب انطلق -يعني حيي- حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفًا بعد، فقال حيي للنبي ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل، فأمر به النبي ﷺ فضربت عنقه[1]. ثم أنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه[2].

وفي مقتل حيي بن أخطب دروس وعبر منها:

أ- لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله: فقد ألَّب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ وطعْنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وكبته، وفي النهاية قادته محاولاته إلى حتفه. إن الله لا يهمل الظالمين، ولكن يمهلهم ويستدرجهم حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكان أخذه أليمًا شديدًا قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[3] ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ب- التجلد في مواطن الشدة: لقد تجلد حيي وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولا يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ج- من يخذل الله يخذل: إن الله تعالى إذا خذل أحدًا ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أن عداوة حيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد؛ ولذلك عبر حيي صراحة أن الله

---

(١) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٧١) رقم ٩٧٢٧.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٢/ ١١٢).

لم يكن معه يومًا من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدوًا لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومُسْلِمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأن إرادة الله هي النافذة، وقدره هو الكائن، لا رادَّ لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[1]. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

٢- مقتل كعب بن أسد القرظي:

وجيء برئيس بني قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله ﷺ عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي: قال رسول الله ﷺ: «كعب بن أسد؟». قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم. قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقًا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟». قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود. فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضربت[2].

ومما ترويه كتب السيرة النبوية عن يهود بني قريظة أنهم كانوا يرسلون طائفة تلو طائفة لتضرب أعناقهم، وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد فقالوا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل[3].

ونلحظ خبر مقتل كعب بن أسد، أنه كان متعصبًا ليهوديته وهو يعلم بطلانها، وأنه على علم بصدق رسالة رسولنا ﷺ ولكنه لم يؤمن ولم يدخل الإسلام خوفًا من أن تعيره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم إيمانه وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا دليل على السفه والحمق وخذلان الله لهذا اليهودي المخادع[4].

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل:

١- شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: هب لي الزبير اليهودي أجزه، فقد كانت له عندي يد يوم بعاث، فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبد

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٣، ١١٤).

(٢،٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٦٨).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٥).

الرحمن، هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل ينكر الرجل أخاه، قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث، قال: فافعل، فإن الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله ﷺ فوهبك لي، فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لي قائد، وقد أخذتم امرأتي وابني، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط لي فيه أعذق، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فوهبه له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد رد إليك رسول الله أهلك ومالك، فأسلم تسلم، قال: ما فعل الجليسان؟[1] وذكر رجال قومه، قال ثابت: قد قتلوا وفُرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ﷺ فأمر بالزبير فقُتل[2].

٢- شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل القرظي:

كانت سلمى بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة ابن سموأل القرظي، وكان رجلا قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته[3]. وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها، هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير[4].

ثالث عشر: من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»[5]، فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يصل إلا في بني قريظة، ولم يعنف النبي ﷺ أحدًا منهم أو عاتبه، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذورًا ومثابًا، كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم[6].

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٧٢). (٢،٣) المصدر نفسه (١/ ٣٧٣).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٦).

(٥) البخاري، كتاب المغازي، (٥/ ٦٠) رقم ٤١١٩. (٦) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٢٦.

إن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنيًا محتملاً؟... ولو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بألا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت؟[1] وفي الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصه، وفيه أيضا أن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطئ، فقد قال ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»[2].

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت وقت الصلاة توجيهًا لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها[3].

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد؛ لأنه ﷺ لم يعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم[4].

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١- جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت من السيوف ألفًا وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفًا وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عددًا كبيرًا من الشياه والإبل وأثاثًا كثيرًا وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دنانًا من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطي أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهمًا، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهمًا واحدًا له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى[5].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٢٦.
(٢) سنن أبي داود (٣٥٥٧).
(٣) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).
(٤) اختصار من فتح الباري (٧/ ٤٧٣).
(٥) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٦، ٩٧).

وأما ما وجد رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئًا، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى، وأعطى سهمه لورثته[1]، ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني قريظة[2]، كما رضخ رسول الله ﷺ للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ[3]، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[4]، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب: ٢٧].

قال الأستاذ محمد دروزة: أما عبارة «وأرضا لم تطؤوها» فقد قال المفسرون: إنها أرض خيبر، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها[5]. هذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة ﷺ بالخمس من الذرية والنساء إلى الشام فباعها، واشترى بالثمن سلاحًا وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجد سعد بن زيد فباع سبيًا واشترى سلاحًا[6].

٢- **إسلام ريحانة رضي الله عنها**: وكان من بين السبي ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة قد أراد الرسول ﷺ أن يتزوجها بعد أن تسلم، فترددت، وبقيت وقتًا على دينها، ثم شرح الله صدرها للإسلام فأسلمت، فبعثها إلى بيت أم منذر بنت قيس حتى حاضت ثم طهرت، فجاءها وخيَّرها: أيعتقها ويتزوجها أو تكون في ملكه ﷺ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها[7].

خامس عشر: الإعلام الإسلامي في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصحابة بدورهم الجهادي، فقالوا قصائد رائعة وضحوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب، نقتطف منها أبياتًا منها كنماذج لهذه القصائد، فمن ذلك قول كعب بن

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٩٧).

(٢،٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٧٥).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).

(٥) انظر: سيرة الرسول لعزة دروزة (٢/ ٢٠٢).

(٦) انظر: الصرع مع اليهود (٢/ ٩٨).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٩٩).

مالك، أخو بني سلمة:

وسائلة تسائل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عدلاً ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزير صدقٍ ... به نعلو البرية أجمعينا
نقاتل معشرا ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا[1]
نعالجهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يعجل المتسرعينا
ترانا في فضافض سابغات ... كغدران الملا متسربلينا[2]

إلى أن قال:

لننصر أحمدًا والله، حتى ... نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى المؤمنينا
فإما تقتلوا سعدًا سفاها ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانا طيبات ... تكون مقامة للصالحينا
كما قد ردكم فلا شريدًا ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيرًا ... وكدتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم ... فكنتم تحتها متكمهينا[3]

* * *

(١) المرصد: المعد للأمر عدته.
(٢) متسربلينا: بلبسون الدروع
(٣) متكمهينا: العمى الذين لا يبصرون.

الفصل التاسع

غــــزوة خيـبـر

أولاً: تاريخها وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق[1] أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي[2] أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد[3] إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبعٍ، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة[4]، وقد رجح ابن حجر[5] قول ابن إسحاق على قول الواقدي[6].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذي حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافيًا لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال، وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم[7].

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[8].

وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافيًا في جرها إلى الصراع والتصدي والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب، حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك، ثم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤٥٥)، معلقًا.

(٢) انظر: المغازي (٢/ ٦٣٤).

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٠٦).

(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٣)

(٥) انظر: الفتح (١٦/ ٤١)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٠.

(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٠.

(٧) انظر: السيرة النبوية الأصلية، (١/ ٣١٩).

(٨) المصدر نفسه (١/ ٣١٩).

سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب[1]، بل إنهم أنفقوا أموالهم واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم[2]، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية.

تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدًا إلهيًا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة[3]، قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠، ٢١].

ثانيًا: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلا: **«أيها الناس.. إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»**[4].

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلا، فقد قال سلمة بن الأكوع ﷺ: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً[5]، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك[6] ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا السائق؟»** قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: **«يرحمه الله»**.

قال رجل -وهو عمر بن الخطاب[7]- من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا متعتنا به[8].

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء، وهي من أدنى خيبر، صلى العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثري، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).
(٢، ٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٤٩).
(٤) البخاري، كتاب الدعوات رقم ٦٣٨٤.
(٥، ٦) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦.
(٧) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٦).
(٨) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤١٩٦.

فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ[1].

وكانﷺ قد بعث عباد بن بشر ﷺ في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عينًا لليهود من أشجع فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها، قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء وأنى يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم[2].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر قال رسول اللهﷺ لأصحابه: قفوا. ثم قال: **«اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها»**، اقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها[3].

ولما أدرك رسول اللهﷺ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان[4].

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم[5] ومكاتلهم[6]، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبيﷺ: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**[7].

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٣٠). (٢) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٤٠: ٦٤١).

(٣) انظر: المستدرك (٢/ ١٠٠) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٤٥).

(٥) المساحي: جمع ومفردها مسحاة، والمسحاة: المجرفة من الحديد.

(٦) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.

(٧) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢١٠.

ثالثًا: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحدًا تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة، وأبى النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم[1].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استُشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن[2]، والذي استغرق فتحه عشرة أيام[3]، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله ﷺ إنه سيدفع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب ﷺ ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه[4]، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ[5]، ولقد أوصى الرسول ﷺ عليًّا بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم»[6] وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منكم دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله»[7].

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب وكان سببًا في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله[8]، مما أثر سلبيًّا في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم[9].

ووردت مجموعة من روايات تخبر بأن عليًّا ﷺ تترس بباب عظيم كان عند حصن ناعم بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده، وكلها روايات ضعيفة[10]، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير[11].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠١.

(٢) نفس المصدر، ص٥٠١.

(٣) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٧).

(٤) انظر: المستدرك (٣/ ٣٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٥) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٦.

(٦) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٦.

(٧) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٥.

(٨،٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ٥٠٢.

(١٠، ١١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٤).

توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود، فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود، ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشق وبدءوا بحصن أبي فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القموص المنيع وحصن الوطيح وحصن السلالم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح[١].

وهكذا فتحت خيبر عنوة[٢] استنادًا إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري[٣] ومسلم[٤]، وأبو داود[٥] من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة[٦].

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فدك في شمالي خيبر إلى طلب الصلح، وأن يسيرهم ويحقن دماءهم، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم[٧]، فكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ؛ لأنه لا يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي[٨]، ثم استسلمت، فغنم المسلمون أموالا كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى[٩]. وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلا[١٠]، وسبيت النساء والذراري منهن صفية بنت حيي بن أخطب فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها[١١].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلا فيما ذكر ابن إسحاق[١٢]، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي[١٣].

---

(١) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٨- ٦٧١).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٤.
(٣) نفس المصدر، ص٥٠٤.
(٤) مسلم (٣/ ١٤٢٧) رقم ١٣٦٥.
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٤.
(٦) نفس المصدر، ص٥٠٤.
(٧) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٩٩).
(٨) انظر: تاريخ خليفة ٨٥ نقلا عن ابن إسحاق.
(٩) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).
(١٠) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٤.
(١١) مسلم،كتاب النكاح (٢/ ١٠٤٥).
(١٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٧).
(١٣) انظر: المغازي (٢/ ٧٠٠).

رابعًا: الأعرابي الشهيد، والراعي الأسود، وبطل إلى النار:

١- **الأعرابي الشهيد:** جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به، واتبعه، فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسمه، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك» قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي هاهنا، وأشار إلى حلقه، بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك، ثم نهض إلى قتال العدو، فأُتي به إلى النبي ﷺ وهو مقتول، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه». فكفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدمه، فصلى عليه، وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قُتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد»[1].

٢- **الراعي الأسود:** وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله» قال العبد: فما لي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل، قال: «لك الجنة إن مت على ذلك»

فأسلم ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك» ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود واحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصل لله سجدة قط»[2].

٣- **بطل لكنه إلى النار** كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة[3] إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله ﷺ «أما إنه من أهل النار» فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبدًا، فاتبعه

---

(١) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥)، والبيهقي (٤/ ١٥، ١٦)، وإسناده صحيح نقلا عن زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٩).

(٣) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.

حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك» فأخبره، فقال النبيﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة»[1].

خامسًا: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله يوم فتح خيبر، فقبله رسول اللهﷺ بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»، وكانﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين[2]، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: بلغنا مخرج النبيﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا السفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعًا، فوافقنا النبيﷺ حين افتتح خيبر[3].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عامًا، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة -وقد فاتهم هذا كله- أقل قدرًا من غيرهم[4].

فعن أبي موسى: كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة -وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر- فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء: ابنة عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاءت النبيﷺ قالت: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم،

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٤٢٠٧.
(٢) انظر: معين السيرة، ص٢٥٣.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٣٠، ٤٢٣١.
(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٣٥٠.

وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»[1]. فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا[2]، كما قالت: يأتون أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي ﷺ[3]. وقد أشركهم النبي ﷺ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة رضي الله عنهم الذين شاركوا في فتحها[4].

سادسًا: تقسيم الغنائم:

١- كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكون من:

أ- الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها[5].

ب- الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم، لقد أخذ رسول الله ﷺ خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج- السبي: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيرًا من نساء اليهود، ووزع السبي على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د- أما الأراضي والنخيل فقد قسمها النبي إلى ستة وثلاثين سهمًا، وجمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه، وما ينزل به من أمور المسلمين[6].

هـ- وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة فطلب اليهود ردَّها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة[7].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٣١.

(٢) انظر: فقه السيرة للغضبان، ص٥٣٥.

(٣) مسلم، فضل الصحابة، رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣.

(٤) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس، (٣/ ٩٦).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٤٠).

(٦) المصدر نفسه (٣/ ١٤١، ١٤٢).

(٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤١٩).

وقد أبقى رسول الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم، ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي ﷺ وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن هم بإخراجهم منها[1].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسة جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود وبخاصة أنهم لن يأخذوا أجرًا، ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قل أو كثر.

وقد ضمن الرسول -بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون- إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئًا يضر بالمسلمين سيطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبدًا.

وقد حدث ذلك فعلا في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حيث اعتدوا على عبد الله ابن عمر ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه، فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم[2]. وحاول يهود خيبر أن يخفوا الفضة والذهب وغيبوا مسكًا[3] لحيي بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة، وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فسأل رسول الله ﷺ سعية عم حيي بن أخطب: أين مسك حيي بن أخطب؟ قال: أذهبته الحروب والنفقات[4].

فقال رسول الله ﷺ: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام، فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك دخل خربة، فقال عمه: قد رأيت حييًا يطوف في خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة[5]. وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه[6]، وأرادوا أن يرشوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٨).

(٢) انظر: تأملات في سيرة الرسول، لمحمد سيد الوكيل، ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٣) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٦).

(٥) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي)، ص٤٢٤.

(٦) الخرص: الحرز والحدس والتخمين، وخرص العدد: قدره تقديرًا بظن لا إحاطة.

بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[1].

لقد أصبحت خيبر ملكًا للمسلمين وصارت موردًا مهمًّا لهم، قال ابن عمر ﷺ: ما شبعنا حتى فتحت خيبر[2]، وقد تحسن الوضع الاقتصادي بعد خيبر، ورد المهاجرون المنائح التي أعطاهم إياها الأنصار[3] من النخل.

سابعًا زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص -حصن بني أبي الحقيق- كانت صفية في السبي فأعطاها دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي ﷺ ما أشار به الرجل، وقال لدحية، خذ جارية من السبي غيرها[4]، ثم أخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وجعل عتقها صداقها[5]، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها[6]، وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها، فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي ﷺ وبنى بها، فسألها: «**ما حملك على الامتناع من النزول أولا**» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ له خلفه ومد عليها الحجاب، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين[7].

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي -رحمه الله- بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: «**يا صفية ما هذه الخضرة؟**» فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب[8].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (المغازي)، ص٤٢٤.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، غزوة خيبر رقم ٤٢٤٣.

(٣) انظر: معين السيرة، ص٣٥٢.

(٤، ٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٣).

(٦) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٠١).

(٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).

(٨) انظر: السنن الكبرى (٩/ ١٣٨) نقلا عن الصراع مع اليهود (٣/ ١٠٣).

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسول الله ﷺ وأعتقها من النار، وجعلها أمًّا للمؤمنين، وزوجًا في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين[1]، وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب[2].

وهذه صفية رضي الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحدًا قط أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: **«يا هذه مهلاً»**[3].

وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ﷺ فأخبرته فقال: **«ألا قلتِ: وكيف تكونان خير مني وزوجي محمد وأبي هارون، وعمي موسى»**[4].

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله ﷺ وأصبح ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليمًا معافى، فقد أخرج ابن سعد - رحمه الله- بإسناد حسن عن زيد بن أسلم ﷺ قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ فقال: **«مضمضن»** فقلن: من أي شيء فقال: **«من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»**[5].

ومما له صلة بزواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله ﷺ يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق.. فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ فلما رأى مكانه قال: **«ما لك يا أبا أيوب؟»** قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك[6]، فسر رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبئ على غاية الحب، والإيمان، وقال: **«اللهم**

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٢٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٤٥).

(٤، ٥) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٣٣).

(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).

احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني»[1].

وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعًا لغريزة، كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، قد قتل أبوها من قبل، وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد[2]، وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب ﷺ فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها[3].

ثامنًا: محاولة أثيمة لليهود.. الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة ﷺ: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ «اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود» فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ «إني سائلكم عن شيء فهل أنت صادقي عنه؟». فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم؟». قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ «كذبتم بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبررت. فقال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ «من أهل النار؟». فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا. فقال لهم رسول الله ﷺ «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا». ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم. فقال: «هل جعلتم في الشاة سمًّا». فقالوا: نعم. فقال: «ما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[4].

قال صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

(٢، ٣) المصدر نفسه (٢/ ٣٨٥).

(٤) البخاري، كتاب الجهاد والسير (٤/ ٧٩) رقم ٣١٦٩.

امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها[1].

وفي مغازي عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله ﷺ، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا أكون رغمتها وفيها بغي[2].

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك علي» قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم[3].

وقد اختلف في قتل المرأة والصحيح أنه لما مات بشر قتلها[4]، ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قويًا جدًا إذ مات بشر بن البراء فورًا، وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها[5]. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[6] من ذلك السم»[7].

تاسعًا: الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن أكاتبهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك، وقلت شيئًا؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، أو أصيبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحًا وسرورًا، قال: وبلغ الخبر العباس ﷺ فقعد، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

---

(١) انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣).

(٢) انظر: مغازي رسول الله، لعروة بن الزبير، ص١٩٨.

(٣،٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).

(٥) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٢١).

(٦) أبهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٧) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٩/ ١٥٩- ١٩٦) طبعة الحلبي.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابنًا له يشبه رسول الله ﷺ يقال له، قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حـــبي قـــثم، حـــبي قـــثم   شـــبيه ذي الأنـــف الأشـــم

نـــبي رب ذي الـــنعم   بـــرغم أنـــف مـــن رغـــم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج فقال: ويلك ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحًا، حتى قبل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه، قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته[1]، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي ﷺ فأذن لي، فأخف عليَّ يا أبا الفضل ثلاثًا، ثم اذكر ما شئت[2]، فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعه، فدفعته إليه، ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يًا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل، لا يخزني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقًا، قال فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك، فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ مر بهم: لا يصيبك إلا خيرًا يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هاهنا، ثم يذهب، قال: فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئبًا حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر، وسر المسلمون ورد الله تبارك وتعالى ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين[3]. وفي هذا الخبر فقه غزير منه: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٤٥٩.   (٢) انظر: تاريخ الذهبي (المغازي)، ص٤٣٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٨، ١٣٩) عبد الرزاق في المصنف رقم ٩٧٧١، وأبو يعلى برقم ٣٤٧٩، والبيهقي في السنن (٩/ ١٥١)، والدلائل (٤/ ٥٢٦٦، ٥٢٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٥٤، ١٥٥) رواه أحمد، وأبو يعلي، والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في البداية (٤/ ٢٣) عن سند أحمد: وهذا الإسناد على شرط الشيخين، نقلا عن صحيح السيرة النبوية، ص٤٦٠.

غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولاسيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سببًا في حصول هذه المصلحة الراجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكام شرعية كثيرة منها:

١- **تحريم أكل لحوم الحمر الأنسية:** عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول اللهﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية[١].

٢- **حرمة وطء السبايا الحوامل:** قال رسول اللهﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره»**[٢].

٣- **حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:** قال رسول اللهﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها»**[٣].

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط، ولا تجب عليها العدة وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حيًا؛ لأن العدة وفاء الزوج الميت وحداد عليه، ولا يجد على الكافر كما علمت[٤].

٤- **حرمة ربا الفضل:** عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول اللهﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب فقال رسول اللهﷺ: **«كل تمر خيبر هكذا؟»** فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: **«لا تفعل بِع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا»**[٥]. فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعًا بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا، وهذا محرم، كما رأيت إذ نهى النبيﷺ عن ذلك وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر؛ لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا[٦].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢، ١٢٣) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢١٥.

(٢) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣).

(٣) انظر: الروض الأنف (٤/ ٤١).

(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).

(٥) البخاري كتاب المغازي رقم ٤٢٤٤.

(٦) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).

٥- حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين: روى عن عبادة بن الصامت أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال «ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين»[(١)]. والمراد من الحديث: أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترط المماثلة، كما هو معلوم وثابت في الصحاح[(٢)].

٦- مشروعية المساقاة والمزارعة: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها[(٣)].

وقد تساءل بعض الباحثين: لِمَ جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟ وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحًا جديدًا بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيرًا في يثرب[(٤)].

٧- حل أكل لحوم الخيل: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخص في الخيل[(٥)].

٨- تحريم المتعة: عن علي ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الأنسية[(٦)].

٩- مشاركة المرأة في غزوة خيبر: روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا -وهو السير إلى خيبر- فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم مني وكانت أول حيضة حضتها، قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: **«ما لك؟ لعلك نفست؟»** قالت: قلت: نعم؟ قال: **«فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء**

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (٤/ ٤١).

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٢١.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢٤٨.

(٤) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤)، الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦).

(٥) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢١٩.

(٦) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢١٦.

فاطرحي فيه ملحا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبدًا[1]، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها، قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت[2]. وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين[3].

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ تعليمًا وتربية للأمة في السلم والحرب على معاني العقيدة وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويًا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم[4]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق؛ ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق له من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي[5].

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمر عليها ﷺ كبار الصحابة، وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال[6].

* * *

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٣) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، ص٥٣٤.

(٤) انظر: نضرة النعيم، (١/ ٣٥٣).

(٥) المصدر نفسه، (١/ ٣٥٣).

(٦) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٢٢١.

الفصل العاشر

سـرية مؤتـة (٨هـ)

أولاً: أسبابها وتاريخها:

أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب من قضاعة التي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعًا من الحصار الاقتصادي عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥هـ) لكنه وجدهم قد تفرقوا، كما أن رجالا من جذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحسمى بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى حسمى في سنة ٦هـ، ويضاف إلى ذلك أيضا ما قامت به قبيلتا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (٦هـ)، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثة بغرض الدعوة إلى الله، وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحنى أكثر خطورة[1]، بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى حاكم (بصرى) التابع لحاكم الروم، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغساني بضرب عنق رسول رسول الله، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة، ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلا عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له (ذات أطلاح) فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة من كل مكان وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعًا إلا أميرهم، كان جريحًا فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة فأخبر رسول الله ﷺ[2]، وقد قام نصارى الشام بزعامة الإمبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام[3].

كانت هذه الأحداث المؤلمة وبخاصة مقتل سفير رسول الله الحارث بن عمير الأزدي، محركة لنفوس المسلمين، وباعثًا ليضعوا حدًّا لهذه التصرفات النصرانية العدوانية، ويثأروا

---

(١) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد سالم، ص٨٧.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٠٣).

(٣) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٣٩) نقلا عن الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص٢٠.

لإخوانهم في العقيدة الذين سُفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله[١]. كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم أصبح هدفًا مهمًا، لأن تحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم في المستقبل، وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة[٢].

وفي سنة ٨هـ أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتجهز للقتال، فاستجابوا للأمر النبوي وحشدوا حشودًا لم يحشدوها من قبل، إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، واختار النبي ﷺ للقيادة ثلاثة أمراء على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة[٣]، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ **إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة**[٤].

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإسلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي ﷺ وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا استعينوا بالله عليهم وقاتلوهم[٥].

وقد زود الرسول ﷺ الجيش في هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال في الإسلام[٦]، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله: **«أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناء، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب...»**[٧].

ثانيًا: وداع الجيش الإسلامي:

لما تجهز الجيش الإسلامي وأتم استعداده، توجه رسول الله ﷺ والمسلمون يودعون الجيش، ويرفعون أكف الضراعة لله عز وجل أن ينصر إخوانهم المجاهدين، لقد سلموا عليهم

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص٢٠.
(٢) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص٨٩.
(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٢٠.
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٠٢) رقم ٤٢٦١.
(٥) انظر: السيرة الحلبية (٢/٧٨٧).
(٦) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٢١.
(٧) انظر: المغازي (٢/٧٥٧،٧٥٨).

وودعوهم بهذا الدعاء: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين[1].

ولما ودع الناس عبد الله بن رواحة وسلموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة، فتعجب الناس من ذلك، وقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا وصبابة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فلست أدري كيف بي بالصدر بعهد الورود، فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فراغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا[2]

وودع رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله ﷺ:

يثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذي نصروا

إني تفرست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[3]

ثالثًا: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لما وصل الجيش الإسلامي إلى معان من أرض الشام -وهي الآن محافظة من محافظات الأردن- بلغه أن النصارى الصليبيين من عرب وعجم قد حشدوا حشودًا ضخمة لقتالهم، إذ حشدت القبائل العربية مائة ألف صليبي من لخم وجذام وبهراء وبلى، وعينت لهم قائدًا هو مالك بن رافلة، وحشد هرقل مائة ألف نصراني صليبي من الروم فبلغ الجيش مائتي ألف مقاتل، مزودين بالسلاح الكافي يرفلون في الديباج لينبهر المسلمون بهم وبقوتهم[4]، ولقد قام المسلمون في معان يومين يتشاورون في التصدي لهذا الحشد الضخم فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله ﷺ في المدينة نخبره بحشود العدو، فإن شاء أمدنا بالمدد، وإن شاء أمرنا بالقتال[5]، وقال بعضهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف فإنه لا يعدل العافية شيء[6]، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: (يا

(١، ٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢١).

(٣) انظر: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٤) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٧١). (٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٨٢).

(٦) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/٣٩٦).

قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون؛ الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين، واندفع زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجل فيها القادة الثلاثة بطولة عظيمة انتهت باستشهادهم[(١)]، فقد استبسل زيد بن حارثة وتوغل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم[(٢)].

ثم أخذ الراية جعفر وانبرى يتصدى لجموع المشركين الصليبيين، فكثفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فلم تلن له قناة، ولم تهن له عزيمة، بل استمر في القتال، وزيادة في الإقدام ونزل عن فرسه وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردًا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذا لاقيتها ضرابها[(٣)]

لقد أخذ ﷺ اللواء بيده اليمنى فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه وانحنى عليه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولقد أُثخن ﷺ بالجراح إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، وليس من بينها جرح في ظهره بل كلها في صدره[(٤)].

روى الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- قال: كنت في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة أو رمية[(٥)].

ولقد عوض الله -تبارك وتعالى- جعفر بن أبي طالب ﷺ وأكرمه على شجاعته وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عامر قال: كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين[(٦)].

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب استلم الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري ﷺ

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٦٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٥).

(٣) المصدر نفسه (٤/٢٦).

(٤) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٥٨.

(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٠٢) رقم ٤٢٦١.

(٦) البخاري، كتاب المغازي، (٥/١٠٣) رقم ٤٢٦٤.

وامتطى جواده، وهو يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه	لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب[1] الناس وشدوا الرنة[2]	ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة	هل أنت إلا نطفة في شنة
يا نفس إلا تقتلي تموتي	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلي فعلهما هُديت[3]

ويذكر أن ابن عم لعبد الله بن رواحة قد قدم له قطعة من لحم وقال له: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذها من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع جلبة وزخامًا في جبهة القتال، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدنيا؟ ثم ألقى قطعة اللحم من يده وتقدم يقاتل العدو حتى استُشهد ﷺ، وكان ذلك في آخر النهار[4].

رابعًا: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائدًا:

ولما استشهد عبد الله بن رواحة ﷺ، وسقطت الراية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان البلوي الأنصاري، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد[5]. وجاء في إمتاع الأسماع أن ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان، فقال: لا آخذه، أنت أحق به، أنت رجل لك سن، فقد شهدت بدرًا، فقال ثابت: خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد بن الوليد ﷺ[6]. وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد في تلك الساعة العصيبة من القتال، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدرًا دقيقًا، ودرس ظروف المعركة درسًا وافيًا وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل، فقوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفًا لقوة المسلمين، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:

أ- الحيلولة بين جيش الروم وجيش المسلمين، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب- لبلوغ هذا الهدف، لا بد من تضليل العدو بإيهامه أن مددًا ورد إلى جيش المسلمين فيخفف من ضغطه وهجماته، ويتمكن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالد

---

(١) إن أجلب الناس: صاحوا واجتمعوا.
(٢) الرنة: صوت ترجيع شبه البكاء.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٦، ٢٧).
(٤) انظر: الصرع مع الصليبيين، ص٦١.
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٤/ ٢٧).
(٦) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٣٤٨، ٣٤٩).

حتى المساء عملا بهذه الخطة، وغير في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو، عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليدخل في روعه إن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين[1].

ونجحت الخطة؛ إذ بدا للعدو صباحًا أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشًا جديدًا نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فت في عضد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخف الضغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب، وكانت عملية التراجع التي قام بها خالد في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحًا، بل إنها تتفق وتتلائم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحان بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كليًا[2]، ويقول المؤرخون: إن خسارة المسلمين لم تتعد الاثني عشر قتيلا في هذه المعركة، وأن خالدًا قال: (لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي إلا صفيحة يمانية)[3].

ويمكن القول إن خالدًا بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة وقتل محقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب في ظروف مماثلة أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها[4].

خامسًا: معجزة للرسول ﷺ وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزة للرسول ﷺ في أمر هذه السرية، فقد نعى المسلمين في المدينة زيدًا وجعفرًا وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله ﷺ لما وقع للسرية وذرفت عيناه الدموع، ثم أخبرهم بتسلم خالد الراية، وبشرهم بالفتح على يديه وأسماه سيف الله[5]، وبعد ذلك قدم من أخبرهم بأخبار السرية، ولم يزد عما أخبرهم به النبي ﷺ[6].

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧)، الواقدي (٢/ ٧٦٤).

(٢) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، ص١٧٣.

(٣) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٣) رقم ٤٢٦٦.

(٤) انظر: معارك خالد بن الوليد، ص١٧٥.

(٥) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٦٠).

(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٥).

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان ينشدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال: خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأتي بعبد الله، فأخذه فحمله على يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، أفررتم في سبيل الله، ويقول رسول الله ﷺ: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى [1].

وإن الإنسان ليعجب من هذه التربية النبوية التي صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً، يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فرارًا من سبيل الله، لا يكافأون عليه إلا بحثو التراب في وجوههم، فأين شبابنا المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ ولن تستطيع الأمة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النبيلة والقمم الشوامخ إلا بالتربية الإسلامية الجادة القائمة على المنهاج النبوي الكريم [2].

سادسًا: دروس وعبر وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروس وعبر كثيرة منها:

١- **أهمية هذه المعركة:** تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم؛ لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان. ونستطيع أن نقول إن تلك الغزوة هي خطوة عملية قام بها النبي ﷺ للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، فقد هز هيبتها من قلوب العرب، وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني [3]، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢- **حب الشهادة باعث للتضحية:** إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين، والرغبة في نيل الشهادة لكي يكرمهم الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويدخلوا جنات الله الواسعة التي فيها ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٣- **تميز هذه المعركة عن سائر المعارك:** فهي الوحيدة التي جاء خبرها من السماء،

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٣٢٨، تاريخ الذهبي، ص٤٩١.

(٢) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوي، ص٣٥٨.

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٦٤.

إذ نعى النبي ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل وأخبر النبي ﷺ عن أحداثها، وتمتاز أيضا عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التي اختار النبي ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب: زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة[١].

٤- إكرام النبي ﷺ لآل جعفر: لما أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عميس فقال: «ائتيني ببني جعفر» فأتت بهم فشمهم وقبلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم أصيبوا هذا اليوم»، فجعلت تصيح وتولول، فقال النبي ﷺ «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»[٢].

وتلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

أ- جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى: أُخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رضي الله عنها حينما نعى النبي ﷺ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي ﷺ ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعًا لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائدًا عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سببًا في معصية الخالق سبحانه.

ب- استحباب صنع الطعام لأهل الميت: وقد ندب الرسول ﷺ الناس أن يصنعوا طعامًا لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفى وتخفيف مصابهم، وفي الوقت نفسه تكافل بينهم وهذه السنة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية، وأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون[٣].

هذا وقد نهى رسول الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاث، فقد دخل على أسماء وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي» فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي»، ثم أخذ بيمين عبد الله وقال: «اللهم اخلف جعفرًا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثا[٤]. ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[٥]. وهذا منهج نبوي كريم خطه رسول الله ﷺ لرعاية وتكريم أبناء الشهداء لكي تسير الأمة على نهجه الميمون[٦].

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٦٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٨).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٦٨.

(٤،٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٠).

ج- زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس: وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبو بكر الصديق ﷺ فتزوجها، وولدت له محمد بن أبي بكر، وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب، وولدت له أولادًا ﷺ وعنها وعنهم أجمعين[1]. وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمر في الهياج وأصبرا[2]

٥- **من فقه القيادة:** إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب؛ لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل.. فاصطلح الناس على خالد. وفي رواية أن ثابتًا مشى باللواء إلى خالد، فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كلتا الروايتين واحدٌ، أن ثابتًا جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها، فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد[3]، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا، ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتًا لم يكن عاجزًا عن قيادة المسلمين، وهو ممن حضر بدرًا، ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل[4].

إن كثيرًا ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفًا على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٦- **درس نبوي في احترام القيادة:** قال عوف بن مالك الأشجعي ﷺ: خرجت مع

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣). (٢) المصدر نفسه (٤/ ٣٥٢).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٢٤).

(٤) انظر: من معين السيرة للشامي، ص٣٧٦.

زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مدديّ من اليمن[1]... ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وله سلاح مذهب، فجعل الرومي يضرب بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفر الرومي، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال عوف: فأتيت خالدًا، وقلت له: أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكني استكثرته قلت: لتردنها إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله فقصصت عليه قصة المددي، وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: **«يا خالد ما حملك على ما صنعت؟»** قال: استكثرته فقال: **«رد عليه الذي أخذت منه»** . قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«وما ذلك؟»** فأخبرته قال: فغضب رسول الله ﷺ وقال: **«يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره»**[2].

هذا موقف عظيم من النبي ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقص ولا إهانة، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه، وإنما اجتهد فغلّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عددًا أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته في الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك؛ لأنه والحال هذه قد دخل في أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يديه، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حول القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر شيئًا من التشفي من خالد، ولم يقره النبي ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكارًا شديدًا وبيّن حق الولاة على جنودهم، وكون النبي ﷺ أمر خالدًا بعدم رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنسانًا بجريرة غيره، فلا بد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضا، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لا يذكر تفصيله في الخبر[3].

إن الأمة التي لا تقدر رجالها ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناء سليمًا، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في

---

(١) مددي أي جاء مددا، وفي رواية: رجل من حمير

(٢) مسلم، كتاب الجهاد، ص١٣٧٣، رقم ١٧٥٣.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (٧/ ١٣٠).

مكانه، وأن يحترم ويقدر بمقدار ما يقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قوله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي أمرائي» وسام آخر يضاف إلى خالد ﷺ حيث عد من أمراء الرسول ﷺ، وهذا من المنهاج النبوي الكريم في تقدير الرجال[١].

٧- مقاييس الإيمان وأثرها في المعارك:

توقف الجيش الإسلامي في معان يناقش كثرة جيش العدو، وكانت المقاييس المادية لا تشجعهم على خوض المعركة، ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتًا منها:

وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشتهى الثواء

فلما سمعتها منه بكيت، قال: فخفقني بالدرة، وقال: وما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل[٢].

إن التأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة، وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء. لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (... هذا عظيم جدا أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلا، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان...)[٣].

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٣٧٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).

٨- من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة: حيث قال:

في ليلـــة وردت علـــيَّ همومهـــا — طـــورًا أحـــن[١] وتـــارة أتملمـــل[٢]

واعتـــادني حـــزن فبـــت كـــأنني — ببنـــات نعـــشٍ والسـماك موكَّـــل[٣]

وكأنمـــا بـــين الجـــوانح والحشـــى — ممـــا تـــأوبني شـــهاب مـــدخل[٤]

وجـــدا علـــى النفـــر الـــذين تتـــابعوا — يومًـــا بمؤتـــة أســـندوا لم ينقلـــوا

صـــلى الإلـــه علـــيهم مـــن فتيـــة — وســـقى عظـــامهم الغمـــام المسـبل[٥]

صـــبروا بمؤتـــة للإلـــه نفوســـهم — حـــذر الـــردى ومخافـــة أن ينكلـــوا[٦]

فمضـــوا أمـــام المســـلمين كـــأنهم — فُنُـــق[٧] علـــيهن الحديـــد المرفـــل[٨]

إذ يهتـــدون بجعفـــر ولوائـــه — قـــدام أولهـــم فـــنعم الأول

حتـــى تفرجـــت الصـــفوف وجعفـــر — حيـــث التقـــى وعـــث الصـــفوف مجـــدل

فـــتغير القمـــر المـــنير لفقـــده — والشـــمس قـــد كســـفت وكـــادت تأفـــل[٩]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها كعب بن مالك شهداء مؤتـة، ولم يتغيـب حسـان بـن ثابت ﷺ عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة، وبكاء جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثـة وعبد الله بن رواحة، فقد كانت المؤسسة الإعلامية تقوم بدورها بتفوق وجدارة وتتعبد المولى عز وجل بما أخصها به من ملكات ومواهب شعرية فذة.

* * *

---

(١) أحن: من الحنين، وفي رواية أخن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.

(٢) أتململ: أتقلب متبرمًا بمضجعي.

(٣) يريد أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد.

(٤) المدخل: النافذ إلى الداخل.

(٥) المسبل: الممطر.

(٦) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون، ينكلوا: يرجعوا هائبين.

(٧) فنق: الفحول من الإبل.

(٨) المرفل: الذي تنجر أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سابغة.

(٩) تأفل: تغيب، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٣، ٣٤).

الفصل الحادي عشر

غـــزوة فتـــح مكـــة (٨هـ)

المبحث الأول

أسبابها، والاستعداد للخروج والشروع فيه

أولاً: أسبابها:

١-ارتكبت قريش خطأ فادحًا عندما أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر وحلفاؤهم قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[1]، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن -ولم تكن متجهزة للقتال- لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا حرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم[2]، عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يـــا رب إنـــي ناشـــدٌ محمـــدًا	حلـــف أبينـــا وأبيـــه الأتلـــدا
قـــد كنـــتم وُلـــدًا، وكنـــا والـــدًا	ثُمـــت أســـلمنا فلـــم ننـــزع يـــدا[3]
فانصـــر -هـــداك الله- نصـــرًا أعتـــدا	وادع عبـــاد الله يـــأتوا مـــددا
فـــيهم رســـول الله قـــد تجـــردا	إن ســـيم خســـفا وجهـــه تربـــدا
في فيلـــق كـــالبحر يجـــري مزبـــدًا	إن قريشًـــا أخلفـــوك الموعـــدا
ونقضـــوا ميثاقـــك المؤكـــدا	وجعلـــوا لـــي في (كَـــدَاءِ) رُصَّـــدا
وزعمـــوا أن لســـت أدعـــو أحـــدا	وهـــم أذل وأقـــل عـــددا
هـــم بيتونـــا بـــالوتير هجّـــدا	وقتلونـــا ركَّعـــا وسُـــجَّدا

---

(١) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١- ٧٨٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٩).

(٣) يريد أن أم عبد مناف وأم قصير خزاعيتان.

فقال النبي ﷺ: «نُصرت يا عمرو بن سالم! [1] لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب» ولما عرض السحاب من السماء قال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب[2].

وجاء في رواية: إن رسول الله ﷺ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «أما بعد، فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أتُدوا خزاعة[3]، وإلا أوذنكم بحرب» فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم، فلا ندى ما قتلوا لنا سبد، ولا لبد[4]، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم، ولكن نؤذنه بحرب[5].

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشًا بالحرب وإنما خيرَّهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[6].

٢- أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته، أعرض عنه النبي ﷺ ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعًا، فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد[7]، ومما يذكر عند نزوله في المدينة أنه دخل على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟! قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر[8].

وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ست عشرة سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يقدر ويحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة[9]، وهذا ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٤٤)، البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).

(٣) أي تدفعوا دية قتلاهم.

(٤) السبد: الشعر واللبد: الصوف، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.

(٥) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم ٤٣٦١، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤).

(٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص٣٦٥.

(٨) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٧٩).

(٩) انظر: معين السيرة، ص٣٩٥.

تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين. وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب -مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب- دليلٌ على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنوياته إلى النماء والحيوية[1].

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وتأديب كفارها، وقد ساعده على ذلك العزم -بعد توفيق الله- عدة أسباب منها:

أ- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها: فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وتم القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب- ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم -وهو يهود المدينة- فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

ج- اهتم رسول الله ﷺ بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح؛ وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديًّا وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصاديًّا، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.

هـ- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

و- قيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة، وهو نقض قريش للعهد والعقد[2].
ونلحظ أن النبي ﷺ لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صلح الحديبية، والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد ﷺ جيشًا لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل[3].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) انظر: السيرة لأبي فارس، ص٤٠١.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٤)، التاريخ السياسي والعسكري ص٣٦٦.

ثانيًا: الاستعداد للخروج:

إن حركة النبي ﷺ في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات، تعلمنا كيفية التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنة واضحة في هديه ﷺ؛ فعندما قرر ﷺ السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر؛ حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته، وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه، وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ السرِّية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر ﷺ أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية، ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوي قتاله؛ بدليل أن أبا بكر الصديق ﷺ عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول ﷺ قالت له: ما سمى لنا شيئًا. وكانت أحيانًا تصمت، وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئًا عن مقصده ﷺ[(١)].

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يذعن شيئًا من هذه الأسرار -عن حسن نية- فتتنقلها الألسن حتى تصير سببًا في حدوث كارثة عظيمة[(٢)].

٢- أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي ﷺ قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: (لما همَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم[(٣)] ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية؛ ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا ولم يلقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب[(٤)] فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي ﷺ بالسُّقيا[(٥)])[(٦)].

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢)، الرسول القائد، شيت خطاب، ص٣٣٣، ٣٣٤.

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٣٩٥، ٣٩٦.

(٣) بطن إضم: وادي المدينة الذي يجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان، وقناة، والعقيق.

(٤) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة ٣٥ميلا.

(٥) السقيا: موضع يقع في وادي القرى، معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).

(٦) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها[1].

٣- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث ﷺ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب[2]، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة[3].

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول ﷺ من حدِّه النافع لصالح المسلمين، وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرِّية واتخاذها أساسًا لتحركاته واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة[4].

٤- دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلا: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة»[5].

وهذا شأن النبي ﷺ في أموره؛ يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

٥- إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي ﷺ إليهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى مكة، ولكن الله -سبحانه وتعالى- أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه

---

(١) انظر: القيادة العسكرية، ص٤٩٨.

(٢) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.

(٣) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٦).

(٤) انظر: القيادة العسكرية، ص٣٦٥.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).

المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي ﷺ عليًّا والزبير والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلا من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعي حاطب ﷺ للتحقيق، فقال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش -يقول: كنت حليفًا- ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

ويقول الأستاذ سيد قطب: على الرغم من كل ما ذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش فقط ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث والتعقيب على الأحداث ليكون العلاج على مسرح الأحداث، وليكون الطرق والحديد ساخن[2].

ثالثًا: الشروع في الخروج وأحداث في الطريق:

١- خرج رسول الله ﷺ قاصدًا مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة[3] واستخلف على المدينة أبا رهم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري[4] وكان عدد الجيش عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد، فسار هو ومن معه إلى مكة يصوم ويصومون، فلما وصل الجيش الكديد (الماء الذي بين قديد وعسفان)

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، (٥/ ١٠٥) رقم ٤٢٧٤.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٦٠، ٥٦١.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٦١.

أفطر رسول الله ﷺ وأفطر الناس معه[1] وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمه وقد خرج مهاجرًا بعياله، فسر ﷺ[2]. وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة -وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك- إشارة إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ﷺ[3].

٢- إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية:

خرج أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية بن المغيرة من مكة، فلقيا رسول الله بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك، فقال: لا حاجة لي فيهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال، فلما خرج الخبر إليهما بذلك -ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له- فقال: والله ليأذنن رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره عما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله	فهذا أوان الحق أهدي وأهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم	وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلني	إلى الله من طرَّدت كل مطرد
أفر سريعًا جاهدًا عن محمد	وأدعى وإن لم أنتسب لمحمد
همُ عصبة من لم يقل بهواهم	وإن كان ذا رأي يُلَمْ ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلاقط	مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامرا	وما كان عن غير لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة	توابع جاءت من سهام وسردد
وإن الذي أخرجتم وشتمتم	سيسعى لكم امرؤ غير مقعد[4]

(١) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٠٦) رقم ٤٢٧٦.
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٨٦)، السيرة النبوية لأبي فارس، ص٤٠٦.
(٣) انظر: تأملات في السيرة النبوية، محمد السيد الوكيل، ص٢٥٤.
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥١٧.

قال: فلما أنشد رسول الله ﷺ (إلى الله من طردت كل مطرد)، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «أنت طردتني كل مطرد»[1].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيرًا، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله ﷺ: (فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك)[2].

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثال عالٍ في الرحمة والعفو والتسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه، وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين[3].

٣- النزول بمر الظهران وإسلام أبي سفيان بن حرب سيد قريش:

وتابع رسول الله ﷺ سيره حتى أتى مر الظهران[4] فنزل فيه عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب[5].

قال العباس: فقلت: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب[6]، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.. وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك، فداك أبي وأمي؟! قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟! قال: قلت: والله لئن ظفر بك

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣- ٤٥) ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٤- ١٦٧).

(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥- ٣٠٠).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).

(٤) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢كم.

(٥) انظر: معين السيرة، ص٣٨٧، الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٦) حمشتها الحرب: أحرقتها.

ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته. فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلا يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، فلما أصبح غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم. قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها» قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة.. حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا. قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك[1].

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥١٨- ٥٢٠.

إن في هذه القصة دروسا وعبرا وحكما في كيفية معاملة رسول الله ﷺ للنفوس البشرية ومن أهم هذه الدروس:

١- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبي ﷺ وهمَّ به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله ﷺ وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه؛ فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! إنه يفدي رسول الله ﷺ بأبيه وأمه، ويثني عليه الخير كله: ما أحلمك وأكرمك وأوصلك![1] وعندما قال العباس للنبي ﷺ إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا قال النبي ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئًا يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[2] وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملا على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش، لن تنتقص شيئا في الإسلام، إن هو أخلص له وبذل في سبيله[3] وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس.

٢- وفي قول رسول الله ﷺ لعمه العباس عن أبي سفيان: «احبسه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها»[4] ففعل العباس، وكان ﷺ يريد أن يشن حربًا نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيان بعيني رأسه مدى قوة ما وصل إليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط؛ وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية[5]، وبالفعل تم ما رسمه رسول الله ﷺ وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين، وأنه لا قبل لقريش بهم، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة والله يا أبا الفضل، لقد

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٦٤.

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣).

(٣) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس، ص٢٤٥.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).

(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٤٧.

أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: نعم إذاً....[1].

«إنها النبوة»؛ تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الرد الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية، وهي كلمة جاءت عنوانًا لحياة رسول الله ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقا على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض[2].

لقد تعمد النبي ﷺ شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر رسول الله ﷺ بإيقاد النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب القريشيين من شدة هوله[3]، وقد قصد النبي ﷺ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له ﷺ ما أراد، ولقد كان اهتمام النبي ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقًا عسكريًا؛ بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية[4].

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٧٥.

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٤) انظر: العبقرية العسكرية وغزوات الرسول، اللواء محمد فرج، ص٥٦٥.

المبحث الثاني

خطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصحابة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى ذي طوى[1] وزع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[2] وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة ادع لي الأنصار» فدعاهم فجاءوا يهرولون، فقال: «يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟» قالوا: نعم، قال: «انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا» وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «موعدكم الصفا»[3].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم[4]. وبهذا كانت المسئوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه[5].

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ، ولم تلق تلك القوات مقاومة، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين، حيث عجزت عن التجمع، وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول ﷺ؛ فلم يستطع المشركون المقاومة، ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها، في سلم واستسلام، إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد[6]، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخندمة) وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا على القتال، فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٣٨٩.

(٢) البياذقة: الرجالة.

(٣) مسلم، باب فتح مكة.

(٤،٥) انظر: معين السيرة، ص٣٩٠.

(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٩٧.

أكمل الجيش السيطرة على مكة المكرمة[1]. وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحًا لمقاتلة المسلمين، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يومًا: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء، فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم.. ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فما لي علة ... هذا سلاح كامل وألَّة[2]

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئًا من قتال مع رجال عكرمة، ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزمًا حتى بلغ بيته فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب...

فقالت المرأة لفارسها المعلم: فأين ما كنت تقول؟

فقال يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة[3] ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضربًا فلا تسمع إلا غمغمة

لهم نهيت[4] خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي باللوم أدنى كلمة[5]

لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول؛ لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان من قلبه[6].

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، ص١٢٢، ١٢٣.

(٢) ألة: حربة.

(٣) المؤتمة: الأسطوانة، وأبو يزيد: سهيل بن عمرو.

(٤) النهيت: صوت الصدر.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥).

(٦) انظر: دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل، ص٢٤٥.

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعًا ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس -تشبهه بالزق لسمنه-، قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[1].

وحرص النبي ﷺ أن يدخل الكداء التي بأعلى مكة[2] تحقيقًا لقول صاحبه الشاعر المبدع حسان بن ثابت، حين هجا قريشا وأخبرهم بأن خيل الله تعالى ستدخل من كداء، وتعد هذه القصيدة من أروع ما قال حسان، حيث قال:

عدمنا خيلنا إن لم تروها	تثير النقع[3] موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات	يلطمهن بالخُمُرِ النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم	يعز[4] الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا	وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدا	يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه	فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جندًا	هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد	سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا	ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني	مغلغلة[5] فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدًا	وعبد الدار سادتها الإماء

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٢٤.

(٣) النقع: موضع قرب مكة، أو الغبار.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).

(٥) مغلغلة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد.

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء؟! ... فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركًا برًا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء

أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء[1]

ومما يؤيد حرص النبي ﷺ على دخوله من كداء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر[2]؛ فتبسم إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر، كيف قال حسان؟» فأنشده قوله:

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخُمُر النساء[3]

ثانيًا: دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعالٍ:

دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام[4]، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[5] مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[6]، وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[7] -وهو ابن مولى رسول الله ﷺ- ولم يردف أحدا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة[8].

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي ﷺ مكة:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة

---

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).

(٢) الخمر جمع خمار، مأخوذ من الخمر وهو الستر وهو ما تستر به النساء وجوههن.

(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٣١). (٤) مسلم رقم ١٣٥٨.

(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٨) رقم ٤٢٨١.

(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٩٦.

(٧) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢٨٩.

(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص٣٣٧.

دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ.. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول: كيف خرج مطاردًا؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا؟ وأي كرامة عظمى حفه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناء...»[1].

هذا وقد حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح؛ ولذلك عندما بلغته مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال ﷺ: «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»[2]، وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد؛ وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يثره، ولا أثار الأنصاري، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه[3].

ولما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها[4] وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذًا[5]، ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فأمر بالصور وبالتماثيل فكسرت[6] وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أخرجت الصور، وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفي يديهما من الأزلام فقال النبي ﷺ: «قاتلهم الله؛ لقد علموا ما استقسما بها قط...»[7].

ثم دخل البيت وكبَّر في نواحيه ثم صلى، فقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه ثم مكث فيها، قال ابن عمر: فسألت بلالا حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعمودًا عن

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح (٥/ ١٠٨) رقم ٤٢٨٠.
(٣) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، ص١٩٦.
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٣٣٩.
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٨٢.
(٦) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٣٣٩.
(٧) البخاري، كتاب المغازي، (٥/ ١١٠) رقم ٤٢٨٨.

يمينه وثلاثة أعمدة وراءه -وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة- ثم صلى[1].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم، فأراد علي ﷺ أن يكون المفتاح له مع السقاية، لكن النبي ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلا: اليوم يوم بر ووفاء[2]، وكان ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان، لعلك ترى هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت» فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ»، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعًا، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال[3]، ولقد أعطى له رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة قائلا له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء[4]، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»[5] وهكذا لم يشأ النبي ﷺ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الإثارة، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ: البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا[6].

هذا، وقد أمر النبي ﷺ بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة فيؤذن للصلاة، فصعد بلال وأذن للصلاة، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين؛ فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر[7].

ذلك الصوت الذي كان يهمس يومًا ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، أحد.. ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، والكل خاشع منصت خاضع[8].

ثالثًا: إعلان العفو العام:

١- نال أهل مكة عفوًا عامًّا رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦١، ٦٢).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٦١).

(٣) انظر: المغازي، (٢/ ٨٣٨).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).

(٥) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).

(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٠١.

(٧) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٣٨٣.

(٨) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٦٩.

ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيرًا أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، فقال: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:٩٢][(١)].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة؛ لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك، ومتعبد الخلق، وحرم الرب تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها؛ فهي مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعباد القاصدين، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قوية في حين أن أدلة المانعين مرسلة وموقوفة[(٢)].

٢- إهدار النبي ﷺ لبعض الدماء:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل، الذي لا بد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلا أمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة؛ لأنهم عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد -مصغرًا- ومقيس بن حبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي، وذكر الحاكم أن فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة[(٤)].

ومن هؤلاء من قُتل، ومنهم من جاء مسلمًا تائبًا فعفا عنه الرسول، وحسُن إسلامه[(٥)].

٣- خطبة النبي ﷺ غداة الفتح وإسلام أهل مكة:

وفي غداة الفتح بلغ النبي ﷺ أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه

---

(١) انظر: المجتمع المدني للعمري، ص١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٠.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١) تأملات في السيرة، ص٢٦٢.

(٤) فتح الباري (٧/ ٩).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).

-وهو مشرك- برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيبًا فقال: «يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد -يقطع- فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم.

يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر أن يقع، لقد قتلتم قتيلا لأدينَّه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله»[(١)].

كان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم، أن دخل أهل مكة -رجالاً ونساء وأحرارًا وموالي- في دين الله طواعية واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجا، وتمت النعمة، ووجب الشكر[(٢)] وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعا الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدء بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال لرسول الله ﷺ: جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد»[(٣)].

وقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية[(٤)] وإذا استنفرتم فانفروا» والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عز الإسلام، وثبت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجا، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لا يقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره، إلى بلد يتمكن فيه من ذلك، فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذه دون تلك، فقد تكون واجبة، وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة، ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة، قال عز شأنه[(٥)]: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)، وعقله: ديته.

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٦).

(٣) البخاري،كتاب المغازي رقم ٤٣٠٥ (٥/ ١١٤).

(٤) البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم ٢٧٨٣.

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة، على ألا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: «ولا يسرقن» قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيَّ فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف»، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لا والله، ما مست يد رسول الله يد امرأة قط) وفي رواية: ما كان يبايعهن إلا كلاما ويقول: «إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة»[(١)].

رابعًا: بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعيًا إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة[(٢)] قبل حنين، ومعه جنود من بني سليم ومدلج والأنصار والمهاجرين، كان تعدادهم حوالي ثلاثمائة وخمسين رجلاً، فلما رأى بنو جذيمة الجيش بقيادة خالد أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى جحدرا فقال: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدًا. فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وُضع السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسرا وقتلا، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يومًا أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلا: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»[(٣)].

ودار كلام بين خالد وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتى كان بينهما شر، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالد ثأرا لعمه الفاكه بن المغيرة الذي قتلته جذيمة في الجاهلية، ولعل هذا الذي وقع بينهما هو ما أشار إليه الحديث المروي عند مسلم[(٤)]

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣١٩).

(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٤٨.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٤).

(٤) مسلم (٤/ ١٩٦٧- ١٩٦٨) رقم ٢٥٤١.

وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[1]، وبعث رسول الله ﷺ عليا فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييبًا لنفوسهم وبراءة من دمائهم[2]، وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن[3] وكان قتل خالد لبني جذيمة تأولا منه واجتهادًا خاطئًا، وذلك بدليل أن الرسول ﷺ لم يعاقبه على فعله[4].

خامسًا: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طهر البيت الحرام من الأوثان التي كانت فيه، كان لا بد من هدم البيوت التي أقيمت للأوثان، فكانت معالم للجاهلية ردحًا طويلاً من الزمن[5]. فكانت سرايا رسول الله تترى لتطهير الجزيرة منها:

١- سرية خالد بن الوليد إلى العزى:

توجهت سرية قوتها ثلاثون فارسًا بقيادة خالد بن الوليد إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب (العزى) لإزالته من الوجود نهائيًا، وعندما وصلت السرية إلى العزى بمنطقة نخلة قام إليها خالد فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليه[6] وهو يردد: كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك[7]، ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي ﷺ استدرك على قائد السرية وقال له: «هل رأيت شيئًا؟» قال: لا[8] فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئا»[9] فرجع خالد وهو مغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة، فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراث على رأسها، فتقدم إليها خالد ﷺ بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فقال: «تلك هي العزى»[10].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٩.

(٢) في إسناده ضعف.المصدر السابق، ص٥٧٩.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٥).

(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٩.

(٥) انظر: معين السيرة، ص٣٩٤.

(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٨٢.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(٨) انظر: المغازي (٢/ ٨٧٤).

(٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٨٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٨٣.

٢- سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم وكانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديدا[١] في منطقة تعرف بالمشلل[٢]، وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تحرجا وتعظيما لها حيث كان ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[٣]. ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤] قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان محرف الحنفية دين إبراهيم عليه السلام، عمرو بن لحي الخزاعي[٥]، فلما فتح الله على المسلمين مكة بعث رسول الله إلى مناة رجلا من أهلها سابقا الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي ﷺ على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا، وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيا[٦].

انطلق سعد بن زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها، فقابله سادنها متسائلا: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها[٧]. فصاح بها السادن صيحة الواثق: مناة دونك بعض عصاتك[٨] ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد ﷺ بكل ذلك وضربها ضربة قاتلة قضت عليها، ثم أقبل مع أصحابه على الصنم فهدموه، ولم يجدوا في خزانتها شيئًا، وانصرف راجعًا إلى رسول الله ﷺ[٩].

---

(١) ما بين مكة والمدينة.

(٢) المشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة.

(٣) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٨٦.

(٤) شرح النووي على مسلم، (٩/ ٢٢).

(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٨٧.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٨٧.

(٧) انظر: الطبقات (٢/ ١٤٦).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٤٦).

(٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٨٨، قال مؤلف الكتاب الدكتور بريك العمري: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية، ويمكن الاستئناس به تاريخيًا، حيث ذكر أهل المغازي أن رسول الله أرسل بعض السرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربية، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك لكونها أحد أكبر الطواغيت في الجزيرة، ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرسالة العلمية التي أشرف عليها الدكتور أكرم العمري.

٣- سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبرا عن قوم نـوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية(١) وظل هذا الوثن منصوبًا تعبده هذيل وتعظمه حتى إنهم كانوا يحجون إليه(٢) حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجا، فبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع، ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لم؟ قال: تمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك! هل يسمع أو يبصر؟! قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله(٣).

ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبتة.

وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أو أعظم شركا عندها وبها(٤).



---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٢٩٢.

(٢) انظر: سبل الرشاد للشامي (٦/٣٠٣).

(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٧٠).

(٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية، ص٣٠٢.

المبحث الثالث

دروس وعبر وفوائد

أولا: مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس:

١- إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت[١] بيتي وأغلقت عليَّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جوارًا من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل، وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثرًا مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأحدًا، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، تؤمنه؟ فقال: «نعم»، هو آمن بأمان الله، فليظهر، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: كان والله برًّا، صغيرًا وكبيرًا. فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة[٢].

لقد كان لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو، حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثرًا من الأعمال الصالحة[٣] يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرًا على كردوس[٤] يوم اليرموك[٥].

٢- إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:... وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشعيبة[٦] وجعل

---

(١) أي رميت بنفسي.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٤٦، ٨٤٧)، المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/٢١٦، ٢١٧).

(٤) كردوس: فرقة كبيرة.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(٦) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. معجم البلدان (٥/٢٧٦).

يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: ويحك، انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمدا عليَّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي، قال: أبا وهب جعلت فداك، جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عمير قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تؤمنه فداك أبي وأمي، قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمنك، فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هاربًا يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ معتجرًا[1] به، بُرد حَبَرة[2] فخرج عمير في طلبه الثانية، حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أمك وأبيك، اذكر الله في نفسك، قال له: أخاف أن أقتل، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم، وقد بعث إليك ببرده الذي دخل فيه معتجرًا، تعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم، هو هو، فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ يصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا، فقال صفوان: كم تصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم، فلما سلم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرًا وإلا سيرتني شهرين، قال: «انزل أبا وهب» قال: لا والله حتى تبين لي، قال: «بل تُسيَّر أربعة أشهر» فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال رسول الله ﷺ: «عارية مؤداة» فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنينًا، والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية جعل صفوان ينظر إلى شعب مليء نعمًا وشاء ورعاء فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله،

---

(١) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).

(٢) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

وأن محمدًا عبده ورسوله. وأسلم مكانه[1].

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي ﷺ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولا مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة، ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي. ثم أسلم مكانه[2]، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي ﷺ فقال: (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ)[3].

٣- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير ﷺ: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حيٍّ من عكٍّ[4] فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكرمة، وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلص، فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنك. فرجع معها وقال: ما لقيتِ من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذ لم يسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه، وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إن أمرًا منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه -وما على النبي ﷺ رداء- فرحا بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته متنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، فأنت آمن» فقال

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٣- ٨٥٥).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، رقم ٢٣١٣، ص١٨٠٦.

(٤) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية، معجم ما استعجم، ص٢٢٣.

عكرمة: فإلامَ تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتفعل وتفعل» حتى عد خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثا وأبرنا برا، ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علمني خير شيء أقوله، قال: «تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله» قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تقول: أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد» فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «لا تسألني اليوم شيئا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه» فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه» فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الإسلام إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قُتل شهيدًا[1].

وبعد أن أسلم ردَّ رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول[2].

كان سلوك النبي ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفًا حانيًا يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحب به، وفي رواية قال له: «مرحبا بالراكب المهاجر»[3] فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم توج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقًا في إسلامه، فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا، وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية، ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما

---

(١) يعني يوم اليرموك.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١- ٨٥٣).

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) مرسل ورجاله رجال الصحيح في إحدى سنديه، وأما الإسناد الآخر من رواية الطبراني فرجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

كان ينفق في الجاهلية، وأن يبلي في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيدًا في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله[1].

٤- مثل من تواضع النبي ﷺ: إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم» فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «غيروا هذا من شعره»[2] ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[3].

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنه النبي ﷺ في توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[4] وفي قوله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم»[5] كما أنه ﷺ سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام؛ تقديرًا لهم على ما بذلوه من الخدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى[6].

٥- مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه: إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك اللهُ والإسلامُ

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣- ٢٢٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٧.

(٤) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر، باب ١٥رقم ١٩٨٦.

(٥) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ٢٠، رقم ٤٨٤٣.

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٩٥).

لـو مـا رأيـت محمـدًا وقبيلـه	بـالفتح يـوم تكسـر الأصـنام
لرأيـت ديـن الله أضـحى بينـا	والشرك يغشى وجهَه الإظلام[1]

ثانيًا: أتكلمني في حد من حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: إن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوَّن وجه رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[2].

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير، عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم، من أجل تعطيل الحدود الإسلامية[3].

ثالثًا: أجرْنا من أجرتِ يا أم هانئ:

قالت أم هانئ بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل علي بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «مرحبًا وأهلا يا أم هانئ، ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي، فقال: «قد أجرْنا من أجرتِ وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما»[4].

---

(١) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٣). (٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣٠٤.

(٣) انظر: معين السيرة، ص٤٠٢، التاريخ الإسلامي، (٧/ ٢٣٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٩، ٦٠)، صحيح السيرة، ص٥٢٧.

رابعًا: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة -وقد أهدر دمه- فر إلى عثمان -وكان أخاه من الرضاعة- فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلا ثم قال: «نعم»، فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله؟» فقالوا: يا رسول الله، هلا أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بإشارة»[1]، وفي رواية: «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين»[2].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان[3].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[4].

خامسًا: المحيا محياكم والممات مماتكم:

قال أبو هريرة: ... أتى رسول الله ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي، قال: فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: يا معشر الأنصار قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: فما اسمي إذن؟ كلا، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم»[5].

سادسًا: إسلام عبد الله بن الزِّبَعْرَى شاعر قريش:

لما فتحت مكة فر عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي إلى نجران فلحقته قوافي حسان، فقد كان خصمًا عنيدًا للإسلام، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعدمنْ رجلاً أحلك بغضه ... نجران من عيش أحدّ لئيم[6]

أي فليبق الله لنا محمدًا ﷺ هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليدم

---

(١) انظر: البداية والنهاية، (٤/٢٩٦).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٢٨.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٨).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٩٦).
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٢٩، ٥٣٠.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٠٧).

الله عليك ابن الزبعرى عيشا ذليلا مهينا أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعرى، وعلى نجله ويسأله الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه[1]:

غضب الإله على الزبعرى وابنه   وعذاب سوء في الحياة مقيم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعرى، فقام وقعد وقلب أموره، ثم أراد الله به الخير فعزم على الدخول في الإسلام، ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال له رسول الله: «إن الإسلام يجب ما قبله»[2] ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة[3] وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعرى ﷺ قال بعد إسلامه شعرًا كثيرًا حسنًا يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ[4]. قال ابن عبد البر رحمه الله: وله -ابن الزبعرى- في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره[5].

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة[6]، وقال القرطبي: (وكان شاعرًا مجيدًا، وله في مدح النبي ﷺ، أشعارٌ كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى في كفره[7]...) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منَّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه[8].

سابعًا: من الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الغزوة، ومكان نزول الرسول ﷺ بمكة:

١- اتضحت كثير من الأحكام الشرعية خلال فتح مكة منها:

أ- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية؛ حيث صام الرسول في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدًا فأفطر[9].

ب- صلى النبي ﷺ صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة[10] واستدل قوم بهذا على

---

(١) الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري، محمد كابتي، ص٩٢.
(٢) المغازي (٢/ ٨٤٨).
(٣) الزركلي: الأعلام (٤/ ٨٤)، الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٠٨) نقلا عن المرجع الذي بعده.
(٤) انظر: الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري، ص٩٧.
(٥) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر، (٢/ ٣١٠).
(٦) انظر: الإصابة (٢/ ٣٠٨).
(٧) انظر: تفسير القرطبي، (٦/ ٤٠٧).
(٨) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).
(٩) انظر: السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٤.
(١٠) المصدر نفسه، ٥٧٤.

أنها سنة مؤكدة[1].

ج- قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة[2].

د- تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاث أيام[3]. ويرى الإمام النووي[4] أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد. ويرى ابن القيم[5] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح، والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح[6].

هـ- قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه[7].

و- عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول ﷺ في أن يوصي بأكثر من الثلث[8].

هذه بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث الغزوة والفتح العظيم.

٢- مكان نزول الرسول ﷺ بمكة:

نزل رسول الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» مبينا أنه لا يرث المسلمُ الكافرَ[9]. وكان عقيل قد ورث أبا طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلها، وأما علي وجعفر فلم يرثاه؛ لأنهما مسلمان وأبو طالب مات كافرًا[10].

---

(١) السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٤. (٢) انظر: المجتمع المدني، ص١٨٥.

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٥.

(٤) النووي على شرح مسلم (٩/ ١٨١)، اعتمدت على فقه الأحكام على ما استخرجه الدكتور العمري في المجتمع المدني، والدكتور مهدي رزق الله في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٤٣: ٣٤٥، ٤٥٩- ٤٦٤).

(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٥.

(٧) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٠٣.

(٨) المجتمع المدني للعمري، ص١٨٦، سنن الترمذي (٣/ ٢٩١).

(٩، ١٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤٨٢).

ثامنًا: من نتائج فتح مكة:

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

١- دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف، ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢- أصبح المسلمون قوى عظمى في جزيرة العرب. وبعد فتح مكة، تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها، وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه[1].

٣- كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر في هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت في رفقه ﷺ بالناس وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل ﷺ في مكة بعد انصرافه عنها ليصلي بالناس، ويفقههم في دينهم، وأما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، يحكم في الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم[2]، وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة وخضوعها لسلطان الإسلام، قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجا[3].

٤- تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعد ما ضحوا بالغالي والنفيس، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله وتعاملوا مع سننه كسنة الابتلاء، والتدافع، والتدرج، وتغير النفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا للصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة وهو يردد: «أحد أحد» في أغلاله وحديده، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة، ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان.

* * *

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، أحمد عرموش، ص١٢٩.

(٢) انظر: تأملات في سيرة الرسول، ص٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٧.

الفصل الثاني عشر

غـزوة حنين والطـائف (٨هـ)

المبحث الأول

أسبابها وأحداث المعركة

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت لـه قـريش، خافـت هـوازن وثقيـف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولوا عليـهم مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبنو هلال، ولم يحضرها مـن هـوازن كعب وكلاب، وكان معهم دريد بن الصمة، وكان معروفًا بشدة البـأس في الحـرب وأصـالة الرأي، إلا أنه كان كبيرًا فلم يكن له إلا الرأي والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجـوا وراءهـم النسـاء والـذراري والأمـوال حتـى لا يفروا، فلما علم بذلك دريد سأله: لم ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كـل رجـل أهلـه وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانـت عليـك فضـحت في أهلـك ومالـك. ولكنـه لم يستمع لمشورته[1].

أولاً: أهم أحداث غزوة حنين:

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ووصلوا حنين في مساء العاشـر من شوال[2] وقد استخلف الرسول ﷺ عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه، وكان عـدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا من المسلمين، أما عـدد هـوازن وثقيـف فكـانوا ضـعف عـدد المسلمين أو أكثر، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لـن نغلـب اليـوم مـن قلـة، ودخل الإعجاب في النفوس[3].

أ- التعبئة التي اتخذها مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف:

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئة مرت بمراحل:

١- رفع الروح المعنوية لدى جنوده: وقف مالك خطيبًـا في جيشـه وحـثهم علـى الثبـات والاستبسال، ومما قال في هذا الجمع الحاشد: إن محمدًا لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كـان

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٧)، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٨).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

يلقى قومًا أغمارًا[1] لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم[2].

٢- حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش: أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم؛ لأن المقاتل -من وجهة نظره- إذا شعر أن أعز ما يملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار مخلفا ما وراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا حنينًا، فجاء المشركون بحنين بأحسن صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفت المقاتلة، ثم صفت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم[3].

٣- تجريد السيوف وكسر أجفانها: جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقًا لهذا، بدليل قولهم: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد عليهم[4].

٤- وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم: كانت عند مالك بن عوف النصري معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فعمل -بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة- في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله سبحانه وتعالى وعنايته.

٥- الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين: كان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني، الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين؛ لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالبا ما يكون في مركز الضعف، ولهذا آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى بفضل الله تعالى ثم بثبات رسول الله ﷺ، حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم[5].

٦- شن الحرب النفسية ضد المسلمين: كان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازني، استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شن الحرب

---

(١) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم، وهو الذي لا يجرب الأمور.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).

(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٦) رقم ١٠٥٩.

(٤) انظر: مجمع الزائد (٦/ ١٧٩، ١٨٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨، ٤٩) صحيح الإسناد

(٥) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص٢٥٢.

النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك[1].

ب- خطوات الرسول ﷺ لصد هذه الحشود:

لما بلغ النبيَّ ﷺ عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة -شرفها الله- قام بالآتي:

١- أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي حتى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب ﷺ ومكث بينهم يومًا أو يومين ثم عاد وأخبر النبي ﷺ بما رأى[2].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصر ﷺ في أداء هذا الواجب حيث لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله ﷺ؛ لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي ﷺ جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو[3].

٢- عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح:

أعد رسول الله ﷺ جيشًا قوامه عشرة آلاف -وهم من خرجوا معه من المدينة- وألفان من مسلمة الفتح؛ فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفا، عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي ﷺ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء[4] وهم ألفان[5]، وسعى ﷺ لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا، وتكفل ﷺ بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى

---

(١) انظر: غزوة حنين للشيخ محمد أحمد باشميل، ص١٢٨- ١٣١.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٧٣).

(٣) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص٣٦٩.

(٤) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي ﷺ بعد فتح مكة وخلى سبيلهم.

(٥) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٥) رقم ١٠٥٩.

بن أمية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم -أو قال فادفع إليهم- ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا، أو أقل من ذلك» فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي ﷺ: «نعم»[1] وفي رواية: أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين دروعا فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: «لا، بل عارية مضمونة» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب، قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم[2].

٣- ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول ﷺ ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، ونترك العباس عم الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، نادِ أصحاب السمرة»[3] فقال العباس -وكان رجلا صيتًا-: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس»[4].

لقد أيد الله نبيه ﷺ يوم حنين بأمور منها:

* نزول الملائكة من السماء.

---

(١) أبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية، (٣/ ٨٢٦) رقم ٣٥٦٦.

(٢) أبو داود، كتاب البيوع والإجارات، باب تضمين العارية (٣/ ٨٢٣) رقم ٣٥٦٢.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/ ١٣٩٨) رقم ١٧٧٥.

(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٣٩٩) رقم ١٧٧٢.

* سلاح الرعب[١].

تأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء:

من الأسلحة المادية التي أيد الله بها رسوله ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب فصار كل واحد يجد لها في عينيه أثرًا، فكان من أسباب هزيمتهم[٢]، قال العباس ﷺ: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبرا[٣].

ثانيًا: مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف:

أ- قال أبو موسى الأشعري ﷺ: لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم، من رماك؟ فأشار إليَّ فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني ولى فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ السلام وقل له: استغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيرًا ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمل[٤] وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقوله: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر» ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا».

قال أبو بردة[٥]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى[٦].

ب- محاصرة الفارين إلى الطائف: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستخدم

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٩.

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله، ص٢٥٩.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم ١٧٧٥.

(٤) أي معمول بالرمال وهي حبال الحصر.

(٥) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.

(٦) البخاري، المغازي، (٥/ ١٢٠) رقم ٤٣٢٣.

أساليب متنوعة في القتال والحصار، ومارس الشورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية في صفوف الأعداء.. ومن هذه الأساليب:

١- استخدامه ﷺ أسلوبا جديدا في القتال: استعمل النبي ﷺ في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل، وهذه الأسلحة هي:

* المنجنيق: فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف، فعن مكحول ﷺ أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف[١].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه، فبحجارته تهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال[٢].

* الدبابة: ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول ﷺ لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة؛ والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي[٣].

* الحسك الشائك: من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف: الحسك الشائك؛ وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب، حتى تتألف منهما أربع شعب مدببة، وإذا رمى في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال[٤].

وقد ذكر أصحاب المغازي والسير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف[٥]، وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا، والمسلمين عموما، ألا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢- اختيار رسول الله ﷺ مكانًا مناسبًا عند القتال: نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام؛ فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون، وحينئذ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلف

---

(١) أبو داود، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح(٣٥) مراسيل أبي داود، ص١٨٣.
(٢) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، اللواء محمد فرج، ص٤٠٧.
(٣) انظر: القيادة في عهد الرسول، ص٤٠٥.
(٤) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، اللواء عبد الرغوف عون، ص ١٩٥.
(٥) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).

الحباب -لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال- بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب ﷺ ثم حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر النبي ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديد، وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى؛ قال عمرو بن أمية الضمري ﷺ: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد، وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال: «انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم» فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف[1] خارج من القرية، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فأمر النبي ﷺ أن يتحولوا[2].

٣- استخدام الحرب النفسية والدعاية: لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، ووجه النبي ﷺ نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم[3].

٤- الحكمة من رفع الحصار: كانت حكمة رسول الله ﷺ في رفع الحصار واضحة؛ فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله ﷺ من حوله في عملية الحصار[4] فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال» فغدوا، فأصبت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غدا إن شاء الله»، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك[5]، فلما ارتحلوا واستقلوا، قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»[6]، وقيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم»[7].

* * *

---

(١) مسجد الطائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٤١٦). (٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٠).

(٤) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، للشجاع، ص٢٠٦.

(٥) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٤٠٣) رقم ١٧٧٨.

(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧). (٧) المصدر نفسه، صحيح السيرة النبوية، ص٥٦٦.

المبحث الثاني

فقه الرسول ﷺ في التعامل مع النفوس

ويظهر هذا الفقه في عدة مواقف من هذه الغزوة منها:

أ- لا رجعة للوثنية:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية، وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوما، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط)، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم -والذي نفس محمد بيده- كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إِنكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم»[1].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النبي ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك، وحذرهم من ذلك، ولم يعاقبهم أو يعنفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[2]، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد؛ لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماما من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله، وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيرًا من العقائد والأحكام والأخلاق؛ وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث وتلاقح الأفكار[3].

ب- الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقد نبه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «اللهم بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل»[4].

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٤٩، سنن الترمذي، الفتن (٤/ ٤٧٥) رقم ٢١٨٠.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧). (٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٦٢).

(٤) سنن الدارمي (٢/ ١٣٥)، المسند للإمام أحمد (٤/ ٣٣٣).

وهكذا أخذ الرسول ﷺ يراقب المسلمين ويقوِّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك، حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة[1].

وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنهم فوجئوا بما لم يتوقعوه، فإن رسول الله ﷺ لم يعنف أحدا ممن فرَّ عنه، حتى حينما طالبه بعض المسلمين بأن يقتل الطلقاء لأنهم فروا، لم يوافق على هذا[2].

ج- الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى ﷺ أن يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفًا لقلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش وغطفان وتميم عطاء عظيمًا، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس ابن عدي[3]. وكان الهدف من هذا العطاء الجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[4]. وعبر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ[5].

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت بينهم مقالة، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر، وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطابًا إيمانيًا عقليًا عاطفيًا وجدانيًا، ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، ص١٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٤، ٢٠٥. (٣) انظر: معين السيرة، ص٤٢١.
(٤) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط (٤/١٨٠٦) رقم ٢٣١٢.
(٥) المصدر نفسه (٤/١٨٠٦) رقم ٢٣١٣.

عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتم ولصُدِّقْتُم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء[1] والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وواديًا، وسلكتْ الأنصار شعبًا وواديًا لسلكتُ شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار[2]، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[3]، وفي رواية: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[4].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السن منهم؛ بدليل ما ورد في الصحيحين، عن أنس بن مالك ﷺ أن ناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ «فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم»[5].

ويرى الإمام ابن القيم -استدلالاً بهذه الحادثة-: أنه قد يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم وقيام الدين، فإن تعين ذلك -أي التأليف- للدفع عن الإسلام والذب

---

(١) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام. (٢) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

(٤) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٨) رقم ١٠٦١.

(٥) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٤) رقم ١٥٠٩.

عن حوزته واستجلاب رءوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم، ساغ له ذلك، بل تعين عليه، فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين(١).

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في أول الأمر حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمد الغزالي حقيقة هذا الأمر في مثال محسوس فيقول:... إن في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليه فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له(٢).

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار(٣).

د- الصبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصهم على المكاسب، فكان مثالا للمربي الذي يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيمًا ولهم مربيًا ومصلحًا، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم التزموا بعبارات التعظيم والإجلال، كما يفعل العبد مع ربه، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فكان كأحدهم؛ يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكنون له في أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جفاة الأعراب فقد عنفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم، وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ(٤)، وهذه

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦). (٢) انظر: فقه السيرة، ص٤٢٧.

(٣،٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة، ص٢١٩.

مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

١- الأعرابي الذي رفض البشرى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبيَّ ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر» فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رد البشرى، فاقبلا أنتما» قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا» فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة[1].

٢- مقولة الأعرابي: ما أريدَ بهذه القسمة وجه الله:

قال عبد الله بن مسعود ﷺ:... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله، قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!» قال: ثم قال: «يرحم الله موسى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا[2].

تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر[3] ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسولَ الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر[4]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها درر

---

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٢٨.

(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث ١٠٦٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٣٥٢).

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السلام عليهم قديما وحديثًا وخصوصًا وعمومًا[1].

فلما سمع رسول الله ﷺ من الوفد قال لهم: «نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم» فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس ابن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ قال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ «من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه، فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم»[2]، وفي رواية... فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين فقال: «إن إخوانكم هؤلاء جاءونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا[3] وقد سر الرسول ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلمًا، فجاء مالك مسلمًا فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة. لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي ﷺ فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣١٩.

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشاء يخبر عما في غد

وإذا الكتيبة عردت[1] أنيابها ... بالسمهري وضرب كل مهند

فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة[2] خادر[3] في مرصد[4]

لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود؛ وبهذه السياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفًا في الطائف حتى ضيق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان فلا تستطيع تحركًا ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوبًا عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف[5].

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي ﷺ في معاملة النفوس، ومن سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنية، وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعين عتاب بن أسيد أميرا على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشدًا وموجهًا ومعلمًا ومربيًا[6]، وعين على هوازن مالك بن عوف قائدًا ومجاهدًا، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ﷺ.

* * *

(1) عردت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(2) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص٦٨٩.
(3) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.
(4) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).
(5) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٢).
(6) المصدر نفسه (٤/ ١٥٣).

المبحث الثالث

دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

إن غزوة حنين سجلت في القرآن الكريم لكي تبقى درسا للأمة في كل زمان ومكان، ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي[١]:

أ- بين القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ثم بين القرآن أن هذه الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

ب- بين القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي ﷺ ونفر يسير من أصحابه، قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

ج- بين القرآن الكريم أن الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

د- بين القرآن الكريم أن الله أمد نبيه محمدا ﷺ بالملائكة في حنين قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وأكد -سبحانه- على أنه يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثانيًا: أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أ- أسباب الهزيمة:

وقعت الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

١- أن شيئًا من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين، لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

---

(١) انظر: حديث القرآن (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).

٢- خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كافٍ، وإنما عندهم حماس وتسرع.

٣- أن عدد المشركين كان كثيرًا بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤- أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين، برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

٥- كان العدو مهيأ ومنظما ومستعدا للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم.

٦- وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثًا في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سببا لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم[1].

ب- عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنينٍ عدة أسباب منها:

١- ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

٢- شجاعة القائد، فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب، بل تقدم نحو عدوه راكبًا بغلته، فطفق يركض ببغلته قِبَل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها ألا تسرع.

٣- ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

٤- سرعة استجابة الفارّين والتحاقهم بالقتال.

٥- وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

٦- رمية الحصى، فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»[2].

٧- الاستعانة والاستغاثة بالله عز وجل، فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٦، ١١٧).

٨- إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتهم فيها، وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التوبة[١]: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ثالثًا: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١- نزول الآية الكريمة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل[٢].

٢- منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحًا إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل عليَّ النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعته يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله، أرأيت إن فتح الله عليك الطائف غدًا، فعليك بابنة غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال النبي ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكم»[٣].

وفي هذا المنع حرص النبي ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلامي.

٣- النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين: وقد ذكر ابن كثير أن رسول الله مر يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون[٤] عليها، فقال رسول الله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالدًا فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفًا»[٥]، وفي رواية: «فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا»[٦].

٤- تشريع العمرة من الجعرانة: أحرم النبي ﷺ بعمرة من الجعرانة، وكان داخلا إلى مكة وهذه هي السنَّة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلا إلى مكة ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها[٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٤٢٣.
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٢٠).
(٣) البخاري، كتاب المغازي، (٥/ ١٢٠) رقم ٤٣٢٤.
(٤) متقصفون: مجتمعون.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٣٦).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٣٣٥).
(٧) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).

٥- إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج:

قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق[١] -أو قال: أثر صفرة- فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه فنظرت إليه، فإذا له غطيط (قال) فلما سري عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة -أو قال: أثر الخلوق- واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك»[٢].

٦- من قتل قتيلاً فله سلبه: قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلا من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًّا شديدًا حتى تخوفت، ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: «من أقام بينة على قتيل قتله، فله سلبه»، فقمت لألتمس بينة قتيلي فلم أر أحدًا يشهد لي فجلست، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه[٣] أصيبغ من قريش ويدع[٤] أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله، قال: فقام رسول الله ﷺ فأداه إليَّ فاشتريت منه خرافًا[٥]، فكان أول مال تأثلته في الإسلام[٦].

ونلحظ في هذا الخبر أن أبا قتادة الأنصاري ﷺ حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق ﷺ فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق، والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له[٧].

٧- النهي عن الغلول: أخذ النبي ﷺ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين إصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس،

---

(١) خلوق: طيب.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٧٨.

(٣) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله ﷺ وقوله أصيبغ: نوع من الطيور شبه له لعجزه وضعفه.

(٤) يدع: يترك.

(٥) خرافا: أي بستانا أقام الثمر مقام الأصل.

(٦) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٩) رقم ٤٣٢٢.

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (٨/ ٢٦).

والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، ونار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة»[1].

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفا شديدًا فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك»، فقال الأنصاري: أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها من يده[2].

وأما عقيل بن أبي طالب فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطخ دمًا، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئًا فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم[3].

وهذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه، يمثل معلما من أهم معالم المنهج النبوي في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العملية، إيمانًا وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتطهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم[4].

٨- وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأل عمر النبي ﷺ عن نذر كان نذره في الجاهلية اعتكافًا فأمره النبي ﷺ بوفائه[5].

رابعًا: مواقف لبعض الصحابة والصحابيات:

١- أنس بن أبي مرثد الغنوي وحراسة المسلمين:

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا الليلة؟» فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب» فركب ابن أبي مرثد فرسا له، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ونُغْرَنَّ من قبلك الليلة».

(١، ٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٥).

(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٣٨٧؛ ٣٨٨).

(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٨)، رقم ٤٣٢٠.

قال سهيل بن الحنظلية: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسناه، فثّوب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشعْب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم»، فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشعب حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقال: لا، إلا مصليا أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها»[1] وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي ﷺ بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر مهم، ثم إنه ﷺ قال: «أبشروا فقد جاء فارسكم»، إنها الكلمة التي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كمًّا مهملاً، ولا رقمًا في سجل ولا بزالاً في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة ليؤتى بغيره، إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي[2] في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

كما أن في هذه القصة معلمًا من معالم المنهج النبوي الكريم في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عددًا وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض[3].

وأما قول الرسول ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها» فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملا صالحًا كبيرًا يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[4].

٢- شجاعة أم سليم يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرا[5] فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك،

(١) أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٠١، صحيح السيرة النبوية، ص٥٥٠.
(٢) انظر: معين السيرة، ص٤٢٩.
(٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٣٦٦).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤).
(٥) خنجرًا: سكين كبير ذو حدين.

قالت: يا رسول الله، اقتل من بعدنا[1] من الطلقاء[2] انهزموا بك[3]، فقال رسول الله: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن»[4].

٣- الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ من الرضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله، ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك[5]، وعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيَّرها، وقال: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت» فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[6]. ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء[7].

خامسًا: إسلام كعب بن زهير -الشاعر- والهيمنة الإعلامية على الجزيرة:

لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير -الشاعر ابن الشاعر- وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه (بجير) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائبا مسلما، وحذره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ والتي اشتهرت بـ (قصيدة بانت سعاد)، فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، ثم جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ: إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك فقد جاء تائبًا نازعًا»، وأنشد كعب قصيدته اللامية التي قال فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول[8] ... متيم إثرها لم يفد مكبول

---

(١) من بعدنا: من سوانا.

(٢) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.

(٣) انهزموا بك: انهزموا عنك.

(٤) مسلم، رقم ١٨٠٩، صحيح السيرة النبوية، ٥٦٣.

(٥) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.

(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٦٣) السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٠٦).

(٧) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٣٥٨.

(٨) متبول: مغرم، مكبول: مقيد.

وما سعاد غداة الطرف إذ رحلوا ... إلا أغنُّ قرير العين مكحول[1]

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا: زولوا

شُمُّ العرانين أبطال لبوسُهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل[2]

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بردته، وهي التي صارت إلى الخلفاء[3]. قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جدًّا، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم[4].

ويقال: إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك: «لولا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل!»[5]، فقال:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصار[6]

ورثوا المكارم كابرًا عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

المكرهين السمهريَّ بأذرع ... كسوالف الهندي غير قصار[7]

والناظرين بأعين محمرَّة ... كالجمر غير كليلة الأبصار

والبائعين نفوسَهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق وكرار

والقائدين[9] الناس عن أديانهم ... بالمشرفي وبالقنا الخطار[8]

يتطهرون يرونه نسكًا لهم ... بدماء من علقوا من الكفار

إلى أن قال:

لو يعلم الأقوام علمي كله ... فيهم لصدقني الذين أماري[10]

---

(١) أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنة.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٩- ٣٧١).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣٧٤).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٣٧٣).

(٦) المقنب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جيادهم.

(٧) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.

(٨) المشرفي: السيف، والقنا، الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.

(٩) القائدين: المانعين الناس.

(١٠) أماري: أجادل.

قــــوم إذا خـــوت النجـــوم فـــإنهم   للطـــارقين[1] النـــازلين مقـــاري[2]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول إن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي، واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام، بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة[3].

سادسًا: من نتائج غزوة حنين والطائف:

١- انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

٢- كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي ﷺ لمشركي العرب.

٣- رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفا لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسام عظيم وهو شهادة رسول الله لهم بالإيمان، والدعاء لهم ولأبنائهم وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله ﷺ إلى المدينة.

٤- انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حربًا ضروسًا على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن، دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

٥- توسعت الدولة الإسلامية وامتد نفوذها وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكة وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءًا من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوثا دعوية بدون خوف أو وجل من أحد، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلا، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة[4].

* * *

---

(١) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقين: الذين يأتون بالليل.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٣) انظر: معين السيرة، ص٤٣١- ٤٣٣.

(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها في السيرة النبوية (٢/ ٩٦١).

الفصل الثالث عشر

غزوة تبوك (٩هـ)، وهي غزوة العسرة

المبحث الأول

تاريخ الغزوة، وأسماؤها وأسبابها

أولاً: تاريخها وأسماؤها:

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري[(١)] بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر[(٢)].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي»[(٣)].

وللغزوة اسم آخر، وهو: غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقد روى البخاري بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة)[(٤)].

لقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه[(٥)]، ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٤٠- ٥٤٢)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٤.

(٢) انظر: فتح الباري (١٦/ ٢٣٧).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤) رقم ٧٠٦.

(٤) البخاري (٥/ ١٥٠) رقم ٤٤١٥.

(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص٨٣.

عسرة من الماء[1]، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه[2].

وللغزوة اسم ثالث هو: الفاضحة، ذكره الزرقاني -رحمه الله- في كتابه «شرح المواهب اللدنية»[3] وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين[4].

وأما موقع تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك[5].

ثانيًا: أسبابها:

ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء[6] فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[7].

ويرى ابن كثير أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد؛ ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب، إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة بمن فيهم أهل الكتاب، الذين وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير[8].

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٧٤).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤).

(٣) انظر: شرح المواهب اللدنية (٣/ ٦٢).

(٤) انظر: الصرع مع الصليبيين، ص٨٤.

(٥) انظر: المجتمع الإسلامي للعمري، ص٢٢٩.

(٦) البلقاء: هي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمان.

(٧) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٦٥).

(٨) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٣).

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان واردًا.

لقد كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام، ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهرا فهجرهن، ففي صحيح البخاري: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أثمَّ هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه...[1].

ثالثًا: الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد:

حث رسول الله ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان ﷺ صاحب القِدْح المُعَلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[2]، فهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله، عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه [3] وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يقبلها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم -يرددها مرارًا-»[4].

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا[5].

---

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته (٦/ ١٨٠) رقم ٥١٩١.

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٥.

(٣) سنن الترمذي، مناقب (٥/ ٦٢٥، ٦٢٦) رقم ٣٧٠٠.

(٤) مسند أحمد (٥/ ٦٣).

(٥) سنن أبي داود، الزكاة (٢/ ٣١٢، ٣١٣) رقم ١٦٧٨.

وروى أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة[1].

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رضي الله عنهم[2].

وهكذا يفهم المسلمون أن المال وسيلة، واستطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن مالهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف؛ لأن تاريخ المال في يد الرجال لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله تعالى[3].

إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلا على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير، ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها، مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرسًا كريمًا[4].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء؛ ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عقيل بنصف صاع تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوها قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾[5] [التوبة: ٧٩].

وقالوا: ما أعطي ابن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء[6].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين؛ لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد، فهذا عُلْبَة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض، فأخبره النبي ﷺ أنه قد غفر له[7].

---

(١) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦.

(٢) انظر: مغازي الواقدي، (٣/ ٣٩١). (٣) انظر: معين السيرة، ص٤٤٩.

(٤) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، للسباعي، ص١٦١.

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦.

(٦) المصدر نفسه، ص٦١٧.

(٧) وردت من طرق ضعيفة ولها شاهد صحيح وهي بالجملة تصلح للشاهد التاريخي، انظر: المجتمع المدني للعمري، ص٢٣٥.

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص وحب الجهاد لنصرة دين الله وبث دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عيشة عملية[1].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته:... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه؟ فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله[2] عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا[3]، فأصابني قلائص[4]، فسقتهن حتى أتيته فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كرامًا، إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهمك أردنا [5].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية، أجرًا وثوابًا يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر[6].

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي ﷺ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل[7].

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقًا للجهاد وتحرجًا من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٤/ ٤٤٣).

(٢) عقبة: أي بالتعاقب.

(٣) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.

(٤) قلائص: إبل.

(٥) انظر: جامع الأصول رقم ٦١٨٨، معين السيرة، ص٤٥٣.

(٦) انظر: معين السيرة، ص٤٥٣.

(٧) انظر: المجتمع المدني، ص٢٣٦.

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباتهم، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيرهما يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[١] وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر»[٢].

رابعًا: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۞ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢].

وقال رسول الله ﷺ وهو في جهازه لتبوك، للجد بن قيس: «يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]. وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذارًا كاذبة ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم[٣].

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين، واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدقّ أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات، وابتكار أساليب التثبيط، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٨.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤٢٣.

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٨.

علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازما حاسما، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه، ونفذ بحزم، وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسئول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الشائعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول؛ لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها[1].

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة وأثناءها وبعدها، ومما جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمن استئذانهم، وتخلفهم عن الخروج، وكان ممن تخلف عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وقد تحدث القرآن عنهم فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]. فقد بين -سبحانه وتعالى- موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بعد المسافة وشدتها، وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه يا محمد عرضًا من أعراض الدنيا ونعيمها وكان السفر سهلا لاتبعوك في الخروج، ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوا، فالآية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة، وأسباب هذا الموقف، ثم حكى -سبحانه- ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. كان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك. والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله -كذبًا وزورًا- قائلين: لو استطعنا -أيها المؤمنون- أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجنا، فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف[2].

وقوله -سبحانه-: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. قال ابن عاشور: أي يحلفون مهلكين أنفسهم -أي موقعينها في الهلك، والهلك: الفناء والموت- ويطلق على الأضرار الجسمية وهو المناسب هنا أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة، وفي هذه الآية دلالة على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[3].

ثم عاتب الله تعالى نبينا محمدا ﷺ بقوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٢١.

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).

(٣) انظر: تفسير التحرير و التنوير (١٠/ ٢٠٩).

قال مجاهد[1]: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعا وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة[2].

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير -سبحانه- لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال[3] ثم قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥].

هذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[4]، فبين -سبحانه- أنه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان وترك الجهاد في سبيل الله، وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر، وصفهم -سبحانه- بقوله: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جئتهم به، وقوله ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء[5].

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين، ولم يعد هناك أي مجال للتستر على المنافقين أو مجاملتهم، بل أصبحت مجابهتهم أمرًا ملحًّا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى ورسوله ﷺ والذي نزل به القرآن الكريم، بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبًا شرعيًّا[6].

خامسًا: إعلان النفير وتعبئة الجيش:

أعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك، حتى بلغ عدد من خرج مع النبي ﷺ إلى تبوك ثلاثين ألفا، وقد عاتب القرآن الكريم الذين تباطأوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شبابًا وشيوخًا وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٠).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).

(٤) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٧).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).

(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٩).

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل[1] من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، ولقد أعلن رسول الله ﷺ -على غير عادته في غزواته- هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر (الروم)، علما بأن هديه في معظم غزواته أن يوري فيها[2]، ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده، حفاظًا على سرية الحركة ومباغتة العدو[3].

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره، وقد صرح ﷺ في هذه الغزوة -على غير العادة- بالجهة التي يريد غزوها. وجلى هذا الأمر للمسلمين لأسباب، منها:

١- بعد المسافة، فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن السير إلى بلاد الروم يعد أمرًا صعبًا؛ لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة قليلة الماء والنبات، ولا بد -حينئذ- من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة؛ حتى لا يؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

٢- كثرة عدد الروم، بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعدادًا خاصًا، فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي ﷺ من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة، وقدرتهم القتالية فائقة[4].

٣- شدة الزمان، وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه، ويعد النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه[5].

٤- أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة[6].

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[7].

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها، وحث الرسول ﷺ على

(١، ٢، ٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٩٧.

(٤) انظر: الرسول القائد، ص٣٩٨.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٤).

(٦) انظر: غزوة تبوك، محمد أحمد باشميل ص٥٧.

(٧) انظر: القيادة في عهد الرسول ﷺ، ص٥١٠.

النفقة قائلا: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»[1].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلَّف علي بن أبي طالب على أهله، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا وتخففا منه، فأخذ علي ﷺ سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف[2] فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: «كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي»[3] فرجع عليٌّ إلى المدينة[4].

وكان استخلاف علي ﷺ في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته، فكان استخلافه في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافًا عامًّا، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول؛ لأن خلافته كانت في أهله خاصة[5].

وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله، اختار الأمراءَ والقادة وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى اللواء الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ﷺ ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء[6]، واستعمل رسول الله ﷺ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان ﷺ يطوف في أصحابه على العسكر[7]، وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك[8].

وقد انفرد الواقدي بالمعلومات عن طريق الجيش وتوزيع الرايات، وهو متروك، ولكنه غزير المعلومات في السيرة، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضر[9].

ويلاحظ الباحث التطور السريع لعدد المقاتلين بشكل عام، ولسلاح الفرسان بشكل

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٣).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٢٩).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٨٩، البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤١٦.

(٤) انظر: زاد المعاد، (٣/ ٥٣٠).

(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٦٦، ٤٦٧.

(٦) انظر: المغازي (٣/ ٩٩٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد، (٢/ ١٦٦).

(٧) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٥٢)، الصراع مع الصليبيين، ص٩٩.

(٨) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٤٥١)، شرح المواهب اللدنية (٣/ ٧٢).

(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٢).

خاص. إن الذي يدرس تاريخ الدعوة الإسلامية، ونشوء الدولة الإسلامية ومؤسساتها العامة -وفي مقدمة هذه المؤسسات الجيش الإسلامي القوة الضاربة للدولة- يلاحظ أن هناك تطورًا سريعًا جدًّا في مجال القوة العسكرية، إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدر الكبرى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا، وفي غزوة أحد بلغ سبعمائة مقاتل تقريبا، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتل، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلاف مقاتل، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتل، وأخيرًا بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتل أو يزيد.

وإن الدارس يلاحظ هذا التطور السريع اللافت للنظر في مجال سلاح الفرسان، ففي غزوة بدر كان عدد الفرسان فارسين في بعض الروايات، وفي غزوة أحد لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدر، ويقفز العدد بعد ست سنوات فقط إلى عشرة آلاف فارس، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وبخاصة في البادية، ذلك لأن أهلها يهتمون باقتناء الخيول وتربيتها أكثر من أبناء المدن[1].

* * *

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٠٠.

المبحث الثاني

أحداث في الطريق والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش وتوزيع المهام والألوية والرايات، توجه الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك، ولم ينتظر أحدًا قد تأخر، وقد تأخر نفر من المسلمين يظن فيهم خير، وكلما ذكر لرسول الله اسم رجل تأخر قال ﷺ «دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»[1].

أولاً: قصة أبي ذر الغفاري:

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[2] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ «كن أبا ذر»[3] فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[4]، ومضى الزمان، وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه[5].

---

(١) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، للكلاعي (٢/ ٢٧٦).

(٢) تلوم على بعيره: تمهل.

(٣) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء؛ أي أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٨).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٨).

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- ما تعرض له أبو ذر الغفاري ﷺ من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله منها وقواه بالصبر عليها، لقد بذل أبو ذر جهدًا كبيرًا في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[١].

٢- وفي قوله ﷺ «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» دلالة واضحة -وضوح الشمس في رابعة النهار- على صدق نبوة الرسول ﷺ إذ الإخبار بأمور لا تقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول ﷺ وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة[٢].

٣- كما أن في القصة دلالة على علم ابن مسعود ﷺ وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيئول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته ﷺ[٣].

ثانيًا: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق:... ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[٤] قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح[٥] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه[٦] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو خيثمة، فلما

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٢٩، التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ١١٤).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٢٩.
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١١٤).
(٤) حائطه: أي بستانه. (٥) الضح: أي في الشمس.
(٦) ناضحه: أي جمله.

أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك[1] يا أبا خيثمة»، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير[2].

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعرًا، واسمه مالك بن قيس:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا	أتيت التي كانت أعفَّ وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد	فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما
تركت خضيبا[3] في العريش[4]	صفايا[5] كرامًا يسرها قد تحمما[6]
وكنت إذا شك المنافق أسمحت[7]	إلى الدين نفسي شطره حيث يمما[8]

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- المسلم صاحب ضمير حي:

فقد رأى أبو خيثمة ﷺ ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فأبصر وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي، ولعله كان قادما من مكة، فهذه الصورة تبين لنا مثلا من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيمانا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم، وفي بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقد تذكر سريعا وخرج لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره[9].

٢- معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم:

إن قول الرسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل: «كن أبا خيثمة»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو خيثمة، يدل على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه وأنه أعرفهم بمعادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف

---

(١) أجدر بك.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٨).

(٣) خضيبا: مخضوبة وهي المرأة.

(٤) صرمة: جماعة النخل.

(٥) صفايا: كثيرة الثمر.

(٦) تحمما: أخذ في الإرطاب فاسود.

(٧) أسمحت: انقادت

(٨) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٨).

(٩) انظر: التاريخ الإسلامي، (٨/ ١١١، ١١٢).

التائب المنيب إلى ربه إذ زلت قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته[1].

٣- حزم أبي خيثمة وصبره ونفاذ عزيمته:

تأمل هذا القرار الذي اتخذه أبو خيثمة ﷺ أن يلحق برسول الله ﷺ وحده، في هذه الرحلة المضنية، في هذه الصحراء القليلة الماء ذات الحر اللافح، لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفذه بدقة، فدل على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جلده وصبره[2].

٤- عتاب القائد للجندي له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفا بذنبه، يطرح السلاح على رسول الله ﷺ فعاتبه، ﷺ معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهلكة.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب..

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين[3].

ثالثًا: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النبي ﷺ لم يجد أثرًا للحشود الرومانية ولا القبائل العربية، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقا في الدخول مع المسلمين في قتال، حتى القبائل العربية المتنصرة آثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية، فقد أرسل ملك أيلة للنبي ﷺ هدية -وهي بغلة بيضاء وبرد- فصالحه على الجزية.

وأرسل خالد بن الوليد ﷺ على رأس سرية من الفَرسان بلغ عددها أربعمائة وعشرين فارسا إلى دومة الجندل، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أكيدر بن عبد الملك الكندي –

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣، ١٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٤.

ملكها- وهو في الصيد خارجها[١]، فصالحه النبي ﷺ على الجزية[٢]، وقد تعجب المسلمون من قباء كان أكيدر يلبسه، فقال الرسول ﷺ: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» [٣] وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح[٤]، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي ﷺ وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية[٥]، وكتب رسول الله ﷺ معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح[٦]، ولأهل مقنا[٧] يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله ﷺ بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة وعقد معها معاهدات، وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية[٨]، وبهذه المعاهدات قص ﷺ أجنحة الروم، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا في النصرانية، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعد قصًا لهذه الأجنحة، وبترًا لحبال تبعيتهم للروم، وتحريرًا لهم من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئا يعيشون به، وخوفا من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[٩]، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين والروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين، وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامي في عهدهم، فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[١٠].

رابعًا: وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحجر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاري ؓ: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره، وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟»

---

(١) انظر: الإصابة (١/ ٤١٢- ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٠). (٣) المصدر نفسه (٤/ ١٨٠) بإسناد حسن.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة ضعيف فضلا عن إرسال عروة.

(٥) انظر: المجتمع المدني للعمري، ص٢٤١.

(٦) المغازي (٣/ ١٠٣٢).

(٧) انظر: الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص١١٩- ١٢٤.

(٨) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٢١٧.

(٩) محمد صادق عرجون (٤/ ٤٧٩). (١٠) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٢٢١.

فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله، قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا»[1]. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[2] وقال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر[3] فأسرع حتى خلفها[4]، وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله ﷺ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وألا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقا للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوة، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله عز وجل ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى –سبحانه- أبلغ، ولهذا تسجى النبي صلوات الله وسلامه عليه بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة واستحث خطا راحلته[5] وقال لأصحابه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم ما أصابهم»[6].

خامسًا: وفاة الصحابي عبد الله ذي البجادين[7] رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله

---

(١) انظر: الفتح الرباني (٢١/ ١٩٥).
(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٣٧٩.
(٣) زجر: أي زجر ناقته، ومعناه ساقها سوقا شديدا حتى خلفها أي جاوز المساكن.
(٤) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٣٨١.
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٨٠.
(٦) البخاري، كتاب الأنبياء رقم ٣٣٨١.
(٧) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما» فدلياه إليه، فلما هيأه بشقه، قال: «اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه» قال (الراوي عن ابن مسعود): قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[1].

قال ابن هشام: وإنما سمي ذا البجادين؛ لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك يضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبا منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين، لذلك[2].

وفي هذه القصة دروس وحكم وفوائد منها:

١- تكريم النبي ﷺ لجنوده أحياء وأمواتًا:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النبي ﷺ على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله تاركين وراءهم أعز ما يملكون، فكانت تلك الرعاية مظهرًا من مظاهر تكريمهم في الدنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذئاب وغيرها من دواب الأرض؛ لكي يكون هذا التكريم من الأسباب التي تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام في ميادين الجهاد، ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعو إلى تطبيقه إلا في العصر الحديث، وبهذا يمكن أن يقال: إن رعاية القائد المسلم لشئون جنده تعد سبقا عسكريًا لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة، من بزوغ الإسلام[3].

فهذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام من يبر ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فردا من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضيا عنه[4].

٢- جواز الدفن في الليل، والغبطة مشروعة في الخير:

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلا، والسنة أن يعجل في دفن الميت، كما أن الغبطة وهي أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك، وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تمنى زوال النعمة عن غيرك، والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٢).

(٣) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص٢٩٩.

(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٧٢.

تكون إلا في الخير[1]، تأمل قول عبد الله بن مسعود ﷺ حينما سمع رسول الله ﷺ يقول في حق ذي البجادين: «اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه» فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد[2] إنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك، فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس[3].

سادسًا: بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة:

ظهرت في غزوة تبوك معجزات منها:

١- الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه بالسقيا:

لما جاز النبي ﷺ حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله -سبحانه وتعالى- سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدث ابن إسحاق عمن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمه، وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضا على ذلك، ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة[4].

٢- خبر ناقة رسول الله ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائرًا في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له: عمارة بن حزم، وكان عقبيًا بدريًا، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقًا.

قال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي؟ ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلا قال: هذا محمد يزعم أنه يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها»

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٦٣، ١٦٤. (٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

(٣) انظر: معين السيرة، ص٤٥٢.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٧٦/٤)، صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٧٣.

فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن اللصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) يقول: إليَّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، اخرج أي عدو الله[1] من رحلي فلا تصحبني، قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهما بشر حتى هلك[2].

٣- الإخبار بهبوب ريح شديدة والتحذير منها:

أخبر رسول الله ﷺ أصحابه في تبوك بأن ريحًا شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، فهبت الريح الشديدة وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد[3] فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ[4].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم معقبا على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من إخباره ﷺ بالمغيب وخوف الضرر من القيام وقت الريح[5].

٤- تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه من خصب:

قال معاذ بن جبل ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك[6]، تبض[7] بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئا؟» قالا: نعم، فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر حتى استقى الناس[8].

---

(١) انظر: إعلام النبوة للماوردي، ص١٠٠، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٧). (٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤١.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٤٢)، مختصر مسلم رقم ١٥٤٣.
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٤٢).
(٦) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جدا.
(٧) تبض: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه تسيل.
(٨) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٤١)، مختصر مسلم رقم ١٥٣٠.

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانًا»[1]، لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله -عز وجل- أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتيا لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة، ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، وما زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقًا، ولا يخبر إلا حقا، ولا ينبئ بشيء إلا ويتحقق[2].

٥- تكثير الطعام:

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[3] فأكلنا وأدمنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا»، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قل الظَّهْر[4] ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة، لعل الله يجعل في ذلك، فدعا رسول الله ﷺ بنطع[5] فبسطه، ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع في ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا من أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فتحجب عنه الجنة»[6].

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته، وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه[7].

سابعًا: حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين أثناء الغزوة:

أ- قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-:

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، الفتح الرباني (٢١/١٩٦).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤٢.
(٣) نواضحنا: جمع ناضح وهي الإبل التي يسقى عليها.
(٤) الظهر: ما يحمل عليه من الإبل.
(٥) النطع: بساط من الجلد.
(٦) الفتح الرباني (٢١/١٩٦- ١٩٨).
(٧) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤١.

أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا بحقب[1] ناقة رسول الله والحجارة تنكبه[2]، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟».

وفي رواية قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات.. فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله ﷺ «احبسوا هؤلاء الركب»، فأتاهم فقال: قلتم كذا وقلتم كذا، قالوا: فأنزل الله فيهم ما تسمعون[3]، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٥].

والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ استفهام إنكاري.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء موبخًا ومنكرًا: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم -كما تزعمون- سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟!

ثم بين -سبحانه- أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر فقال: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومعنى الآية: أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرار بذنبكم، فهو كما يقال: عذر أقبح من ذنب[4].

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم -كمخشن بن حمير- نعذب بعضًا آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه[5].

ب- إيذاء الرسول والمؤمنين ومحاولة اغتيال رسول الله:

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِه فَإِن يَتُوبُوا

---

(١) الحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير.

(٢) الحجارة تنكبه: تصيبه وتؤذيه.

(٣) انظر: الدر المنثور للسيوطي، (٤/ ٢٣٠).

(٤) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٥٣).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ١٥٣).

﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

وقد ذكر ابن كثير أن الضحاك قال: إن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلا نزلت فيهم هذه الآية[١]، وفي رواية الواحدي عن الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم رسول الله: «يا أهل النفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فحلفوا ما قالوا شيئا من ذلك، فأنزل الله هذه الآية إكذابًا لهم[٢].

والمعنى الإجمالي للآية: (يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم. ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها...)[٣].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص٢٥١.

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٥).

المبحث الثالث

العودة من تبوك إلى المدينة وحديث القرآن في المخلَّفين عن الغزوة وعن مسجد الضرار

عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلة[1]، وقد أمر النبي ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون وهو راجع إلى المدينة، ولما اقترب من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه، ودخل المدينة، فصلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس، وجاء المخلفون لرسول الله ﷺ يقدمون له الاعتذار، وكانوا أربعة أصناف: فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله -سبحانه وتعالى-، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِه مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[التوبة: ٩١، ٩٢].

بينت هذه الآيات الكريمة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذر شرعي بأنه ليس عليهم حرج وليس عليهم إثم في هذا التخلف؛ ذلك لأن لهم عذرًا شرعيًا منعهم من الخروج، وفي المراد بالضعفاء: أنهم الزمنى والمشايخ الكبار، وقيل: الصغار، وقيل: المجانين، سموا ضعافًا لضعف عقولهم، ذكر القولين الماوردي. والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة أو عمى، أو سن، أو ضعف في الجسم، والمرضى: الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال[2].

وقوله: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على الذين لا يجدون نفقة تبلغهم إلى الغزو حرج أو إثم ﴿إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِه﴾أي إذا عرفوا الحق، وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه[3].

وقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾قال الطبري: يقول تعالى: ليس على من أحسن فنصح لله ورسوله في تخلفه عن رسول الله عن الجهاد معه، لعذر يعذر به، طريق يتطرق عليه

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٦٠٣.

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٨٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).

فيعاقب من قبله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها[1].

وقال القرطبي: الآية أصل في سقوط التكاليف عن العاجز، من جهة القوة أو العجز من جهة المال[2].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ معطوف على ما قبله من عطف الخاص على العام، اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم -لتميزهم- جنس آخر، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾.

أي: لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا ما تخلفوا عن الجهاد، وكذلك لا حرج ولا إثم أيضا على فقراء المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الرواحل التي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل، ﴿قُلْتَ﴾ لهم يا محمد[3]: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأنهم لا يجدون المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[4].

ثانيًا: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدث عن هؤلاء المخلفين وهي:

١- قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

ومعنى الآية الكريمة: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا، ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١١).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٢).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٧٣).

وفي قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم -مع الاعتراف- ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة -وهي الاعتراف- قامت مقام التوبة، وحرف الترجي وهو (عسى) هو في كلام الله -سبحانه- يفيد تحقيق الوقوع لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب؛ لكونه أكرم الأكرمين ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون -كما في الصحيحين- هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع، وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ﷺ لأمر ما -مع الهمّ باللحاق به عليه الصلاة والسلام- فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق -وحاشاهم- فقد كانوا من المخلصين، فلما قدم النبي ﷺ وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا له ﷺ ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري[2]، وأمر رسول الله باجتنابهم، وشدد الأمر عليهم كما سنعلمه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله -تعالى- فاعل بهم[3].

٣- قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وفيهم نزلت هذه الآية[4]، وسوف نتحدث عن هذه القصة -بإذن الله- بنوع من التفصيل لما فيها من الدروس والعبر والحكم.

ثالثًا: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

رابعًا: المخلفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝

---

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٣٩٩).

(٢) أي الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة وأصحابه.

(٣) انظر: تفسير الألوسي (١١/ ١٧).

(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٧).

حوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾

[التوبة: ٨١: ٨٣].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرسول ﷺ في معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له، عن المسلمين الصادقين، حيث إنه ﷺ عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة! ولا شك أن الشدة والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم -على أي حال؟! إنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا، من الدرك الأسفل في النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جل جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، وفيم معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام؛ كما يبدون لنا هم أيضًا الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم، قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب -سبحانه- بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظا حذرًا، وأما من سقط من عين الله وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبا أحدث له نعمة[1].

خامسا: مسجد الضرار:

في أثناء عودة النبي ﷺ إلى المدينة راجعا من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

[التوبة: ١٠٧-١٠٨].

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة -قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها- رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة[1]. هذا ما ذكره ابن كثير في سبب النزول.

أما معنى الآيات الكريمات: أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء المسجد أربعة أمور:

١ـ الضرار لغيرهم، وهو المضارة.

٢ـ الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

٣ـ التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا ألا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى.

٤ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله، أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله[2].

وقد خيَّب الله -تعالى- مسعاهم، وأبطل كيدهم بأن أمر نبيه ﷺ بهدمه وإزالته.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤٠٣).

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم نهى الله تعالى رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهيا مؤكدًا، فقال سبحانه: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

قال ابن عاشور: وقوله سبحانه: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ المراد بالقيام الصلاة؛ لأن أولها قيام، ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبي ﷺ فيه تكسبه يمنًا وبركة فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزية عليه؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر، ومالك بن الدخشم مع بعض أصحابه وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه»، ففعلوا[1] وقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ احتراس مما يستلزمه النهي عن الصلاة فيه من إضاعة عبادة في الوقت الذي رغبوه للصلاة فيه، فأمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم[2].

وفيه أيضا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول ﷺ بأنه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع فقوله: ﴿أَحَقُّ﴾ وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة؛ لأن النهي عن صلاته في مسجد الضرار أزال كونه حقيقًا بصلاته فيه أصلاً.

ولعل نكتة الإتيان باسم التفضيل أنه تهكم على المنافقين لمجازاتهم، ظاهرا في دعوتهم النبي ﷺ للصلاة فيه بأنه وإن كان حقيقًا بصلاته بمسجد أسس على التقوى أحق منه، فيعرف من وصفه بأنه ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أن هذا أسس على ضدها[3].

وقد رأى ابن عاشور أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى أنه مسجد هذه صفته لا مسجدا واحدا معينا، فيكون هذا الوصف كليا انحصر في فردين: المسجد النبوي، ومسجد قباء[4].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ روى ابن ماجه أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ «يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور فما طهوركم؟» قالوا:

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٤).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦١).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١١/ ٣١).

(٤) المصدر نفسه (١١/ ٣٢).

نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ونستنجي بالماء، قال: فهو ذاك فعليكموه[1]. وفي قصة مسجد الضرار دروس وعبر وفوائد منها:

١- الكفر ملة واحدة:

وقد تبين هذا في موقف أبي عامر الراهب من الإسلام ومن المسلمين؛ إذ غضب غضبا شديدا، وتألم لهزيمة المشركين في بدر، فأعلن عداءه للرسول، وتوجه إلى عاصمة الشرك مكة يحث أهلها على قتال المسلمين، وخرج مقاتلا معهم في أحد، وحاول تفتيت الصف الإسلامي[2] وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

٢- محاولة التدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشرعية على هذا البناء وأنه مسجد بنوه لأسباب مقنعة في الظاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ الصلاة في هذا البناء ليكون مسجدا قد باركه رسول الله ﷺ بالصلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلي على كثير من الناس[3].

٣- فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين:

إن الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهية بالنبي ﷺ فقد أطلعه الله -عز وجل- على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلى في البناء فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله ﷺ صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالشائعات[4].

٤- العلاج النبوي الحاسم:

إن ما قام به الرسول ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنه لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالماء (١/ ١٢٧).

(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٧٩.

(٣، ٤) المصدر نفسه، ص١٨١.

إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث، هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئا فشيئا حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[1].

٥- ما يلحق بحكم مسجد الضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

أ- قال الزمخشري:... وقيل كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار[2].

علق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري فقال: ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة وأمر النبي ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال إن المسجد الذي بنى لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى[3].

ب- قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه[4].

ج- وقال سيد قطب في تفسيره: هذا المسجد مسجد الضرار الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين، هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى؛ يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه... ويتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، ويتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يُذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأنه لا داعي للخوف أو القلق عليه[5].

٦- قاعدة لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار:

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: كل ما يتخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متخذوه

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٠).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٣١٠).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٤).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥٤).

(٥) في ظلال القرآن (٣/ ١٧١٠، ١٧١١).

تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق بالمسجد الضرار، لأنه يحمل روحه وعناصره[1]، وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: كل ما كان ظاهره مشروعا ويريد متخذوه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار[2].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك؛ لأن هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به وإن استحقت الإزالة كمسجد الضرار باعتبارها منكرات ظاهرًا وباطنًا[3].

٧- مساجد الضرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين (المنصِّرين) والمستعمرين، يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب، والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم، وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة -لاسيما في بلاد إفريقيا- ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون[4].

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت، بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الأخروي[5].

* * *

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٥٠٦). (٢، ٣) المصدر نفسه(٢/٥٠٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٠٨).

(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٨٢.

المبحث الرابع

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك ﷺ في كتب السيرة والحديث والتفسير بروايات متقاربة في ألفاظها، ولقيت عناية فائقة في الشرح والتدريس، وكان صحيح البخاري من أكثر الكتب دقة وتفصيلا لهذه القصة[1].

ونترك كعب بن مالك ﷺ يحدثنا بنفسه حيث قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة[2] حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن -قط- أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان -قط- حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوًّا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريدون الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[3] وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٨٧.

(٢) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار على الإسلام.

(٣) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره في عطفيه[1] فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا[2] يزول به السراب[3] فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه[4] المنافقون، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً[5] من تبوك حضرني بثي[6]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا[7] زاح[8] عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه[9] وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» قال: قلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[10] ولكني -والله- لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن[11] الله أن يُسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه[12] إني لأرجو فيه عقبى الله[13]، لا -والله- ما كان لي عذر، والله ما كنت -قط- أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»، فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله مازالوا يؤنبونني[14] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّب نفسي.

---

(١) والنظر في عطفيه: أي جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٢) مبيضا: لابس البياض.

(٣) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.

(٤) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.

(٥) توجه قافلا: راجعًا.

(٦) حضرني بثي: حزني.

(٧) أظل قادمًا: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.

(٨) زاح: أزال.

(٩) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

(١٠) أعطيت جدلا: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.

(١١) ليوشكن: ليسرعن.

(١٢) تجد عليَّ فيه: تغضب.

(١٣) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيرا ويثيبني عليه.

(١٤) يؤنبونني: يلومونني أشد اللوم.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة- من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا[1] وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم[2] فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى طال ذلك عليَّ من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، -وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي- فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله[3] هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام[4] ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة[5] فالحقْ بنا نو فقلت حين قرأتها: وهذا أيضا من البلاء فتيممت[6] بها التنور، فسجرتها[7] به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين واستلبث الوحي[8] إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها، قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه -والله- ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي

---

(١) استكانا: خضعا.
(٢) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سنا وأقواهم.
(٣) أنشدك بالله: أسألك بالله.
(٤) نبط أهل الشام: فلاحو العجم.
(٥) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.
(٦) تيممت: قصدت.
(٧) فسجرتها: أحرقتها.
(٨) استلبث الوحي: أبطأ

بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه، قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللهُ عز وجل منا، قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[1] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، قال: فآذن[2] رسول الله ﷺ توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إليَّ فرسًا، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم[3] رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا[4] يهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنأك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع[5] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه[6] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ

---

(١) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه، وسلع: جبل بالمدينة معروف.

(٢) فآذن الناس: أي أعلمهم.

(٣) أتأمم: أي قصد

(٤) فوجا فوجا: الفوج الجماعة.

(٥) أنخلع من مالي: أتصدق به.

(٦) أبلاه الله: أنعم عليه.

اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨] حتى بلغ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة -قط- بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

قال كعب: وكنا تخلفنا -أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا[١]، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[٢]. وفي هذه القصة دروس وعبر وفوائد كثيرة نذكر منها:

١- الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع:

لقد تمت صياغة هذا الحديث بأسلوب جميل، وبيان رائع، وأدب رفيع، وإنه ليعتبر -مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك- نماذج عالية للأدب العربي الرفيع، وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب، وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية، انظر مثلا إلى قول كعب في هذا الحديث: فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب؛ فأجمعت صدقه[٣].

٢- الصدق سفينة النجاة:

لقد أدرك كعب، وهلال، ومرارة -رضي الله عنهم- خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله -تعالى- كبيرًا في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا

---

(١) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٤١٨، صحيح السيرة النبوية، ص٦١٤.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٧).

عليه[1]، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

٣- الهجر التربوي وأثره في المجتمع:

إن الهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات؛ لأن من توقع أنه إذا وقع في شيء من ذلك سيكون مهجورا من جميع أفراد المجتمع، فإنه لن يفكر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني، حيث توجد الدولة المهيمنة والمجتمع القوي، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طبق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التربوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا، فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرما[2] لقول رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» [3] ولقوله ﷺ: «مَن هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»[4].

٤- تنفيذ أوامر القيادة في المجتمع المسلم:

استجاب المجتمع المسلم كله لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى ﷺ وامتنعوا جميعا عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة، ووصف كعب لنا ذلك فقال:... فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد[5]... وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد عليه السلام، وناشده بالله مرارًا: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي، ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٨).

(٢) المصدر نفسه (٨/ ١٣٩).

(٣) مسلم، كتاب البر، رقم ٢٥٦٠، ص١٩٨٤.

(٤) مسند أحمد (٤/ ٢٢٠).

(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٩٥.

النبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه[1].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله ﷺ الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، فالتزم الجميع بذلك، واستأذنت زوجة هلال بن أمية -وكان شيخا طاعنا في السن لا يجد من يخدمه- فطلبت من الرسول ﷺ أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي ﷺ بذلك شريطة ألا يقربها؛ فالتزمت رضي الله عنها[2].

٥- الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوض الأركان، ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك ﷺ وعقوبة رسول الله ﷺ له، بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها، تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك[3]. فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجال من أهل الشرك، ثم أحرق الرسالة[4] وهذا الموقف يدل على شدة ولاء كعب لله ورسوله وقوة إيمانه وعظمة نفسه، فقد أدرك أنها محنة جديدة أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسلب، أو يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في التنور ليصير رمادا، ويصير كل ما به دخانا يتبدد في الهواء، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيمانا، وأصفى ما يكون روحا، وأكرم ما يكون أخلاقا، فيالعظمة هذه النفوس المؤمنة الكبيرة[5]! لقد مر كعب من فوق هذا الاختبار والابتلاء عزيزًا قويًا بإسلامه، لم يتأثر به ولا انزلق فيه[6].

٦- توبة الله على العبد قيمة دينية يتطلع إليها الصادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله ﷺ حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة -رضي الله عنهم- حتى صاروا يتلقون كعبًا وصاحبيه أفواجًا يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة، وجاء كعب إلى النبي ﷺ ووجهه يبرق من السرور فقال له: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، وهذا يعني مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام.

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٠).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٩٦.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤١٨.
(٤) المغازي (٣/ ١٠٥١، ١٠٥٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥١٧).
(٦) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٣٠٧.

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم، وبالتالي فإنه يحظى بحفظه -جل وعلا- في الدنيا وتكريمه في الآخرة، لقد كانت توبة كعب عظيمة عبر عنها بنزع ثوبيه -اللذين لا يملك يومئذ غيرهما- وإهدائهما لمن بشره[1] وعدم نسيان كعب لطلحة بن عبيد الله مصافحته وتهنئته له[2] وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعبا لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له[3] وقد جاء في رواية الواقدي: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد قال: وخرجت إلى بني واقف فبشرته فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه[4].

٧- **تشرع أنواع من العبادات شكرًا لله عند النعمة:**

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله -سبحانه وتعالى- عليه لا تحدها حدود، ولا يتصورها مثل، وقد تفنن هو ﷺ في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

أ- سجود الشكر: حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خر ساجدًا من فوره شكرًا لله -تبارك وتعالى- فقد كان من عادة الصحابة -رضي الله عنهم- أن يسجدوا شكرًا لله -تعالى- كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة، وقد تعلموا ذلك من رسول الله ﷺ[5].

ب- مكافأة الذي يحمل البشرى: فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما، ثم استعار ثوبين فلبسهما، ولا شك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة، فإن كان المبشر غنيا كان له هدية، وإن كان فقيرا كان له صدقة، وكلاهما إخراج المال شكرا لله -تعالى- على إنزاله الفرج[6].

ج- التصدق بالمال: فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله تعالى، لكنه -عليه الصلاة والسلام- لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[7] وقد ثار الخلاف الفقهي فيمن نذر التصدق بجميع ماله، والصدقة مستحبة، والنذر واجب الوفاء، ولم يذهب كعب إلى النذر، وإنما استشار في الصدقة بكل المال، فأشار رسول الله ﷺ عليه بإمساك بعض ماله.

* * *

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٨١).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٢).
(٤) المغازي للواقدي (٣/ ١٠٥٤).
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٩٣.
(٦) نفس المصدر، ص٤٩٣، الصراع مع الصليبيين، ص٢٠٢.
(٧) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٩٣.

المبحث الخامس

دروس وعبر وفوائد

أولاً: معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة تبوك:

إن الآيات التي أنزلها الله في كتابه المتعلقة بغزوة العسرة هي أطول ما نزل في قتال المسلمين وخصومهم، وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه، وإن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم، يعد مزلقة إلى الردة والنفاق[1] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وعند التأمل في سورة التوبة يلاحظ القارئ أن لها معالم في عرضها لغزوة تبوك منها:

١- عاتب القرآن الكريم من تخلف عتابًا شديدًا، وتميزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأن الله حث على الخروج فيها -وعاتب من تخلف عنها- والآيات الكريمة جاءت بذلك، كقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقد ختمت الغزوات النبوية بهذه الغزوة، وقد كان تطبيقا عمليا لوضع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] موضع التنفيذ[2].

٢- ميز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها، فسماها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] فقد كانت غزوة عسرة بمعنى الكلمة.

٣- من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة أن الله رد على المنافقين لمزهم فقراء الصحابة عندما جاء أحدهم بنصف صاع وتصدق به، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٤٠٤.

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٧٠٢).

٤- بين القرآن الكريم أن المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ -وعددهم يزيد عن الثلاثين ألفا- قد كتب الله لهم الأجر العظيم[1] قال تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ثانيًا: ممارسة الشورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة ومن هذه النوازل:

أ- قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[2].

ب- قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ﷺ في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ﷺ في ذلك جاءه عمر ﷺ فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر ﷺ حلا لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملأوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

ج- قبول مشورة عمر ﷺ في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب ﷺ بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا، إذ إنه يتطلب تكتيكًا

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٧٠٣).

(٢) أخرجه ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم ١٧٠٧.

خاصًا لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفًا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر[1].

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... إلخ منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

ثالثا: التدريب العملي العنيف:

كان في خروج الرسول ﷺ بأصحابه إلى تبوك فوائد كثيرة، منها:

تدريبهم تدريبا عنيفا، فقطع بهم ﷺ مسافة طويلة في ظروف جوية صعبة حيث كانت حرارة الصيف اللاهب، بالإضافة إلى الظروف المعيشية التي كانوا يعانون منها، فقد كانت هناك قلة في الماء حتى كادوا يهلكون من شدة العطش، وأيضا كانت هناك قلة في الزاد والظهر ولا شك في أن هذه الأمور تعد تدريبا عنيفا لا يتحمله إلا الأقوياء من الرجال.

وفي هذا الدرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريبا عنيفا، كاجتياز مواقع وعراقيل صعبة جدا، وقطع مسافات طويلة في ظروف جوية مختلفة، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، لقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف -إن لم تكن أصعب منها بكثير- لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها، وقطعوا مسافات طويلة شاقة في صحراء الجزيرة العربية صيفًا، وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة.

إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض الرسول ﷺ منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية... فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، فلابد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى[2] وقد ساعد هذا التدريب العملي الصحابة في عصر الخلفاء فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم، وثقتهم بخالقهم، وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح وأنواع الأسلحة في زمانهم.

(١) انظر: غزوة تبوك، باشميل، ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) انظر: الرسول القائد، ص٢٨١، ٢٨٢.

رابعًا: أهم نتائج الغزوة:

أ- يمكن للباحث أن يلاحظ أهم نتائج هذه الغزوة وهي:

١- إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعًا -مسلمهم وكافرهم على السواء- لأن قوة الروم كانت في حس العرب لا تقاوم، ولا تغلب، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم، ولعل الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكدة على ما ترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لا تقهر، فكان لا بد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

٢- إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالميا -حينذاك- ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري؛ حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالا فحققوا انتصارا للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حاليا على خليج العقبة)، وكتب رسول الله ﷺ بينه وبينهم كتابا يحدد ما لهم وما عليهم[١] وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتأثير الإسلامي، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعد ما حدث في تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام[٢] وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان، والتي واصلها خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول ﷺ قبل موته جهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربة موجهة صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله، ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته ﷺ، ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه كما سيأتي[٣] بإذن الله عند الحديث في سيرة الصديق رضي الله عنه.

---

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، للشجاع، ص٢٠٩.

(٢) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد، ص١٠٢.

(٣) انظر: دراسات في عهد النبوة، للشجاع، ص٢٠٩.

لقد وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية.

٣- توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول ﷺ، حيث تأثر موقف القبائل العربية من الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة، وخيبر، وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد أن امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة؛ ونظرا لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها، فقد سمي العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود[١].

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تتربى عليها أمته في أجيالها المقبلة[٢]، ومليئة بالدروس والعبر في تربية الأمة وإقامة الدولة التي تحكم بشرع الله.

* * *

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٤/ ٤٦٠).

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

غزوة بدر الكبرى

الفصل الثاني

غزوة بني قينقاع

الفصل الثالث

غزوة أحـــــد

الفصل الرابع

غزوة بني النضير

الفصل الخامس

غزوة ذات الرقاع

الفصل السادس

غزوة بدر الموعد ودومة الجندل

الفصل السابع

غزوة بني المصطلق

الفصل الثامن

غزوة الأحزاب

الفصل التاسع

غـــزوة خيـــبر

الفصل العاشر

سرية مؤتة ٨هـ

الفصل الحادي عشر

غزوة فتح مكة (٨ هـ)

الفصل الثاني عشر

غزوة حنين والطائف ٨هـ

الفصل الثالث عشر

غزوة تبوك ٩هـ وهي غزوة العسرة

* * *